

امرأة في الرّمال
كوبو آبي
ترجمة كامل يوسف حسين
دار الآداب


ohamed khatab

كوبو آبي

المرأة في الرمال

رواية

ترجمة: كامل يوسف حسين

منشورات دار الآداب . بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٨

مقدمة المترجم

- ١ -

في إطار محاولتنا لتعريف القارئ العربي بالرواية والمسرح اليابانيين، قمنا بتحقيق إطلالة على منجزات القاص والمسرحي الياباني البارز كوبو آبي، على صفحات أكثر من دورية عربية واحدة. ثم عدنا في مرحلة تالية فقدمنا ترجمتنا لروايته «موعد سري»، وفصلنا القول في مقدمتها، فيما يتعلق بالتعريف بالكاتب وعالمه الروائي والمسرحي على السواء. وأضفنا إلى ذلك ترجمتنا لثلاث مسرحيات له، هي على التوالي «الخفية»، «صخرة الزمن»، «الرجل الذي تحول إلى عصا»، والتي لا زلنا نأمل في أن ندفع بها للقارئ العربي، في مجلد واحد، فقد كان آبي نفسه هو الذي أصدرها على هذا النحو، رغم أنه كتبها وعرضها على خشبة المسرح منجّمة، وإن كان قد عاد فأكد الصلة الموضوعية بينها.

ولما كانت مسرحية آبي الموسومة «الأصدقاء» قد ترجمت إلى العربية كذلك، وها نحن نقدم له اليوم ترجمتنا لروايته «المرأة في الرمال»، فإننا نحسب أن القارئ العربي قد حقق حداً أدنى، لا بأس به، فيما يتعلق بالإلمام بمنجزات آبي، يجعله في وضع طيب، جنباً إلى جنب مع القراء في أكثر من ٤٠ لغة، على امتداد العالم، ترجمت إليها أعماله.

ربما لهذا كلّه نظنّ أنه ما من حاجة تدعونا هنا إلى أن نقدّم للقارئ لوحة خارجية، حول التعريف بالحقائق الأساسية عن آبي. ومع ذلك، فإننا نعتقد، في الوقت نفسه، أننا مدينون للقارئ هذه الصفحات بإلقاء الضوء على نقاط خمس، نعلّق عليها أهمية كبرى، في تفهّم القارئ لمقاليق عالم آبي، الذي لا يفضّ أسراره بسهولة:

أولاً، الموطن: والمقصود بالموطن هنا المعنى الاصطلاحي في التقاليد اليابانية، فبحسب هذه التقاليد لا بدّ لكل إنسان من «موطن»، بمعنى أنه لا بدّ له من بلدة، خارج العواصم الكبرى، قد تكون مسقط رأسه، وقد لا تكون، لكنها دائماً المقرّ والمآب لعائلته، ينتسب إليها، ويشدّ الرّحال، بين الفينة والفينة، ثم يعود إليها، في نهاية المطاف، ليدفن في أرضها، أو على الأقل، ليذرى رماده في نهرها، أو مع رياحها.

ويلفت نظرنا حقاً أنّ كوبو آبي ولد، في ٧ مارس ١٩٢٤، في طوكيو، حيث كان أبوه، وهو طبيب يعمل بكلية الطب المانشورية في «موكدن»، منتدباً للقيام ببعض الأبحاث. ولم يكن آبي قد بلغ عاماً من العمر، حينما غادرت الأسرة طوكيو، عائدة إلى موكدن، حيث ظلّ يقيم إلى أن بلغ السادسة عشرة من عمره. وفيها توجّه إلى طوكيو من جديد للدراسة وتلقّي تدريبه العسكري، كانت الوثائق الرسمية تتضمّن تسجيله باعتباره من أبناء جزيرة هوكايدو، في شمالي اليابان، التي أقام بها عدة سنوات، ولكنه لم يقدّر له قطّ أن يعرف، على وجه الدقة، ما الصلة بين هوكايدو وطوكيو وموكدن. ولعلّه، من هنا، ليس عجيباً أن آبي نفسه هو الذي كتب يقول: «إنني رجل بلا موطن».

وربما انعكس هذا ، بشكل غير واع ، في طبيعة الاهتمام بالمكان في كل أعمال آبي ، دون استثناء ، وبذلك الشعور الدائم بالانتزاع والتمزّق ، الذي يرافق فقدان الموطن .

ثانياً ـ الدراسة : في عام ١٩٤٤ ـ لاحظ دلالة هذا التاريخ ـ مضى آبي إلى طوكيو للدراسة ، ولم يكن مسار حياته الجامعية من النوع المتألق . ويلفت النظر أن موقفه من الحرب كان يعكس لوناً آخر من التمزّق ، فهناك من ناحية الرفض والاشمئزاز حيال الفاشية والنزعة العسكرية المواكبة لها ، وهناك في الوقت نفسه الرغبة الطبيعية والمفهومة في المشاركة في المجهود الحربي لليابان .

وقد تخصص آبي في دراسة الطب ، لا بسبب اهتمامه بهذا الفرع الدراسي بصفة خاصة ، وإنما لتعرضه لضغوط عائلية ، مناطها أن الرحلة التي سار فيها الأب لا بدّ للابن أن يكملها .

هنا يلفت النظر أنه رغم التحاقه بكلية الطب بجامعة طوكيو في ١٩٤٣ وتخصصه في علم أمراض النساء ، فإن دراسته كانت تسير متعثرة ، ولم يكن اجتيازه للامتحانات بالأمر السهل ، وكانت مرحلة الدراسة هي نفسها التي شهدت إصدار أول أعماله ، والتي استدعت على الفور المقارنة ، التي دامت بعد ذلك طويلاً ، بينه وبين القاص التشيكي العالمي فرانز كافكا .

وتشير موسوعة « كودانشا » اليابانية ، في هذه النقطة على وجه التحديد ، إلى إنه لم يجتز امتحانه النهائي ، إلاّ بعد أن أطلع أستاذه على اعتزامه عدم الاشتغال بالطب .

ومن المؤكّد أنّ دراسته للطب قد تركت بصمتها على كتاباته ،

ويبدو هذا جلياً، بشكل خاص، في أعماله التي تندرج في إطار روايات الخيال العلمي، وبالتحديد «في قلب عصر الجليد الرابع» الصادرة في ١٩٥٩ و «صورة إنسان» الصادرة في ١٩٦٧.

مع ذلك، فإن هذا الرجل، الذي أمضى سنوات طويلة من عمره في دراسة الطب، قدّر له أن يكون المسرحيّ الذي تعرض أعماله في شتى أرجاء الكون، من نيويورك حتى صوفيا، ومن موسكو حتى سيدني، وأن يغدو الروائي الذي لا تزال أحدث رواياته تثير ضجة كبرى، في الدوائر النقدية اليابانية، رغم مرور شهور طويلة على صدورها.

ثالثاً ـ مفهوم اليابان، من المؤكد أن القارئ، الذي تابع محاولتنا للتعريف بالرواية اليابانية، يذكر أن المفهوم عن اليابان يرتفع إلى مرتبة المفهوم القابض، عند الكثيرين من روائييها، وهو المفهوم الذي رأيناه يصل إلى مرحلة الاستحواذ عند شوساكو إندو، ويرقى إلى مرتبة الهمّ المؤرق عند كينزابورو أوي.

وعند كاتبنا آبي، تكتسب المسألة تعقيداً أشدّ، فهو في مناهج اقترابه من المشكلات الاجتماعية الحديثة لا يبدو لنا كاتباً يابانياً صرفاً، على نحو ما يمكننا أن نصف حالة يابانيين آخرين، مثل جونتشيرو تانيزاكي، ياسوناري كاواباتا، ويوكيو ميشيما، ذلك أنه يطرح دائماً موضوعتين محوريتين، أو لنقل موضوعة ذات بعدين: الاغتراب، وفقدان الهوية، ومنهاجه في التناول لا ينطبق على اليابان وحدها، وإنما على المجتمع الصناعي الحديث بأسره.

ومع ذلك، فإنه يعنى من المعاني، كاتب يابانيّ، حتى أطراف

أصابعه، وعبقريته يابانية صرفة، روحاً واستلهاماً وعطاءً. ولعلنا نتذكر هنا أنه لم يقدّر له قط ـ على العكس من منافسه العتيد في الرواية والمسرح ميشيما ـ أن يتملّك ناصية أي لغة أجنبية بطلاقة، وظل اتصاله بالآداب الأجنبية، على الدوام، من خلال الترجمات اليابانية.

رابعاً ـ المدينة هي الجحيم: لا يكاد عمل واحد من أعمال آبي يخلو من الحديث تفصيلاً، إلى حدّ تشكيل صميم العمل، في كثير من الأحيان، عن المدينة، ذلك التجمّع الهائل من البشر، المجرّد من الطابع الشخصي، والخانق، والقبيح.

في هذا التجمّع يفقد الإنسان هويّته، باعتباره كفرد، فهو يضرب في أغوار متاهة هائلة الامتداد، ضاعت خارطتها، وفقدت مفاتيحها، وعلى هذا الإنسان أن يبحث عن مخرج، ربما لن يقدّر له قط أن يراه.

القانون في هذه المتاهة هو التشيّؤ، فالإنسان من منظور آبي يتعرّض للضغط المتصاعد حدّ السحق، حتى ليغدو شيئاً في نهاية المطاف، ويستحيل كائناً مدينياً، يحكمه منطق المدينة المقلوب، الذي يجعل من اللامنطق طريقة حياة.

من منظور آبي، الحياة العصرية تقد للوجود، قوامه العزلة الضارية، وبجرّد التماس مع كائنات المدينة الأخرى يعني الخطر، وربما الدمار.

خامساً ـ انقلاب الأدوار: يلجأ آبي غالباً إلى هذا الأسلوب ليشدد، بشكل فني، ودون تدخّل من جانبه، يجعل القارئ يلمس بيده

في العمل، دع جانباً أن يضرب عليها، على قضايا يريد تأكيدها، لأهميتها في رسمه لعالم المدينة الجحيميّ، حتى ولو كانت المشاهد تقع جميعها بعيداً عن المدينة.

هنا يصبح الصيّاد طريدة، ويغدو المعتدي ضحيّة، ويبدو هذا الأسلوب، كأقوى ما يكون، في الرواية الماثلة بين يدي القارئ، فمطارد الحشرات العنيد، المعتزّ بخبرته، سوف يصبح هو نفسه طريدة، والمقارنة بين المصيرين مقصودة تماماً، وليست من قبيل الصدفة.

وبالمثل، ففي رواية «الخارطة المهشمة»، الصادرة في عام ١٩٦٧، لا يصيب الفشل التحرّي، الذي ينطلق بحثاً عن الزوج المفقود، في العثور على الرجل الذي كان يسعى وراءه فحسب، لكن الأمر ينتهي بأن يفقد هويته كلية.

هذه النقاط الخمس، في اعتقادنا، لها أهمية خاصة، في تسهيل فهمنا لعالم آبي الروائي، وبإيضاحنا لها ينتهي المحور الأول من المحورين اللذين أردناهما صلباً لهذه المقدمة.

أما المحور الثاني، فيدور حول مقترب نقترحه على القارئ، لا لنعالج به هذا العمل وحده من أعمال آبي، وإنما ليتناول به أعماله الأخرى، سواء ما أصدرناه منها بالفعل، أو ما نعتزم أن نصدره مستقبلاً.

فليس يخفى على القارئ أن النصّ الروائيّ الحديث أصبح، بحكم طبيعته، يقدّم وفرة من الدلالات، بحيث يبدو من القصور حقاً أن نحاول تقييده بنموذج تحليليّ واحد، وخاصة إذا كان هذا النموذج

يفرض على النص بشكل فوقي ومسبق. إضافة إلى هذا، فإن النص استحال عالماً بذاته، لا يحيل إلى الواقع، كإطار مرجعي، وإنما يفرض ذاته عالماً قائماً بنفسه، يستمد مقوماته من كونه كذلك، أي من كونه عالماً يستحق اهتماما في ذاته.

من هنا، فإننا نقترح على القارئ، الذي يرغب في تجاوز مجرد القراءة السريعة لأعمال آبي ـ ولتلك القراءة متعتها بالطبع ـ إلى ما هو أبعد عمقاً، إلى النفاذ إلى قلب الأشياء في عالمه الروائي، أن يوائم، على نحو ما فعل رولان بارت، وما طبقه بعض النقاد العرب بنجاح لا بأس به، بين ثلاثة مناهج لثلاثة من كبار النقاد المحدثين.

المنهج الأول هو منهج الكسندر بروب، الباحث الشكلاني الروسي، المختص في تحليل الحكاية الشعبية، وهو المنهج الذي استخدم، بعد كثير أو قليل من التعديل والتحوير، في دراسة النصوص القصصية.

ويقوم منهج بروب على أساس انتقاء الوحدات الوظيفية، في تسلسلها الأفقي. والمقصود بالوحدة الوظيفية هو الفعل، الذي يصنع الوصل بينه وبين الأفعال المتتالية المنبنية عليه. وبارت يميّز بين وحدات الوصل، من ناحية، ووحدات الدلالة، من ناحية أخرى. فالأولى تختص بعملية القص، والثانية تختص بالبقية. الأولى تتعلق بالأحداث والأفعال، بينما الثانية تدور حول الكيان والوجود.

هنا ينبغي على الفور أن نلاحظ أن الأعمال الروائية الحديثة، ومنها أعمال آبي، لم تعد، بالطبع، تمثّل شكلاً يحكي حكاية، وإنما تطرح أداء لغوياً، في إطار الشكل والبنية، الأمر الذي يقتضي استخدام المنهج

التوزيعيّ والتجميعيّ في القـراءة والتحليـل. فعلى حين أن الوحـدات الوظيفية تتراصّ جنباً إلى جنب، فإن الوحدات الدلالية تنتشر في العمل كله، وتتوضّع في العديد من الاتجاهات، وتغدو كالعلامات، التي يتعيّن على القارئ أن يتلمّسها، ويربط بينها، في موقف موحد، من أول العمل حتى آخره، ليتبيّن المنطق الذي يربط بينها.

والمنهج الثاني هو منهـج جـريماس، وهـو لا يبحـث في أفعـال الشخوص، وهو منهج مشتق من منهج بروب، ولكن بدلاً من تعقّب تـوالي الأفعـال بشكـل أفقـي، فـإن جـريماس لا يتحـدث عـن «الشخوص»، وإنما عن «الفواعل». والفاعل عند جريماس، يبرز دوره، وتتحدد هويته، من خلال تكتّله مع ثلاثة محاور: محور الاتصال بين الذات والموضوع، ومحور الرغبة بين من يرغب في أن يعطي ومن يعطي، ثم محور الاختبار، وقوامه مـوقـف البطـل، أو بـالأحـرى الشخصيـة الرئيـسية، من القوى المساعدة والقوى المعادية.

اما المنهاج الثالث، الذي يدعونا بارت إلى أن نلائم بينه وبين المنهاجين السـابقين، فهو المنهاج الذي يعنى بالنصّ في حدّ ذاته، بوصفه وحدة واحدة، ذلك أن النص بلغته البالغة الخصوصيـة أصبح يمثّل الأداء الكامل للنصّ.

ولسنـا نريد أن نفسـد على القارئ متعة مطالعة العمل، من ناحية، ولا اكتشاف العالم الخفيّ الذي يتكشّف له، إذا حاول تطبيق هذا المنهاج الثلاثي على نص أدبي، من ناحية اخرى، لكننا نودّ أن نشدّد هنا على عدة نقاط أيضاً:

● يحدّثنا الكسندر بروب عن أن في الحكاية الشعبية حدثاً، قوامه الفقد، هو الذي يجعل الشخصية الرئيسية تنطلق في رحلة طويلة، من أجل استعادة ما فقد، وهو غالباً شيء لا غنى عنه. ومع الإشارة

تحديداً إلى المسافة بين الحكاية والنصّ الروائي الحديث، فإن نص آبي الماثل بين أيدينا، يبدأ بفقد هائل، هو الذي يدفع البطل، أو بمزيد من الدقة بطل ـ الضدّ هنا، إلى الخروج إلى الصحراء بحثاً عنه.

• إذا رصد القارئ الوحدات الوظيفية، في انطلاقها الأفقي، حتى النهاية، فإنه سيجد آبي يشير على نحو سريع وعابر، قبيل النهاية، إلى حدث «العثور». فلعلّ القارئ لا تعجب منه هذه الإشارة، ولعله يكتشف بنفسه طبيعة ما تمّ العثور عليه.

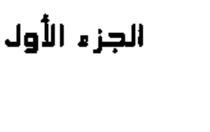
• بطل ـ الضدّ هنا، ونحن دائماً عند آبي مع أبطال ـ ضد، يثير اهتمامنا حقاً، لا من منطلق الاهتمام التقليديّ بالبطل، فليس يخفى أن بوسعنا القول إن النص الروائي الحديث ألغى مفهوم البطل كلية، وأحلّ محلّه الشخصية التي تنتفي عنها البطولة، لأنها لم تعد معنية إلا بالكشف عن العلاقات الخفية والمتداخلة بين جزئيات عالمه، مستدعياً القارئ إلى مشاركته إدراك الحقيقة الكامنة خلف طبيعة الحياة التي يحياها الانسان الحديث. ومناط اهتمامنا في الواقع ذلك الشبه المؤرّق بين بطل ـ الضد وبين الملامح التي نراها كلّ صباح حينما يطلّ كلّ منا في مرآته

ولعله لا يفوت القارئ الاهتمام بالرموز التي تنتشر على امتداد العمل، كأنها العلامات والدلالات والمفاتيح، تلقي الضوء على الأسرار.

... وبعد فهذه الرواية رحلة ممتعة ومرهقة معاً، ومن يدري، فقد يكتشف كثيرون منا، بعد إتمامها، أنهم هناك، في قرار حفرة رملية، تأخذ الريح بخناقها، وأن كلمات كوبو آبي وحدها أزاحت قناع الرمال عن وجوههم.

المترجم





الجزء الأول



اختفى رجل، ذات يوم من أيام أغسطس. وكان قد انطلق في إجازة على شاطئ البحر، على مسيرة تصل بالكاد إلى نصف يوم بالقطار، ثم احتجبت أخباره. ومضى، بلا طائل، التحقيق الذي أجرته الشرطة، والاستفسارات التي نشرت في الصحف.

ليس تغيّب الأشخاص، بالطبع، أمراً خارجاً عن المألوف. فالاحصاءات توضّح أن عدة مئات من حوادث الاختفاء والتغيّب يتم الإبلاغ عنها سنوياً، وفضلاً عن ذلك، فإن نسبة أولئك الذين يتمّ العثور عليهم محدودة، على نحو غير متوقع. وتترك جرائم القتل والحوادث على الدوام بعض الأدلة الجلية، وعادة ما يمكن رصد الدوافع المؤدية للاختطاف. أما إذا كان المثال لا يندرج تحت مثل هذا التصنيف، فإن مفاتيح الحقائق-وينطبق هذا بصفة خاصة في حالة الأشخاص المفقودين - يصعب إلى حد كبير العثور عليها. فعلى سبيل المثال، قد يتمّ توصيف العديد من حالات الاختفاء على أنها هرب بسيط.

وفي حالة هذا الرجل كذلك، كانت مفاتيح الحقائق شديدة الضآلة. فعلى الرغم من أن مقصده كان معروفاً، لم ترد تقارير من تلك المنطقة باكتشاف جثة. وبحكم طبيعة عمله ذاتها، كان من المستبعد أنه يتضمّن سراً ما تمّ اختطافه من أجله. ولم يشر سلوكه العادي المادي، أدنى إشارة، إلى أنه تعمّد الاختفاء.

ومن الطبيعي أن الجميع تصوّر، في بادئ الأمر، أن في الأمر امرأة. ولكن زوجته، أو بالأحرى المرأة التي يعاشرها، أعلنت أن الهدف من وراء رحلته كان جمع نماذج من الحشرات. وقد ساور شعور بخيبة الأمل، على نحو غامض، محققي الشرطة وأصدقاءه. فزجاجة جمع الحشرات وشبكة اصطيادها ليسا بالتمويه الملائم لرحلة هرب بصحبة فتاة. وهناك أيضاً موظف المحطة في بلدة سكا، الذي تذكّر رجلاً ترجّل من القطار، وقد بدا كما لو كان متسلّقاً للجبال، وحمل مزادة متقاطعة على كتفيه مع صندوق خشبي، اعتقد أنه طاقم أدوات رسم. وكان الرجل وحيداً، وحيداً تماماً، فيما قال الموظف، وهكذا فإن التكهّن حول وجود فتاة كان شيئاً لا أساس له.

طرحت نظرية حول أن الرجل أقدم، وقد سئم تكاليف الحياة، على الانتحار. وتشبّث بهذه النظرية أحد زملائه، من هواة التحليل النفسي، فزعم أنه في أعماق رجل ناضج بمثل الحماس لأسلوب لا طائل وراءه لتزجية الوقت، مثل جمع الحشرات، دليلاً كافياً على الالتواء العقلي. وحتى في صفوف الأطفال غالباً ما يشير الانشغال غير المألوف بجمع الحشرات إلى عقدة أوديب، فالطفل لكي يعوّض عن رغباته، التي لم يتم إشباعها، يستمتع بغرس الدبابيس في الحشرات، التي لا مجال للخوف من هربها قط. وتشير الحقيقة القائلة بأنه لم يتخلّ عن هذه الهواية، حينما بلغ سنّ النضج، بشكل محدّد تماماً، إلى أن الحالة قد تدهورت. وهكذا، فليس من قبيل الصدفة أن أخصائيي الحشرات غالباً ما تراودهم رغبة حادّة في التملّك، وأنهم إلى حدّ بعيد يميلون إلى العزلة، ومصابون بالسرقة المَرَضية وشاذّون جنسياً. ولا تبعد هذه النقطة إلا خطوة واحدة عن الانتحار من جرّاء الضيق بالدنيا.

وواقع الأمر أن هناك بعضاً من جامعي الحشرات يجتذبهم سبانيد البوتاسيوم في زجاجاتهم بأكثر مما تجتذبهم عملية الجمع ذاتها. وأيّاً كانت محاولاتهم، فإنهم يظلّون عاجزين عن الابتعاد عن هذا الاهتمام، ونفض أيديهم منه. حقاً إن الرجل لم يفض بأمر اهتماماته لأحد قط، مما سيبدو أنه برهان على أنه يدرك أن هذه الاهتمامات مشكوك في أمرها للغاية.

ومع ذلك، وبما أنه لم يتمّ بالفعل العثور على جثّة، فإن كلّ هذه التكهنات البارعة تظلّ بلا أساس.

انقضت سبع سنوات، دون أن يعلم الحقيقة أحد، وهكذا فقد تمّ، إعمالاً للمادة ٣٠ من القانون المدني، إعلان الرجل في عداد الموتى.

- ٢ -

ذات أصيل من أصائل أغسطس، وقف رجل في محطة السكك الحديدية، في بلدة ساك. كان يعتمر قبعة رمادية، مستدقّة القمة، وقد دسّ أطراف سرواله في جوربيه، وتقاطع على كتفيه صندوق خشبيّ ومزادة، فبدا موشكاً على الانطلاق في حملة تسلّق للجبال.

ومع ذلك، لم تكن هناك جبال جديرة بالتسلّق في المنطقة المجاورة. فنظر إليه الحارس، الذي أخذ بطاقة سفره، عند البوابة، بفضول، عقب اجتيازه لها. لم يَبْدُ الرجل تردّداً، وهو يلج الحافلة

المتوقفة أمام المحطة ، ويظل مقعداً في مؤخّرتها . وكان الطريق الذي تقطعه الحافلة يمتدّ مبتعداً عن الجبال .

بقي الرجل في الحافلة ، حتى نهاية مسيرتها ، وحينما ترجّل منها ، بدت معالم الطبيعة بالمنطقة مزيجاً من الروابي والأغوار . كانت الأراضي المنخفضة حقول أرز ، تقسمها قواطع ضيّقة ، فيما تخلّلتها حقول مرتفعة قليلاً ، زرعت بأشجار البرسيمون ، فبدت شبيهة بالجزر . مرّ الرجل بقرية ، وواصل السير باتجاه شاطئ البحر ، فغدت التربة تدريجياً مبيضّة وجافّة .

بعد انقضاء فترة ، لم يعد هناك المزيد من الدور ، ولم تبد إلا أجمات متناثرة من أشجار الصنوبر ، ثم تغيّرت التربة ، فغدت رملاً دقيقاً ، علق بقدمه . وبين الفينة والأخرى ، راحت كتل جافة من النجيل الجافّ تلقي بظلالها على المناطق المنخفضة في الرمل . وبرزت ، كأنما بطريق الخطأ ، بقعة محدودة من الباذنجان في مساحة حصير من القشّ . ولكن ما من أثر لظلال بشرية بدا ، ووراء هذا كله امتدّ البحر ، الذي كان يغذّ السير نحوه .

توقّف للمرة الأولى ، وجفّف العرق عن وجهه بكمّه ، وراح يحدّق فيما حوله . فتح ، بمزيد من التروّي ، الصندوق الخشبيّ ، والتقط من الدرج العلوي العديد من أجزاء قائم شبكة وضعت معاً في حزمة واحدة ، وقام بتجميعها ، لتغدو قائماً مستقيماً ، رتّبت شبكة حشرات إلى أحد الطرفين ، ثم شرع في السير من جديد ، لاطماً كتل النجيل بطرف القائم السفلي . ولفّت رائحة البحر الرمال .

انقضت برهة ، ولكن البحر كان لا يزال بعيداً عن مجال الرؤية .

ربما كانت الأرض الخافلة بالتلال تحول دون الإطلال عليه. امتدت المناظر الطبيعية، التي لا تغيّر فيها، دونما انتهاء، ثم فجأة اتّسع مجال الرؤية، فلاحت قرية صغيرة. كانت قرية مألوفة، بالغة البؤس، تثقل الأحجار سقوف دورها، وتمتدّ متناثرة بلا نظام حول برج سامق لمراقبة الحرائق. كان بعض السقوف مكسوّاً بالآجر الأسود، والبعض الآخر بالصفيح المطلي باللون الأحمر. وبدا أن مبنى صفيحيّ السقف، عند تقاطع الطرق الوحيد في القرية، هو ملتقى تعاونية الصيادين.

ربما ترامت، في البعيد، كثبان رملية أخرى. وامتدّ البحر. ومع ذلك، كانت القرية الصغيرة تمتدّ إلى مدى غير متوقع. كانت هناك بعض البقع الخصبة، لكن التربة تألّفت، في معظمها، من رمل أبيض جافّ. تناثرت حقول البطاطس والفول السوداني، وامتزجت رائحة الحيوانات برائحة البحر، وشكّلت كومة من القواقع المهشمة ركاماً أبيض، على جانب الطريق الممهّد من الطين والرمل، اللذين تجمّدا، فأصبحا كالأسمنت صلابة. فيما انحدر الشارع، هابطاً بالرجل، راح الأطفال يلهون، في الأرض العراء، أمام مبنى التعاونية. واقتعد بعض الكهول الشرفة المتهاوية، وقد عكفوا على إصلاح شباكهم، وتجمّعت نسوة ناحلات الشعر، أمام المتجر العام الوحيد. كفّوا عن الحراك للحظة، وهم يرقبونه في فضول، لكنه لم يبد اكتراثاً، فقد كانت الرمال والحشرات هي كلّ ما يعنيه.

غير أن امتداد القرية لم يكن الشيء الوحيد المثير للدهشة، فعلى العكس مما يتوقّعه المرء، كان الطريق يأخذ تدريجياً في الارتفاع، وبما أنه يفضي إلى البحر، فمن الطبيعي على نحو أكبر أن ينحدر لا أن

يرتفع. أتراه أخطأ في رصده للخارطة؟ حاول أن يسأل صبية من القرية، مرت به وتنذاك، لكنها غضّت بصرها، وسارعت بالابتعاد، كأنها لم تسمع شيئاً. غير أن كومة القواقع وشباك الصيد ولون الرمال، كل ذلك حدّثه بأن البحر يمتد يقيناً على مقربة من القرية، ولم يكن هناك حقاً ما ينبئ بأن ثمة خطراً يتربص به.

شرع الطريق في الارتفاع أكثر فأكثر بشدة، وعلى نحو مفاجئ، وازداد تحوّله إلى رمل صرف.

ولكن من الغريب أن المناطق التي تنتصب فيها الدور لم يزدد ارتفاعها بأدنى مقدار. كان الطريق هو وحده الذي يمضي عالياً، على حين ظلّت القرية ذاتها مسطّحة، لا لم يكن الطريق وحده هو الذي يرتفع، وإنما كانت المساحات الممتدة بين المباني ترتفع، بالمعدّل ذاته. إذن فبمعنى من المعاني بدت القرية بأسرها وقد تحوّلت إلى منحدر يعلو، فيما تركت المباني وحدها عند المستوى الأصلي. وغدا هذا الانطباع أكثر إثارة للدهشة، فيما هو يمضي قدماً. وفي نهاية المطاف، بدت الدور وكأنها تغوص إلى أغوار حُفرت حفراً في الرمال، إذ كان سطح الرمل يعلو عن السقوف، وغارت الصفوف المتتابعة من الدور، أعمق فأعمق، إلى قرار منخفضات.

استدقّت قمة المنحدر مرتفعة على نحو مفاجئ، ومن المحقق أن حساً وستين قدماً كانت تفصله عن قمم الدور. ترى ما الذي يمكن بحق السماء أن تكون عليه السكنى هناك؟ هكذا راح يحدّث نفسه في دهشة، وهو يحدّق في إحدى الوهاد. وفيما هو يحوم حول الحافة لطمته فجأة ريح قاسية، أوشكت على إيقاف نفسه في حلقه. انفتح

المجال فجأة، ولعق البحر الكدر، المزبد، الشاطئ عند السفح. كان يقف على قمة الكثبان التي استهدفها.

كان جانب الكثبان، الذي يواجه البحر، ويتلقّى الرياح الموسمية، ينهض بغتة، لكن كتلاً متناثرة من التجيل الخفيض نمت في المواضع التي لم يكن الميل فيها على هذا القدر من الانحدار. تلفّت الرجل وراءه، نحو القرية. وكان بوسعه أن يرى أن الوهاد الكبيرة، التي زادت غوراً مع دنوّها من القمة، تمتدّ في صفوف عديدة نحو المركز، وتراصت القرية، شبيهة بتقاطع خلية النحل، متراميةً الأطراف فوق الكثبان الرملية، أو بالأحرى امتدت الكثبان منتشرة فوق القرية. أيّاً كان الأمر، فقد كان المشهد مثيراً للقلق والشعور بالتذبذب.

ولكن كفاه أنه بلغ مقصده، الكثبان. شرب بعضاً من الماء من مزادته، وأنعم رئتيه بالهواء، فأحسّ بالهواء، الذي كان قد بدا له بالغ الصفاء، جارحاً في حلقه.

كان يعتزم جمع الحشرات، التي تحيا في الكثبان الرملية.

حشرات الكثبان، بالطبع، صغيرة، وألوانها بعيدة عن الإسراف. لكنه كان جامعاً مجتهداً، ودؤوباً، للحشرات، وعيناه لا تتتبعها أشياء كالفراشات، أو اليعاسيب. ومثل هذه النوعية من جامعي الحشرات لا تطمح إلى تكديس عينات مبهرجة، في صندوق النماذج، كما أنهم لا يهتمون، على نحو خاص، بالتصنيف، أو بالمواد الخام المستخدمة في صناعة العقاقير الصينية. أما متعة الباحث الحقّ عن الحشرات فهي أبسط كثيراً، وأكثر مباشرة، ألا وهي متعة اكتشاف نوع جديد من الحشرات. وحينما يحدث هذا، فإن اسم المكتشف يظهر في موسوعات

علم الحشرات المصورة، ملحقاً بالاسم الفني اللاتيني للحشرة المكتشف حديثاً، وهناك يبقى محفوظاً، الى ما يقلّ قليلاً عن الأبد. وتتوج جهوده بالنجاح، إذا ظلّ اسمه ماثلاً على الدوام في ذاكرة إخوته البشر من خلال ربطه بحشرة.

تتيح الحشرات الأصغر حجماً والأقل بروزاً، بأنواعها التي لا حصر لها، فرصاً عديدة لاكتشافات جديدة. وقد ظلّ الرجل كذلك على امتداد وقت طويل يبحث عن الذباب مزدوج الأجنحة، وبصفة خاصة الذباب البيتيّ المألوف الذي يجده الناس يمتاً على الاستمرار. والأنواع المتعددة من الذباب هي، بالطبع، متنوّعة على نحو لا يصدّق. وبما أن جميع باحثي الحشرات يفكرون، فيما يبدو، بطريقة مماثلة، إلى حدّ بعيد، فقد مضوا بأبحاثهم قدماً، حتى التجلّي الثامن النادر لظاهر التغيّر الوراثي في اليابان، حتى أوشكوا على الوصول إلى مرحلة الاستنفاد. وربما كانت هذه الحشرات، التي تحمل مظاهر هذا التغير، بالغة الوفرة؛ لأن بيئة الذبابة شديدة القرب من بيئة الإنسان.

من الأفضل أن يبدأ بمراقبة البيئة؛ فوجود العديد من التغيّرات البيئية يشير إلى درجة عالية من القدرة على التكيّف لدى الذباب. أليس كذلك؟ تقافز مبتهجاً، لدى وصوله إلى هذا الاكتشاف، وربما لا تكون فكرته سيّئة في جملها، فالحقيقة القائلة بأن الذبابة قد أفصحت عن قابلية كبرى للتكيّف كانت تعني أن بمقدورها العيش حتى في بيئات غير مواتية، ليس بمقدور حشرات أخرى أن تحيا فيها، مثل صحراء تهلك فيها كلّ الحشرات الأخرى.

منذ ذلك الوقت فصاعداً، بدأ في إيداء اهتمام بالرمل. وسرعان ما أثمر هذا الاهتمام. فذات يوم، اكتشف في قرار مجرى النهر الجافّ المجاور لداره حشرة دقيقة، يميل لونها إلى الأحمر الوردي الغامق، تشبه خنفساء الحديقة مزدوجة الأجنحة (اسمها العلمي واسم مكتشفها سيسندريللا جابونيكا - موتشولسكي). ومن المعروف بالطبع أن خنفساء الحديقة تقدّم العديد من المتغيرات في اللون والشكل، ولكن شكل القوائم الأمامية لا يختلف من ناحية أخرى إلا بمقدار بالغ الضآلة. والحقيقة أنّ القوائم الأمامية للخنفساء غمدية الجناح تشكّل معياراً مهماً في تصنيفها. وكانت للمفصل الثاني في القوائم الأمامية للحشرة التي جذبت انتباه الرجل خواصّ مذهلة حقاً.

تتصف القوائم الأمامية لعائلة الخنفساء، بصفة عامة، بأنها سوداء، مستدقّة، وخفيفة الحركة. غير أن قوائم هذه الحركة بدت مكسوّة بغلاف سميك يشبه الغمد، كانت ملتفّة، حتى لتوشك أن تكون ليمية، ولها لون القشدة. وبالطبع ربما كانت طبقة غبارية قد لفحتها. وقد يفترض المرء أن وضعاً ما - مثل وجود شعيرات - قد سبّب التصاق الطبقة الغبارية بالقوائم. ولئن أصابت ملاحظاته كبد الحقيقة، لكان قد أنجز، بالقطع اكتشافاً في غاية الأهمية.

ولكن من سوء الطالع أنه قد تركها تُفلت منه. فقد استبدّ به الانفعال، وإلى جوار ذلك فإن نمط طيران الخنفساء كان مربكاً، فهي تحلّق مبتعدة، ثم تعود أدراجها وتنتظر كأنها هي تقول: «أمسك بي!». وحينما دنا منها بحذر حلّقت مبتعدة من جديد، والتفتت، وراحت تنتظر. وقادها مسارها المقرب بلا رحمة في نهاية المطاف الى كتلة من التجيل اختفت فيها.

أسرت الخنفساء ذات القوائم الأمامية الصفراء الرجل وفتنته تماماً.

وحينما تفحّص التربة بدا له أن تخضب في موضعه. فماثلة الخنفساء تمثل بالفعل حشرات الصحراء. وتقول إحدى النظريات إن نمط تحليقها الغريب هو حيلة القصد منها اجتذاب الحيوانات الصغيرة بعيداً عن جحورها. والضحايا من نوعية الفئران والسحالي يتم استدراجها رغماً عنها، فتضرب في عرض الصحراء، حيث تنهار من الجوع والإعياء، فتغدو جثتها طعاماً للخنافس. ويطلق على هذه الخنافس الاسم الياباني البديع «حاملة الرسالة»، وتقدم سمات رشيقة، لكن لها بالفعل فكاكاً حادة، وهي نهمة وآكلة للحوم البشر بطبيعتها. ولكن سواء أكانت هذه النظرية صحيحة أم لم تكن، فإن الرجل اجتذبته دونما شك الطريقة الغامضة التي تتبعها الخنفساء في طيرانها.

وما كان يمكن إلا أن يتزايد اهتمامه بالرمل الذي يشكّل الوسط الذي تحيا فيه الخنفساء، فشرع في قراءة كلّ ما أمكنه حوله. وفيما كان بحثه يتقدّم، أدرك أن الرمل مادة مثيرة للاهتمام للغاية، فعلى سبيل المثال وجد في صدر مادة عن الرمل في دائرة المعارف ما يلي:

«الرمل: تجمع لشظايا صخرية. يشمل في بعض الأحيان حجر المغنطيس، وحجر القصدير، وعلى نحو أكثر ندرة غبار الذهب. المحيط ٢ إلى $\frac{١}{١٦}$ ملليمتراً.

تعريف بالغ الوضوح حقاً. إذن، فالرمل باختصار مصدره الصخر المتشظي، وهو وسط بين الصلصال والحصى. لكن وصفه بأنه مادة وسيطة لا يقدم إيضاحاً مرضياً حقاً. فلماذا وجدت الصحاري المنعزلة والمناطق الرملية من خلال فصل الرمل وحده من التربة التي

تمتزج فيها الأحجار والرمل والصلصال؟ لو أن الأمر كان متعلقاً عادة وببساطة حقيقية، لأفرز التأثير النحتي للريح والماء بالضرورة أي عدد من الأشكال المباشرة المتداخلة في النطاق الممتد بين الصخر والصلصال. غير أن هناك في الحقيقة ثلاثة أشكال فقط يمكن تمييزها بوضوح، أحدها عن الآخر، هي الأحجار والرمل والصلصال. فضلاً عن ذلك فإن الرمل هو الرمل كائناً ما كان موضعه. ومن الغريب أنه لا يوجد فارق على وجه التقريب في حجم حبات الرمال، سواء أكان مصدرها صحراء جوبي أو شاطئ إيتونبي، فحجم الحبة لا يظهر إلا تغيّراً محدوداً للغاية، ويتبع منحنى توزيع للجذب المغناطيسي بمتوسط حقيقي، قدره حوالى $\frac{1}{8}$ ملم.

وقد قدّم أحد التعليقات تفسيراً بالغ البساطة لتحلّل الأرض، من خلال التأثير التآكلي الذي يحدثه الماء والريح. فالجسيمات الأكثر خفة تدفع بصورة مطردة إلى مسافات هائلة. لكن الأهمية المحددة لقطر حبات الرمال البالغ $\frac{1}{8}$ ملم ظلت دونما تفسير. وفي مفارقة لهذا، أضاف كتاب آخر في الجيولوجيا إيضاحاً، وفقاً للتصورات التالية:

تحدث تيارات الهواء والماء اضطراباً هائلاً، وأصغر طول موجة في هذا التدفق المثير للاضطراب يعادل تقريباً قطر حبات رمال الصحراء. وبسبب هذه الخصوصية فإن الرمل وحده هو الذي يستخلص من التربة، إذ يجتذبه التدفّق بزوايا مستقيمة. وإذا كان تماسك التربة ضعيفاً، فإن الرياح الخفيفة تجتذب الرمل إلى الهواء، وهذه الرياح لا تترك أثراً، بالطبع، فيما يتعلق بالأحجار أو الطين، ويتهاوى الرمل إلى الأرض ثانية، إذ يتم إسقاطه باتجاه الجهة التي تهب الرياح نحوها. وتبدو خصائص الرمل متعلقة بديناميكية الهواء.

من هنا، فإن بمقدورنا ان نضيف الآتي الى التعريف الأول، باعتباره العنصر «ب» في هذا التعريف:

«جسم من الصخور المسحوقة، يتخذ أبعاداً يسهل معها ان يحرّكه دفع منطلق».

ولأن تيارات الرياح والماء تتدفّق فوق الأرض، فإن تكوّن الرمل أمر لا مناص منه. وطالما أن الرياح تهب، والأنهار تتدفق، والبحار تجيش، فإن الرمل سيتوالد حبّة فأخرى من الأرض، وسيزحف، شأن كائن حي، إلى كل مكان، ذلك أنه لا يعرف الاستقرار قط. ولا حدود، ولكن بيقين صارم، يغزو سطح الأرض، فيلحق الدمار به.

أحدثت صورة الرمل المتدفّق تلك تأثيراً دافعاً للانفعال، على نحو لا يصدّق، لدى الرجل، فالطابع الفاصل للرمل، وعادة ما يصور قاحلاً ومجدباً، لا يسبّب الجفاف وحده، وإنما هو يرجع، فيا يبدو، إلى الحركة الدائبة التي لا تجعله مسكناً لكل الكائنات الحيّة. فيا له من فارق هائل إذا ما قورن بالطريقة الكئيبة التي يتشبّث بها البشر ببعضهم البعض عاماً إثر الآخر!

من المؤكد أن الرمل ليس بالوسط المناسب للحياة. ومع ذلك أليس هو بالشرط الثابت الذي لا غنى عنه لصورة مطلقة للوجود؟ ألا تنشأ المنافسة المقيتة على وجه الدقة لأن المرء يحاول التشبّث بوضع ثابت؟ وإذا ما قدّر للمرء أن يدع وضعاً ثابتاً، ويسلم نفسه لحركة الرمال، فإن المنافسة سرعان ما تتوقف. وفي الصحاري، تزدهر زهور، وتحيا حشرات وحيوانات، وقد تمكنت هذه الكائنات من

تجنّب التنافس، عبر قدرتها الهائلة على التأقلم، وليست عائلة الخنافس التي يهتمّ بها الرجل، إلا مثالاً على ذلك.

فيا كان يتأمّل تأثير الرمال المتدفّقة، سيطرت عليه بين الفينة والأخرى هلوسات، راح خلالها يتحرك منطلقاً مع الرمال.

- ٣ -

شرع في السير، عبر الرأس، متتبعاً الخط الهلالي، الذي تتخذه كثبان الرمل المحيطة بالقرية، مثل متراس يطلّ شاهقاً عليها. لم يبد اهتماماً، على وجه التقريب، بمعالم الطبيعة النائية؛ فالباحث في ميدان الحشرات ينبغي أن يركز كلّ انتباهه على المسافة المحدودة، الممتدة لثلاثة أمتار حول قدميه. ومن القواعد الأساسية أنه لا ينبغي أن يجعل الشمس وراء ظهره، فلو أن الشمس تألّقت وراءه، لأفزع الحشرات بظلّه. وكنتيجة لهذا، فإن جبين جامعي الحشرات وأنفه تلوّحها الشمس، على الدوام.

تقدّم الرجل، وئيداً، بخطى منتظمة. ومع كل خطوة، راح الرمل يتناثر فوق حذائه. وباستثناء الأعشاب السطحية الجذور، التي بدت كما لو كانت ستشبّ عالية في غضون يوم إذا توافر أيّ أثر للبلل، لم يبد ثمة أثر لشيء حيّ. على فترات متباعدة، تطير مسرعة ذبابات في مثل لون توتمة السلحفاة، وقد اجتذبتها رائحة العرق البشري. غير

أنه توقّع العثور على شيء في مثل هذا المكان، لأنه على وجه الدقة ما هو عليه. وليست الخنافس اجتماعية، على نحو خاصّ، ويقولون إنه في حالات متطرّفة تغلق الخنفساء الواحدة على نفسها منطقة يصل اتساعها إلى ميل مربع. وواصل الرجل بدأب الدوران في المنطقة.

فجأة كفّ عن السير. كان شيء ما قد تحرّك، قرب جذور كتلة من الحشائش. تبين أنه عنكبوت، ولم تكن العناكب ذات نفع له. اقتعد الأرض ليدخّن سيجارة. وواصلت الرياح تهبّ، دونما توقّف، من البحر، وفي البعيد، إلى أسفل، مضت أمواج هائجة مزبدة تلطم قاعدة الكثبان الرملية. وحينها تراءت الكثبان نائية إلى الغرب، تُوّج تلّ صغير بصخرة عارية، تندفع نائئة نحو البحر. وارتمت أشعة الشمس متألقة، في صورة نقاط دقيقة من الضوء.

واجه صعوبة في إشعال أعواد ثقابه، فلم يفلح في إشعال عود واحد، من عشرة أعواد حاول إشعالها. وعلى امتداد الأعواد التي ألقاها بعيداً، راحت تموّجات من الرمل تتحرك بسرعة تعادل تقريباً سرعة عقرب الثواني في ساعته. ركّز انتباهه على إحدى المويجات، وحينها بلغت طرف عقبه البحث واقفاً، تراءى الرمل من طيات سرواله، واستشعر جفافاً في حلقه.

هكذا، فربما لم يكن هناك الكثير من الحشرات، وربما كانت حركة الرمل بالغة العنف. لا، لا ينبغي أن تثبط همته بهذه السرعة، فنظريته تضمن وجود بعض الحشرات.

تسلّق خطّ الكثبان متهيأً، وتتأ قسم منه على الجانب البعيد عن البحر. اجتذب الرجل شعورٌ بأن الاحتمال الغالب هو أن طريدته تقبع

هناك، فشق طريقه عبر المنحدر. هنا وهناك حددت بقايا ما بدا أنه حاجز للريح، صنع من القضبان المضفورة بالأغصان والقصب، نقطة النتوء البارز نحو البعيد، والذي امتدت وراءه هضبة على مستوى أكثر انخفاضاً. واصل المسير، قاطعاً تموجات الرمل، التي شكلت بانتظام شبه آلي. فجأة انحسر مجال رؤيته، وألفى نفسه واقفاً على حافة صخرة تطلّ على تجويف عميق.

شكّل التجويف، الذي يزيد عرضه على ستين قدماً، شكلاً بيضاوياً غير منتظم. بدا المنحدر البعيد هيناً نسبياً في انحداره، بينما كان المنحدر القريب، في مفارقة للمنحدر البعيد، يوحي بأنه عمودي، على وجه التقريب. كان يتصاعد حتى قدميه في منحنى رهيف، كأنه حافة قطعة ثقيلة من الخزف الصيني. وضع إحدى قدميه بحذر شديد على الحافة، وأطل على التجويف. كان داخل الحفرة الغارق في الظلال، والمترامي جنباً إلى جنب مع الحافة المترعة بالضوء، يعلن بالفعل مقدم المساء.

في عتمة القاع، جثمت دار صغيرة، يلفّها الصمت. فرق أحد طرفي رافدة السقف بصورة مائلة في الجدار الرملي. حدّث الرجل نفسه بأن الدار تبدو كما لو كانت محارة.

قال متأملاً إنه مهما كان ما يقوم القرويون به، فلا مهرب من قانون الرمل.

فيما هو يوشك على وضع آلة تصويره في موضعها المناسب، شرع الرمل تحت قدميه في التحرك باندفاع. اجتذب قدماً، وقد أخذته

الرعدة، لكن انهيال الرمل لم يتوقف لبعض الوقت. يا له من توازن دقيق مترع بالخطر! تنفّس بعمق، وجفّف راحتيه العارقتين عدة مرات في جانبي سرواله.

تردّد صوت سعال إلى جواره. كان عجوز، هو فيما يبدو من صيادي القرية، يقف هنالك، دون أن يلحظه، وهو يوشك أن يمسّ كتفه. فيما كان ينظر إلى آلة التصوير ثم إلى قرار الحفرة، كشّر العجوز مقطّباً وجهه، الذي بدا مكسواً بالتجاعيد، كأنه جلد أرنب نصف مدبوغ، وقد تكونت طبقة من إفراز دبق عند أركان عينيه المحمرّتين.

- أتقوم بمعاينة رسمية؟

تردّد صوته خافتاً، وقد مضت به الريح، كأنه بالأحرى يتناهى من مذياع نقال. لكن لكنته كانت واضحة، ولم يكن من الصعوبة بمكان فهمها.

أصاب الارتباك الرجل، فحجب العدسات براحة يده، ورفع شبكة الحشرات، حتى بدت واضحة للعيان، وقال:

- أتقوم بمعاينة رسمية؟ ما الذي تعنيه بذلك؟ لست أفهم. إنني أجمع الحشرات. وتخصّصي الحشرات الرملية.

لم يبد على العجوز أنه فهم شيئاً. قال:

- ماذا؟

كرر الرجل ما سبق أن قاله بصوت عال:

- إنني أجمع الحشرات. الحشرات. الحشرات. أمسك بها هكذا!

- حشرات؟

لاح العجوز متشكّكاً. حدق في الأرض، وبصق، أو لربما كان من الأدق القول بأنه ترك اللعاب ينثال من فمه. وإذ انتزعته الريح من شفتيه، استطال في خيط ممتدّ. يحق السماء، علام تتوتّر أعصابه؟

ـ هل هناك معاينة رسمية تجري في هذه الجهة

ـ لا، لا، طالما أنك لا تقوم بذلك. ولا يعنيني حقاً ما تقوم به.

ـ لا، لست بصدد معاينة رسمية.

استدار العجوز، حتى دون أن يومئ برأسه، ومضى بعيداً، مبتعداً على امتداد المرتفع، جاراً الأطراف العلوية لخفّيه المصنوعتين من القش.

أقعي في صمت على الرمل. على بعد خمسين متراً ثلاثة رجال ـ ترى متى أقبلوا؟ ـ في أزياء متماثلة، وكانوا في انتظار العجوز على ما يبدو. كان لدى الرجل الأوسط منظار ثنائي، راح يديره مراراً وتكراراً، على ركبته. وسرعان ما بدأ الثلاثة، الذين انضمّ إليهم العجوز في مناقشة أمر ما فيما بينهم، راحوا يلطمون الرمال الممتدة تحت أقدامهم، وبدا كما لو أن جدالاً حاداً نشب بينهم.

فيما كان الرجل يحاول، دونما اكتراث، المضي قدماً في بحثه عن الخنفساء، أقبل العجوز مسرعاً، عائداً إليه.

ـ لست حقاً إذن من طرف المكتب الحكومي؟

ـ المكتب الحكومي؟ إنك مخطئ تماماً.

فجأة أخرج بطاقة عمله، كما لو كان يشير إلى أنه ناله ما يكفي. تحركت شفتا العجوز في عناء:

- آه، أنت مدرّس!
- ليست لي أي صلة على الإطلاق بالمكتب الحكومي.
- إحم، إذن فأنت مدرّس
بدا عليه أخيراً أنه قد فهم حقيقة الأمر. فتجعّدت أركان عينيه. حل البطاقة في توقير، ومضى عائداً. انتصب الثلاثة الآخرون واقفين، وقد بدا عليهم الرضا، وانسحبوا مبتعدين.

لكن العجوز كرّ عائداً إلى الرجل.
- بالمناسبة، ما الذي تعتزم القيام به الآن؟
- سأبحث عن الحشرات.
- لكن آخر حافلة انطلقت عائدة بالفعل.
- أليس هناك مكان يمكنني المبيت فيه؟
ارتجفت ملامح العجوز، وهو يقول:
- المبيت؟ في هذه القرية؟

- إذا لم أستطع المبيت هنا، فسوف أترجّل حتى القرية التالية.
- تترجّل؟
- في حقيقة الأمر، لست في عجلة من أمري.
فجأة بدا العجوز ثرثاراً، فمضى يقول:
- طيب. ولِمَ كلّ هذا العناء؟ تستطيع أن ترى أن هذه القرية فقيرة.
أضاف بصوت خامل:
- ليست هناك دار ضخمة فيها، ولكن إذا كان الأمر يناسبك، فسوف آخذ الأمر على عاتقي، وأبحث عما يمكنني القيام به لمساعدتك.

لم يبد عليه سوء الطوية. ربما كان القرويون على شيء من الحذر تحسب، ربما كانوا يتطلعون إلى وصول أحد موظفي المنطقة، هو على وشك الوصول للقيام بجولة معاينة وتفقد. أما إذا حدا ميلهم إلى الشكاك، فإنهم يعودون مجرد صيادين بسطاء وطيّبين.

ـ سأكون ممتناً أشد الامتنان إذا قمت بذلك. وبالطبع سأبدي تقديري... إنني مولع بشكل خاص بالإقامة في الدور القروية.

- ٤ -

كانت الشمس قد غربت، وخفّت حدة الريح، إلى حدّ ما. سار الرجل على امتداد الكثبان، حتى عجز عن تبيّن رسم الريح على الرمل.

لم يبد أن ثمة ما يشبه أثراً لحشرة.

ستقيات الأجنحة، الجراجر صغيرة الأجنحة، وذوات الملمص بيضاء الشعيرات.

«رابتيكوتا» ـ البقّات النشّالة ذات الخطوط الحمراء. لم يكن متأكداً من الاسم، ولكن من اليقين أنها كانت نوعاً من البقّ النشال.

من الحشرات التي يسمى وراءها: البقّات المتقاربة ذوات الظهر الأبيض، و«حاملات الرسائل» ذوات القوائم الطويلة.

لم يكن قد تمكّن من رصد عضو واحد في عائلة الخنافس، التي

كانت هدفه الحقيقي، ولهذا السبب على وجه الدقة كان يتطلّع الى لماو معركة الغد.

دفع إعياؤه بنقاط ضوئية خافتة، راحت تتراقص على شبكة عينه. فكفّ عن السير عند ذاك مرغماً. وثبت عينيه على سطح كثبان رملية معتمة: غير أن ذلك كان بلا جدوى، فقد بدا كل شيْ يتحرك، وكأنه خنفساء تمشي.

كان الرجل العجوز، كما وعده، في انتظاره أمام مكاتب الجمعية التعاونية.

ـ آسف لكل هذا العناء.

ـ لا عناء ألبتة، وآمل فحسب أن يعجبك ما وجدته لك.

بدا أن هناك اجتماعاً في مقر الجمعية، فقد جلس أربعة أو خمسة رجال متحلّقين، وندت عنهم ضحكات. وعلى مقدمة المدخل، تدلت لوحة أفقية، نقش عليها ما يلي بحروف بارزة: «فلتحيّ داوك!» غمغم العجوز بشيء ما، فتوقف الضحك فجأة، وانطلق خارجاً من المقرّ على رأس الآخرين. لاح الطريق المرقش بالقواقع وكأنه يطفو أشهب غائماً في عتمة الغسق.

ثم اصطحابه إلى أحد المنحدرات، على القمة العالية للكثبان، عند أحد أطراف القرية.

إنحدر طريق من القمة ضيقاً، وهابطاً إلى اليمين. بعد أن سارا قليلاً، انحنى العجوز باتجاه الظلمة، وصاح بصوت عال، وهو يصفق بيديه:

ـ إيه يا أيتها الجدة، أنت يا من هناك!

ومض مصباح من أعماق الظلمة، عند أقدامها، وتناهى إليهما الرد.

ـ ها أنا ذي هنا! مرحباً! هناك سلّم يمتد فوق أكياس الرمل.

حقاً ما كان يمكن دون السلّم أن يهبط إلى القرار. كان سيتعين عليه أن يتشبث بالصخرة بيديه العاريتين. وكانت المسافة تعادل ثلاثة أمثال ارتفاع سقف الدار، وحتى باستخدام السلم لم يكن من اليسير تدبّر الأمر. وتذكّر أن المنحدر بدا له في ضوء النهار هيناً، لكنه لاح له الآن، فيما هو ينظر إليه، عمودياً، على وجه التقريب: كان السلم يتألف من حبال، لا يداخل المرء يقين حول مدى مكانتها، وإذا ما فقد المرء توازنه، فإنه يتشابك على نحو لا أمل معه في إصلاح. بدا الأمر تماماً كالعيش في معقل طبيعي.

ـ لاتعلق على شيء، وخذ راحتك!

تحرك العجوز، ومضى لطيته، دون أن يمضي في الشوط حتى القرار.

انهال الرجل من أعلى. فساور الرجل شعور بالفضول، كما لو كان قد ارتدّ إلى طفولته. راح يتساءل عما إذا كانت المرأة طاعنة في السن، فقد دعاها العجوز بالجدة. لكن من أقبلت للقائه، رافعة المصباح، كانت امرأة لطيفة، تميل من حيث الحجم إلى الصغر، في حوالي الثلاثين من العمر. وربما كانت قد وضعت مسحوقاً على وجهها، إذ كانت بيضاء، على نحو مدهش، بالنسبة لمن يقيم على مقربة من شاطئ البحر.

على أية حال، كان شديد الامتنان لترحيبها المرح به، الذي لم تستطع أن تخفي في غماره سرورها الشخصي.

حقاً إنه لولا الترحاب الحار لكانت الدار ذاتها شيئاً يصعب على الاطلاق احتماله. كان حرياً به أن يعتقد أنهم يسخرون منه.. ومن المؤكد أنه كان سيعود أدراجه في الحال. فقد كان طلاء الجدران يتهاوى، وعلقت حصر بدلاً من الأبواب المنزلقة، وبدت الدعامات الرأسية للدار ملتوية، وحلّت ألواح من الخشب مكان النوافذ. وكانت الحصر المصنوعة من القش على وشك التحلّل، وحينما يطأها المرء تصدر صوتاً كالذي ينتج عن الإسفنج المبتلّ. فضلاً عن ذلك كانت تنبعث من المكان بأسره الرائحة الحادّة للرمل المحترق المتفسخ.

طيب، إن كل شيء يعتمد على موقف المرء. وقد هدّأ خاطره أسلوب المرأة، فحدّث نفسه بأن هذه الليلة الواحدة تجربة نادرة. ولئن حالفه الحظ، فقد تصادفه حشرات مثيرة للاهتمام. فمن المؤكد أن تلك بيئة تحيا فيها الحشرات هانئة.

كان محقاً في الهاجس الذي راوده، فلم يكن يقتعد الكرسي الذي قدم له، إلى جانب الموقد، الذي كان غائصاً في الأرضية المتربة، حتى طفا صرت ما بدا أنه طقطقة مطر يهطل مدوياً. كان جيش من البراغيث يطبق عليه. لكنه لم يكن بالذي تقهره أشياء كهذه، فجماع الحشرات على أهبة الاستعداد دائماً. كان قد نثر رذاذ مادة الدي. دي. تي على الجانب الداخلي للابسه، وسيكون من قبيل الحكمة، قبل أن يغفو، أن يكسو الأجزاء المعرضة من جسمه بمادة قاتلة للحشرات.

ـ لو أنك انتظرت لحظات قلائل أخرى، فأنا أعد لك بعض الطعام...

قالتها المرأة، وهي تهمّ بالوقوف حاملة المصباح، وأضافت:

- أيمكنك تدبر أمرك دون ضوء للحظة من فضلك؟
- أليس لديك إلا مصباح واحد؟
- لا. إني آسفة.

ضحكت، وقد انتابها قليل من الحرج، ولاحت غمازة على خدها الأيسر. حدث نفسه بأنه باستثناء عينيها، فإن لها جاذبية لا موضع لإنكارها. ربما كان مظهر عينيها ناجماً عن إصابة ما. فأياً ما كانت مواد التجميل التي تستخدمها، لم يكن بمقدورها إخفاء الأركان الملتهبة. قرر أنه لا بد له، قبل أن يأوي إلى فراشه، من أن يضع على عينيه دواء ما.

- الأمر سيان بالنسبة لي. لكني أفضل أن آخذ حماماً أولاً.
- حمام؟
- أليس لديك حمام؟
- آسفي شديد، ولكن هل بمقدورك تأجيله إلى ما بعد الغد.

رغماً عنه قهقه الرجل:

- بعد الغد؟ لكني لن أكون هنا بعد الغد.
- آه!

أشاحت بوجهها، وقد كساه الحزن. حسب أنها تحس بخيبة الأمل، وبالطبع، فإن الريفيين لا يحاولون إخفاء مشاعرهم. مرر لسانه على شفتيه عدة مرات، وقد خالجه شعور بالحرج.

ـ إذا لم يكن لديك حمّام، فلا بأس ببعض الماء أسكبه عليّ، إذ أن جسمي كلّه يكسوه الرمل.

ـ آسفة، لكن ليس لدينا ما يزيد على ملء دلو من الماء، فالبئر بعيدة جداً

بدت مرتبكة تماماً، فقرّر أن يحجم عن قول المزيد. وقدر له أن يُدرك، عساه، وبعد وقت قصير، عدم جدوى الاستحمام.

جلبت المرأة وجبة الطعام: حساء اليطلبنوس مع سمك مسلوق. بدا أنها بمثابة تضحية. ذلك أمر لا بأس به، ولكن فيما كان يشرع في تناول الطعام، فتحت مظلة ورقية كبيرة، ووضعتها فوقه.

تساءل عما إذا كان ذلك نوعاً من العادات الخاصة بالمنطقة، وقال:

ـ ما جدوى هذا الشيء؟

ـ طيب. إذا لم أضع هذه المظلة، فإن الرمل سيسقط على طعامك.

ـ كيف ذلك؟

قالها الرجل، متطلعاً في دهشة إلى السقف الذي لم تكن به أيّ ثقوب على الاطلاق.

تابعت المرأة عينيه، في مسار نظرتها إلى السقف، وقالت:

ـ الرمل يتسلل داخلاً إلى كل مكان، ويتراكم بوصة منه، إذا لم أكنسه كل يوم.

ـ هل توجد عيوب في السقف؟

ـ نعم، الكثير منها. ولكن حتى إذا كانت المادة المستخدمة في

صنعه جديدة تماماً، فإن الرمل سيتسلل داخلاً على أية حال. إنه فظيع حقاً، بل أفظع من ثقابة الخشب.

ـ ثقابة الخشب؟

ـ إنها حشرة تحدث ثقوباً في الخشب.

ـ ربما كانت نملة بيضاء. أليست كذلك؟

ـ كلا، كلا. إنها بهذا القدر من الضخامة... ولها جلد سميك.

ـ آه، طيب، هي إذن خنفساء ذات منشار طويل.

ـ خنفساء ذات منشار؟

ـ لها شعيرات طويلة، وحمرة اللون. أليست كذلك؟

ـ كلا، هي برونزية اللون، وتشبه في شكلها حبة أرز.

ـ فهمت. هي إذن خنفساء متقرِّحة اللون.

ـ اذا تركتها لشأنها، فإن أعمدة مثل هذه ستتحلّل، فتغدو عدماً

ـ تقصدين الخنفساء المتقرِّحة؟

ـ لا، بل الرمال.

ـ ولِمَ؟

ـ إنها تأتي من كل صوب. وفي الأيام التي تهبّ فيها الريح في اتجاه معيّن، تتراكم تحت السقف، وإذا لم أبعدها فإنها تتكوم بكثافة، لا تعود معها ألواح السقف قادرة على احتمالها.

ـ إحم، نعم. بمقدوري أن أدرك ألا سبيل إلى ترك الرمال تتراكم

تحت السقف. ولكن أليس من الغريب القول بأنها تؤدي إلى تحلّل الأعمدة الخشبية؟

ـ كلا، فهي تؤدي إلى تحلّلها.

ـ ولكن الرمال، كما تعلمين، جافة.

ـ على أية حال، فهي تؤدي إلى تحلّلها. وإذا تركت الرمال على قبقاب خشبي جديد تماماً، فإنه سيتداعى، في خلال اسبوعين. ويقولون إنه سيتحلّ متفككاً. ولا بد أن ذلك صحيح.

ـ لست أفهم السبب في ذلك.

ـ الخشب يتحلّل، والرمال تتحلّل معه. بل لقد سمعت أن تربة خصبة بما يكفي لإنبات الخيار، جلبت من ألواح سقف دار دُفنت تحت الرمال.

ـ مستحيل!

قالها الرجل مندهشاً، على نحو فظّ، مصعّراً وجهه. أحس أن جهلها قد أساء إلى مفهومه الشخصيّ عن الرمال، وأضاف:

ـ إنني أعرف القليل عن الرمال، فدعيني أقل لك إن الرمال تتحرك على هذا النحو طوال العام. وتدفقها هو حياتها. فهي لا تتوقف قط في أي مكان. وسواء أفي الماء أم في الهواء، فإنها تتحرك طليقة. لذا عادة ما لا تتحمل الكائنات الحية المألوفة الحياة فيها، وهذا ينطبق على البكتريا كذلك. ترى كيف أعبر عن الأمر... إن الرمال تمثل النقاء والطهارة. ربما كانت تؤدي وظيفة، قوامها الحفاظ والإبقاء. ولكن لا مجال للتساؤل حول تأثيرها بالتحلّل على أي شيء.

أما ما هو أكثر من ذلك ، يا سيدتي العزيزة ، فإن الرمل ابتداءً معدن له احترامه . وليس من المحتمل أن يتحلّل !

تصلّبت ، ولزمت الصمت . وتحت حماية المظلّة التي كانت تمسك بها ، انتهى الرجل من طعامه ، دون أن يفوه ببنت شفة ، وكأنما استحث على ذلك أحد . وعلى سطح المظلّة تجمّع الكثير من الرمل ، حتى كان بمقدوره أن يخط فيه بأصبعه .

وكانت الرطوبة شيئاً لا يطاق . بالطبع لم تكن الرمال رطبة ، وإنما كان جسمه هو الرطب . وفوق السقف ، مضت الرياح في نواحها . أخرج علبة سجائره ، فألفى جيبه مليئاً بالرمال ، وساوره شعور بأن بمقدوره أن يحسّ بالمرارة ، حتى قبل أن يشعل سيجارة واحدة .

استخرج حشرة من زجاجة سيانيد البوتاسيوم ، وقبل أن تتصلّب ثبتها بالدبابيس . كان بمقدوره ، على الأقل ، الحفاظ على شكل القوائم . تناهى من المغسلة في الخارج صوت المرأة ، وهي تغسل الأطباق . تساءل : ألا يقطن معها أحد غيرها في الدار ؟

عندما أقبلت عائدة ، شرعت في إعداد الفراش ، ملتزمة الصمت ، في أحد أركان الغرفة . إذا كانت قد وضعت فراشه ها هنا فأين يحق السماء تعتزم النوم ؟ طبيعي سيكون ذلك في تلك الغرفة الداخلية ، وراء الحصيرة المدلاّة . وإلى جوار هاتين الغرفتين لم يَبْدُ أن هناك ما يشبه الغرفة في الدار . لكن تلك طريقة غريبة في تدبير الأمر ، إنزال الضيف في الغرفة المجاورة للمدخل ، فيا ترقد المضيفة في الغرفة الداخلية . أم ترى لديها مريض غير قادر على الحركة يرقد في الغرفة الداخلية ؟ هكذا راح يتساءل . ربما كان من الطبيعي ، على وجه اليقين ، أن

يفترض ذلك، ففي المقام الأول ليس بمقدور المرء أن يتوقّع من امرأة وحيدة أن تتحمل الكثير من الاهتمام بالمسافرين العابرين.

ـ هل هناك آخرون...؟

ـ ما الذي تعنيه بقولك: آخرون؟

ـ أناس من أسرتك أو...

ـ لا، أنا وحيدة تماماً.

بدا أن المرأة تدرك أفكاره، وفجأة ندّت عنها ضحكة مقتضبة ومرتبكة.

ـ كل شيء يغدو رطباً بسبب الرمال، حتى أغطية الفراش.

ـ طيب، ماذا عن زوجك؟

ـ آه، نعم، في العام الماضي خلال الإعصار...

قالتها، وهي تشغل نفسها، دونما داع، بتليين أطراف الحصير الذي كانت قد انتهت من فرشه، أضافت:

ـ الاعاصير رهيبة هنا. تأتي الرمال راعدة، كأنها شلال. تتراكم منها عشرة أقدام أوعشرون قدماً في الليلة مهما فعلت.

ـ عشرون قدماً؟

ـ في أوقات كهذه لا نستطيع حتى أن نجاري الرمال في سرعتها، مهما أزحنا منها. انطلق زوجي يعدو مع طفلتي الصغيرة ـ وكانت في المدرسة الإعدادية وقتذاك ـ صارخاً بأن أخنان الدجاج معرّضة للخطر. كنت غارقة في الاهتمام بالدار، واضطررت للبقاء بها. حينما أقبل الصباح أخيراً، وهدأت الريح، خرجت لاستطلاع الأمر. لم يكن هناك من أثر للأخنان... أو لأي شيء آخر.

ـ أدفنا تحت الرمال؟
ـ أجل، تماماً.
ـ أمر فظيع! رهيب! الرمال مخيفة ومروعة.

صدرت، فجأة، فرقعة من المصباح، وتقافت الضوء الصادر عنه.

ـ إنها الرمال.

جثت على يديها وقدميها، ومدت ذراعها، ضاحكة، فمست فتيل المصباح بأصبعها، وفي الحال تألق الضوء من جديد. راحت تحدق، ملتزمة الوضع نفسه، في اللهب، وهي تبتسم تلك الابتسامة المفارقة للطبيعي والمألوف. أدرك أن ذلك كان متعمداً، بلا شك، لاستعراض غمازتيها، فتصلب جسمه، دونما وعي. وراح يحدث نفسه بأن ذلك كان أمراً لا يليق بها، خاصة بعد أن تحدثت عن مصرع أقرب الناس إليها.

ـ ٥ ـ

ـ إيه، يامن هناك، ها قد أحضرنا جاروفاً وصفائح للشخص الآخر!

حطم صوت واضح، أخذاً في الاعتبار بحقيقة صدوره من مسافة بعيدة، حاجز التوتر. ربما كانوا يستخدمون مكبر صوت. ثم تردد صوت شيء يشبه صفائح من القصدير، يرتطم بعضها بالبعض الآخر، وهي تهوي. فنهضت المرأة لترد على النداء.

ساوره شعور خانق بأن شيئاً خفياً يدور.

ـ ما هذا؟ أنظري، هناك شخص آخر في نهاية المطاف.

ـ آه، بالله!

قالتها، وقد تثنى جسمها، كما لو كانت قد دفعت.

ـ لكن أحدهم قال: للشخص الآخر.

ـ إحم، طيب، كانوا يشيرون إليك.

ـ إلي؟ ولم يأتون على ذكري بصدد الحديث عن جاروف...؟

ـ لا تهتم، ولا تلق بالاً إليهم، فهم حقاً فضوليون!

ـ أهناك خطأ ما؟

غير أن المرأة لم تحر رداً على هذا السؤال، وراحت تتأرجح على ركبتيها، خطت على الأرض المتربة.

ـ عفواً، ولكن أما زلت تستخدم المصباح؟

ـ طيب، لم أفرغ منه حقاً. لم؟ أتحتاجينه هناك؟

ـ لا، إنه عمل اعتدته.

اعتمرت قبعة من القش، من النوع المستخدم في العناية بالحدائق، وانسلت إلى الظلمة.

أشعل سيجارة أخرى، وقد أمال رأسه. شعر بأن شيئاً مريباً على نحو قاطع يجري. نهض في هدوء، وقد عقد العزم على أن يتطلع من وراء الحصير المعلق. كانت هناك غرفة حقاً، ولكن لا فراش، وبدلاً منه انهالت الرمال، في منحنى رقيق من وراء الجدار. أخذته الرعدة، ووقف منتصباً في موضعه. كانت هذه الدار تصف ميتة بالفعل، فدواخلها أوغلت في التهامها ألسنة من رمال لا تكف عن التدفق.

رمال ليست بها في ذاتها هيئة وصورة، خلاف القطر الوضيع البالغ ثُمن المليمتر. غير أنه ما من شيء كان بمقدوره الوقوف ضدّ هذه القوة التدميرية، التي لا شكل لها. وكانت الحقيقة القائلة بأنها مجرّدة من الشكل هي، دونما شك، أسمى تجلّيات قوتها. أليس كذلك؟

لكنه عاد إلى أرض الواقع في الحال. لنفترض أن هذه الغرفة لا يمكن استخدامها، فأين يحق السماء تحتزم النوم؟ كان بمقدوره سماعها، وهي تتحرك جيئة وذهاباً، وراء الجدار الخشبي. أشار عقرب ساعته إلى الساعة الثامنة ودقيقتين، فراح يتساءل عما يمكن أن يكون هناك مما يتعين إنجازه في مثل هذه الساعة.

خطا إلى الأرض المتربة بحثاً عن الماء. كان غطاء معدني أحمر يطفو فوق المقدار البالغ الضآلة من السائل الباقي في قاع جرّة الماء. ولكن حتى ذلك السائل كان أفضل من تحمّل الرمل في فمه. حينما غسل وجهه في الماء، ومسح به قفاه، أحس بأنه في حال أحسن كثيراً.

هبّ تيار هوائي بارد على الأرض المتربة. ربما كان الجوّ محتملاً بصورة أكبر في الخارج. اجتاز مسرعاً الباب المنزلق الذي انحشر في الرمل، فكفّ عن الحركة، وخرج من الدار. كان النسيم الذي يهبّ إلى أسفل من الطريق قد أصبح أكثر برودة حقاً. وتناهى إليه على جناح الريح صوتٌ بدا أنه محرّك شاحنة صغيرة ذات ثلاث عجلات. وحينما أرهف السمع غدا بمقدوره سماع عدد من الأشخاص. وفضلاً عن ذلك ـ أترى الأمر كان راجعاً لخياله ـ أحسّ بتحرك يفوق كثيراً ما كان موجوداً خلال النهار. أم تراه كان صخب البحر؟ كانت السماء مثقلة بالنجوم.

التفتت المرأة، حينما رأت ضوء المصباح. كانت تحرك الجاروف

بمهارة، رافعة الرمل إلى صفيحة كيروسين كبيرة، ووراءها انتصب حائط الرمال الأسود، كأنه جرف هوة، وبدا منحنياً إلى الداخل باتجاهها. لا بد أنه كان يسير هناك في الأعلى خلال النهار في غمار بحثه عن الحشرات. حينما امتلأت صفيحتا كيروسين، حملتها المرأة، كل منها بإحدى يديها، ومضت إلى حيث وقف، وفيما كانت تمرّ به، رفعت عينيها إليه، قالت بصوت حاد:

- رمل.

أفرغت الرمل من صفيحتي الكيروسين، بالقرب من الممر في الخلف، حيث تبدل السلم. كان المكان قد ارتفعت فيه كومة عالية من الرمل الذي جرفته.

- إنني أجد الرمال حانياً.
- لن نفرغي من هذا قط، مهما طال عملك في إنجازه.

في المرة التالية لاجتيازها إياه، وكزته في جنبه، بطرف إصبع من أصابعها المتحررة من وقر الصفيحتين. أوشك أن يسقط المصباح، حينما جفل بتأثير المفاجأة. ترى أينبغي أن يواصل الإمساك بالمصباح مثلما كان، أم يتعيّن عليه أن يضعه أرضاً ويردّ لها المداعبة؟ تردّد فيما يفعل، وقد أخذه على غرّة الخيار غير المتوقّع الذي يواجهه، وقرر مواصلة الإمساك بالمصباح. دنا، وقد رسم على ملامحه ابتسامة، لم يدر هو نفسه معناها، بارتباك وتصلّب من المرأة، التي كانت قد بدأت في جرف الرمال مجدداً. فيما هو يدنو، ملأ ظلّها سطح حائط الرمال بكامله.

قالت بصوت خفيض، لاهث، وهي لا تزال توليه ظهرها:

ـ تعرف أنك لا ينبغي أن تقوم بهذا ، أمامي ست صفائح قبل مجيء سلة الرفع .

تصلب التعبير المرتسم على ملامحه . كان أمراً كريهاً أن تثار بلا طائل مشاعر هاتين من أجل كبحها . ومع ذلك ، فقد تدفق على الرغم منه في عروقه شيء ، ما لا سبيل إلى نكرانه . كان الرمل الذي تعلّق بجلده يتسرب إلى عروقه ، ويقوّض من الداخل مقاومته .

ـ طيب . هل أساعدك ؟

ـ آه ، الأمور على ما يرام . لن يكون مناسباً جعلك تقوم بأي شيء ، في اليوم الأول ذاته .

ـ اليوم الأول ؟ لا تقلقي حول مثل هذه الأمور ، وعلى أية حال فلن أمكث هنا إلا الليلة فحسب .

ـ حقاً ؟

ـ تعرفين أني لا أحيا حياة قوامها الفراغ ، أعطيني الجاروف الآخر ، هلمّي !

ـ عفواً ، لكن جاروفك هناك .

حقاً كان جاروف وصفيحتا كيروسين ، لها مقبضا خشب ، قائمين تحت طنف الدار ، قرب المدخل . حينها قالوا : « للشخص الآخر » ، من المؤكد أن هذه الأشياء قد ألقيت إلى أسفل من الطريق ، هناك في الأعالي . كانت الاستعدادات جيدة ، وساوره الشعور بأنهم قد صمتوا مقدماً ما سيقوم به . ولكن كيف كان ذلك بمقدورهم ؟ لم يكن هو نفسه على علم بالأمر . حدث نفسه متوجساً بأن لهم رأياً بالغ التدني

فيه. كان مقبض الجاروف مصنوعاً من خشب خشن الملمس، وقد اكتسى بالسواد من الاستخدام. كان قد فقد بالفعل الرغبة في تقديم المساعدة للمرأة.

ـ آه، سلة الرمل موجودة لدى الجيران بالفعل!

قالتها المرأة مواصلة حركتها، وبدا أنها لم تلحظ تردده. تردد صوتها مرحاً، تخالجه رنة ثقة، لم يكن لها وجود من قبل. بدت الأصوات البشرية، التي كانت مسموعة من بعيد لبعض الوقت، قريبة فجأة، وتكررت مرات عديدة سلاسل من صيحات قصيرة ذات إيقاع محدد، وأعقبتها فترة من الهمهمة المستمرة الخفيفة، تتخللها ضحكات مكبوحة الجماح، ثم تتالت الصيحات مجدداً. جعله إيقاع العمل يشعر بالابتهاج فجأة. ربما كان من المعتاد في مثل هذا العالم البسيط ترك ضيف يبيت لليلة واحدة يعمل جاروفه في الرمال، ومن ثم فالتراجع عن ذلك سيبدو أمراً غريباً. أحدث بعقبه حفرة صغيرة في الرمل، ووضع فيها المصباح بحيث لا يسقط.

ـ أحسب أنه من المناسب الحفر في أي مكان. أليس كذلك؟

ـ لا... ليس في أي مكان.

ـ إذن فماذا عن هذا الموضع؟

ـ نعم، ولكن حاول أن تحفر من أسفل الحائط الصخري مباشرة!

ـ أهذا هو وقت إخلاء الرمال من كل المنازل؟

ـ أجل. فمن الأسهل التعامل مع الرمال ليلاً، لأنها تكون رطبة، أما حينما تكون جافة، فإنك لا تعرف متى ولا أين تنهال عليك ساحقة. قالتها وهي تنظر إلى السماء.

تطلّع إلى أعلى، وبالفعل نشأت جبهة رملية، كأنها تلمع لتشـه السماء، بارزة من حافة الصخرة.

ـ لكن هذا خطير. أليس كذلك؟

ـ إنه عمل آمن حقاً.

قالتها المرأة، بصوت يخالف صوتها المعتاد، وأضافت:

ـ أنظر! ها قد بدأ السديم بقليل.

ـ السديم!

فها هي تتحدث، تحوّل امتداد النجوم، فغدا متداخلاً مختلطاً، وشرع في الزوال، ودارت سحابة غشائية متداخلة ومتقطعة، عند موضع التقاء السماء بالحائط الرملي.

ـ ذلك راجع لأن الرمل يمتصّ الكثير من الضباب. وحينما يمتلئ الرمل الملحي بالضباب فإنه يتصلّب كالنشا.

ـ لا أستطيع تصديق هذا!

ـ آه، نعم، هذا أمر حقيقي. حينما ينحسر المدّ متحوّلاً إلى جزر، يمكن حتى للدبابات الضخمة أن تسير قدماً على الرمال، دونما صعوبة.

ـ مدهش!

ـ هذا صحيح تماماً، ولذا فذلك الجزء الذي يبرز هناك يزداد ضخامة كل ليلة. وفي الأيام التي تهب الرياح فيها من اتجاه سيّئ، ينهال الرمل إلى أسفل مثل ما حدث اليوم على المظلة. وفي الأصيل حينما يكون جيداً وجافاً، يجري متلاطماً، على حين غرة. وينتهي كل شيء، إذا ما حدث ذلك في الموضع الخطأ... حيث الأعمدة ضعيفة.

كانت موضوعات حديثها محدودة، ومع ذلك فحينما تدخل ميدانها الخاص تكتسب فجأة حركية جديدة. ربما يكون ذلك أيضاً هو الطريق الى قلبها لم يكن مهتماً على نحو خاص بما قالته، لكن كلماتها كانت تحتوي في ذاتها دفئاً، جعله يفكر في الجسد الذي تخبئ ملابس العمل الخشنة.

عندئذ، دفع بكل قوته الحافة القاطعة المسننة لجاروفه في الرمال، القابعة عند قدميه.

- ٦ -

عندما انتهى من حل صفيحتي الكيروسين للمرة الثانية، سمع الأصوات، وتوهج مصباح يدوي على الطريق.

تحدثت المرأة بصوت بالغ الحدة:

- إنها سلة الرفع، انتهيت بالفعل من العمل هنا، ساعدني هناك، هل لك في ذلك؟

أدرك للمرة الأولى معنى وجود شكائر الرمل، التي امتدت مدفونة عند أعلى السلم، فتمرير الحبال حولها يمكن رفع وخفض السلال. ويعالج أربعة كل سلة، وكانت هناك ثلاث أو أربع مجموعات منهم. ويبدو في الغالب شباباً يعملون برشاقة وكفاءة. وفي الوقت الذي تمتلئ فيه سلة إحدى المجموعات تستعد المجموعة التالية للحلول

عليها. وفي ست عمليات رفع كان الرمل الذي كوم عالياً قد اختفى تماماً.

ـ هؤلاء الأشخاص مدهشون!

ترددت نغمة صوته مفعمة بالود، فيا هو يجفف عرقه بكم قميصه. بدأ الشبان، الذين لم يتفوّهوا بكلمة سخرية حيال مساعدته للمرأة، في إخلاء الرمل، عاكفين على عملهم بهمة ونشاط، فأحست بالود حيالهم.

ـ نعم، فنحن نتبع في قريتنا حقاً الشعار القائل: «فلتحب دارك!».

ـ أي نوع من الحب هذا؟

ـ إنه الحب الذي تكنّه لمكان إقامتك.

ـ عظيم!

ضحك، فشاركته ضحكته، لكنها لم يبد أنها قد فهمت هي نفسها سرّ ضحكها.

من بعيد، تناهى صوت الشاحنة ذات العجلات الثلاث، وهي تشرع في التحرك.

ـ الآن هل لنا في استراحة؟

ـ آه. لا، فحينما ينتهون من القيام بجولة يعودون بالسلة من جديد.

نهض، دون اكتراث، وبدأ في السير باتجاه الأرضية المتربة، لكنها لم تظهر ما ينمّ عن أنها مستاءة.

ـ ليس بمقدورك إنجاز الأمور بهذا الشكل! علينا أن نعمل على الأقل مرة واحدة حول الدار بأسرها.

ـ ماذا تقصدين بقولك: «حول الدار بأسرها»؟

ـ ليس بمقدورنا ترك هذه الدار تتعرض للسحق تحت وطأة الرمال. أتستطيع ذلك؟ إن الرمال تتهاوى من كل الجوانب.

ـ لكن القيام بذلك يقتضي العمل حتى الصباح.

تحركت في حدة، وابتعدت مسرعة، كأنما طُرح عليها تحدٍّ كبير. كانت تعتزم، فيما يبدو، العودة إلى قاعدة الصخرة ومواصلة عملها. حدّث نفسه قائلاً: «تماماً كخلد خفاش».

الآن وقد فهم هذا، فمن المؤكد أنه لن يستدرج مرة أخرى.

ـ يذهلني هذا. هل الأمر على هذا النحو كل ليلة؟

ـ الرمل لا يتوقف أبداً. وتواصل الشاحنة ذات العجلات الثلاث والسلال المجيء طوال الليل.

ـ أحسب أن الأمر كذلك.

ولقد كان كذلك، فالرمل لا يكفّ عن الانهيال قط. وقد حار الرجل في أمره، واستبدّت به الدهشة، كما لو كان قد دهس عرضاً ذيل ثعبان، كان يعتقد أنه صغير، لكنه تبيّن أنه هائل على نحو مذهل، وحينما أدرك ذلك كان رأسه يتهدده من الخلف بالفعل.

ـ لكن هذا يعني أنك على قيد الوجود لا لشيء إلا الإخلاء الرمل، أليس كذلك؟

ـ بلى، ولكننا لا نستطيع التهرّب من العمل ليلاً، كما تعلم.

ازداد شعوره بالضيق. لم تكن لديه نية التورّط في مثل هذه الحياة.

ـ نعم، تستطيعين. سيكون الأمر بسيطاً. أليس كذلك؟ بمقدورك القيام بأي شيء تريدينه.

قالت، على نحو عرضي، وتنفّسها يتساوق مع رفعها للرمال:

ـ كلا. لن يكون هذا صواباً على الاطلاق، فالقرية تواصل البقاء، لأننا لا نكفّ عن إخلاء الرمال قط على هذا النحو. أما إذا توقفنا، فإن الرمال ستدفنها تماماً خلال عشرة أيام. وبعد ذلك سيحل الدور على القرية المجاورة، هناك.

ـ من المؤكد أن هذا أمر جدير بالإطراء، وهل تواصل فرق رفع السلة العمل بهذه الجدية للسبب ذاته؟

ـ طيب. إنهم يحصلون على بعض المدفوعات من المدينة.

ـ إذا كانت لديهم كل هذه الأموال فلِمَ لا يقيمون حاجزاً من الأشجار يعمل كمصدّ للرمال؟

ـ يبدو أنه أرخص كثيراً إنجاز الأمر بهذه الطريقة... حينما تحسب التكاليف.

ـ هذه الطريقة؟ أهذه طريقة حقاً؟

تدفق في أعماقه شعور بالغضب، أغضبته الأشياء التي تكبّل المرأة.. وأحنقته المرأة، التي تركت نفسها تكبّل على هذا النحو، فقال:

ـ لماذا تتمسكين بمثل هذه القرية؟ لست أفهم حقاً. ليست هذه الرمال بالشيء الهيّن. وتخطئين كثيراً إذا وقفت ضدها بمثل هذه

الوسائل. هذا مناقض للعقل! عبث! إنني أستسلم، أستسلم حقاً، ولا أتعاطف معك على الاطلاق.

ألقى بالخاروف على صحيفتي الكيروسين، اللتين تركتا جانباً، وعاد فجأة إلى الغرفة، متجاهلاً التعبير المرتسم على ملامح المرأة.

تمضي ليلة مؤرقة، متقلباً، ومطوّحاً بأعضائه. أرهف السمع، مستشعراً وجود المرأة. أحسّ بالذنب. إنّ اتخاذ مثل هذا الموقف أمامها كان بالفعل تعبيراً عن الغيرة مما يقيّدها. ألم يكن كذلك رغبة في أن تنحّي العمل جانباً وتندلف خلسة إلى فراشه؟ لم تكن مشاعره القوية، فيما يبدو، مجرد غضب إزاء القباء الأنثوي، وإنما كان هناك شيء ما أبعد غوراً. كانت خشيته تزداد رطوبة شيئاً فشيئاً، والرمل الملتصق بجلده يتفاقم دبقه. كان كل شيء مفارقاً تماماً للمعقول، ومخيفاً للغاية. لم تكن هناك حاجة لتقريع ذاته، لإلقائه بالخاروف جانباً ودخوله إلى الدار، فلم يكن يتعيّن عليه احتمال هذا القدر من المسؤولية. فضلاً عن هذا فإن الالتزامات التي يتعيّن عليه التقيد بها كانت بالفعل أكثر من كافية. وفي حقيقة الأمر، فإن اهتمامه بالرمل وجمعه للحشرات كانا، في نهاية المطاف، وسيلتين للهرب، مهما كان طابعه المؤقت، من التزامات سيانه والجمود المخيّم عليها.

عجز عن النوم، رغم محاولاته العديدة.

واستمر صوت المرأة دونما انقطاع، ودنا صوت السلّة مراراً وتكراراً، ثم انحسر، ولو أن الأمور مضت على هذا النحو، فلن يكون في حالة تمكّنه من إنجاز مهام الغد. وعقد العزم على أن ينهض مع الفجر، وأن يستغل اليوم خير استغلال. وكلما أوغل في محاولة الإغفاء

ازداد تيقظاً. بدأت عيناه تؤلمانه ألماً شديداً، وبدا إطباقه لجفنيه ودموعه أبعد ما يكون عن الفعالية، في مواجهة الرمل المنهال. نشر منشفة، ولفّها على رأسه، فألفى التنفس متعذّراً، لكن الحال كان أفضل على هذا النحو.

حاول التفكير في شيء آخر. وعندما أغمض عينيه، أقبل عدد من الخطوط الطويلة، متدفقة كالتنهّدات، طافية نحوه. كانت هذه الخطوط تموّجات رمال تتحرّك، فوق الكثبان، ربما كانت الكثبان تخترق متغلغلة في شبكة عينيه، لأنه كان يحدق فيها بشكل ثابت طوال النهار عشرة ساعة. لقد ابتلعت تيارات الرمل ذاتها مدناً مزدهرة وامبراطوريات عظمى، وألحقت الدمار بها، ويطلقون على ذلك: ابتلاع الرمال للامبراطورية الرومانية، إذا ما أصاب فيا تذكّره. والقرية التي لا يذكر اسمها، التي قال عمر الخيام شعراً فيها، بخيّاطيها وجزاريها وأسواقها وسككها، المضفورة كطيّات شبكة لصيد الأسماك. كم من السنين انقضت في الكفاح وتقديم الملتمسات لتغيير صغيرة واحدة! المدن القديمة التي لا يشك أحد في رسوخها... غير أنها بدورها عجزت، في نهاية المطاف، عن مقاومة قانون الرمال المتدفق، ذات القطر الذي لا يتجاوز ثُمن المليمتر.

الرمال...

كانت الأشياء ذات الشكل والقوام خاوية، إذا وضعت إلى جوار الرمال. والعنصر الوحيد المؤكد هو حركة الرمال، فالرمال نقيض كل الأشكال والصور. غير أنه وراء الجدار الهشّ المكون من الألواح الخشبية واصلت المرأة رفع الرمال بالجاروف، كعهدها. ما الذي تأمل

بحق السماء في أن تنجزه بذراعيها النحيلتين ؟ بدا الأمر كمحاولة بناء دار في البحر بإزاحة الماء جانباً. إنك لا تجعل سفينة تطفو على سطح الماء إلا بالاتساق مع خواصه.

حينما خطرت بباله هذه الفكرة، استشعر فجأة انعتاقاً من شعور طاغ بالقهر، مارسه عليه بشكل غريب صوت المرأة وهي تخلي الرمال. إذا كانت السفينة تطفو على الماء، فإنها ستطفو كذلك على الرمال. ولو استطاعوا التحرر من مفهوم الدور الثابتة لما اضطروا لإهدار الطاقة في مكافحة الرمال. سفينة - دار - تطفو، محمولة على كاهل الرمال... مدن وبلدات لا تلتزم في قوام محدد.

ليس الرمل، بالطبع، سائلاً، ومن ثم فليس هناك سبب يدعو إلى توقع أن يكون قابلاً لتقويم الأجسام وطفوها فيه. ولو أن المرء ألقى فيه بشيء له جاذبية محددة أقل، ولنقل سدادة زجاجة من الفلين، وتركها فيه، فإنها ستغوص فيه. وإذا أريد لزورق أن يطفو على سطح الرمل، فلا بد أن تكون له خواص أشد اختلافاً. يمكن أن تكون داراً على شكل برميل، على سبيل المثال، تعلو وتهبط، وحتى إذا هبطت عموماً فإنها ستنفض ما تراكم عليها من رمل وتعلو في الحال مرتفعة إلى السطح. ولن يشكو الناس بالطبع من احتمال عدم ثبات الدار، التي تواصل الدوران طوال الوقت، فيتعين أن يكون هناك ترتيب ازدواجي على محور، بحيث أن قاع البرميل الداخلي ستكون له نقطة جاذبية ثابتة على الدوام، وسيظل هذا البرميل الداخلي ثابتاً، وسيدور البرميل الخارجي وحده. دار تتحرك، شأن بندول ساعة هائلة... دار كالمهد... سفينة للصحراء.

قرى وبلدات في حراك دائم تتآلف من تجمعات لمثل هذه السفن. أخفى، دون ان يدري من أمره شيئاً.

- ٧ -

أيقظته صيحة ديك، تناهت إليه كأنها فرقعة أرجوحة صدئة. كانت يقظة قلقة مترعة بآثار النوم. ساوره شعور بأن الصبح قد انبلج بالكاد، لكن عقربي ساعة معصمه كانا يشيران بالفعل إلى الساعة الحادية عشرة والدقيقة السادسة عشرة. هكذا، فإن لون أشعة الشمس كان في حقيقة الأمر لون الضحى، وقد بدا كابياً هنا، لأنه في قرار حفرة لم تبلغها الشمس مباشرة بعد.

نهض مسرعاً، فتهاوت الرمال التي تراكمت على وجهه ورأسه وصدره، محدثة صوتاً ممزاً. تراكمت حول أنفه وشفتيه طبقة من الرمل، تصلّبت بعد ان عجنت بالعرق. فركها بظهر يده، وطرف بعينيه في حذر، فتحدّر الدمع، على نحو لا سبيل للسيطرة عليه، تحت جفنيه المحمومين، اللذين أصابتهما حبيبات الرمل. لكن الدمع وحده لم يكن كافياً لإبعاد الرمل، الذي استقرّ في اخضلال أركان عينيه.

شرع في السير نحو الوعاء القابع على الأرضية الترابية، للحصول على قليل من الماء. وسمع فجأة صوت تنفّس المرأة المضطجعة على الجانب الآخر من الموقد المتهالك، فتطلّع نحوها، وغصّ بريقه، وقد نسي تماماً جفنيه النابضين بالألم.

كانت عارية تماماً.

بدت كما لو كانت تطفو كالسمادير أمام عينيه المخضلتين بالدمع. كانت ترقد على الحصيرة، ووجهها إلى أعلى، وجسمها كله، باستثناء رأسها، مكشوف للعيان، وكانت يدها اليسرى ملقاة بخفة على الجزء الأدنى من بطنها، الذي لاح ناعماً، بضاً. كانت الأجزاء التي يغطيها المرء عادة مكشوفة تماماً، أما الوجه الذي يسفر الجميع عنه، فقد اختفى تحت منشفة أريد بها، دونما شك، أن تحمي الأنف والفم والعينين من الرمل، لكن المفارقة بدت وكأنها تزيد من إبراز الجسم العاري.

كان السطح العاري لجسمها كله مكسواً بطبقة من الرمل الدقيق، أخفت التفاصيل، وأبرزت الخطوط الأنثوية، فبدت كما لو كانت تمثالاً كسي سطحه بالرمل. فجأة أفرز لعاباً دبقاً تحت لسانه، لكنه لم يستطع ابتلاعه، ولو أنه ابتلعه لانتشر في سائر فمه الرمل الذي استقر بين شفتيه وأسنانه. فالتفت نحو الأرض المتربة وبصق، ولكن مهما بصق فإن عجزه عن التخلص من المذاق الرملي يظل على حاله. وأياً كان المدى الذي ذهب إليه في إفراغ فمه، فإن الرمل ظل قابعاً فيه، وبدا أن المزيد من الرمل يتخلل، باستمرار ما بين أسنانه.

من حسن الطالع أن جرة الماء كانت قد ملئت مؤخراً، فبلغ الماء حافتها. حينما تمضمض، وغسل وجهه، شعر بأنه أفضل حالاً. لم يحدث من قبل أن أدرك بمثل هذا الوضوح قط أي أعجوبة يمثلها الماء، فهو مادة غير عضوية، شأن الرمل: مادة بسيطة، شفافة، غير عضوية تتكيف مع الجسم بطواعية تفوق أي شيء حي. وفيما الماء

يتقاطر ببطء هابطاً عبر حلقه، راح يتخيل حيوانات من آكلة الأشجار.

تحوّل نحو المرأة، وراح يحدق فيها مجدداً، لكنه لم يشعر بالرغبة في أن يدنو منها. ذلك أن امرأة تكسوها الرمال قد تجتذب النظر، لكنها لا توحي بالرغبة في لمسها.

في ضوء النهار، بدا ما حفلت به الليلة الماضية من غضب وانفعال مجرد وهم، وبالطبع من شأن الأمر كله أن يكون موضوعاً للحوار. تطلّع حوله مرة أخرى، كأنما ليثبت في ذهنه ما غدا بالفعل ذكرى من الذكريات. تراكم الرمل على قميصه وسرواله، غير أنه لم يراوده شعور بالقلق إزاء مثل هذه الأمور. وكان إبعاد الرمل عن نسيج ملابسه شيئاً أكثر صعوبة وتعذراً من إبعاد القشر عن فروة رأسه.

دُفن حذاؤه، كذلك، في الرمل.

تساءل عما إذا كان عليه أن يقول شيئاً للمرأة، قبل أن يرحل، ولكن إيقاظها لن يثير، من ناحية أخرى، إلا شعورها بالحرج. ما الذي يتعيّن عليه، في أي الأحوال، القيام به فيما يتعلق بدفع أجر مبيت لها؟ ربما كان من الأفضل ان يتوقف، في طريق العودة عبر القرية، ويعطي النقود لذلك العجوز من الجمعية التعاونية، العجوز الذي أحضره هنا البارحة.

وغادر الدار متسللاً.

كانت الشمس متوهّجة كالزئبق، وقد لاحت عند حافة الصخرة الرملية، وراحت شيئاً فشيئاً تبث حراً خانقاً في قاع الحفرة. فسارع

إلى إبعاد عينيه عن الوهج الصارخ . وفي اللحظة التالية نسيها ، وراح يحدق في واجهة الجدار الرملي .

بدا الأمر عصياً على التصديق ، فقد اختفى سلّم الحبال من الموضع الذي كان فيه البارحة .

كانت شكائر الرمل المميّزة للموضع تبدو جلية للعيان ، وقد غاصت حتى منتصفها في الرمال ، ولم يكن هناك وجه للخطأ ، فهو يتذكر الموضع ، وراح يتساءل : هل ابتلعت الرمال السلّم وحده ؟ اندفع نحو الجدار الرملي ، وغرس ذراعيه في الرمل ، متلمّساً السلم . فتداعى الرمل ، وانهار دونما مقاومة . غير أنه لم يكن يحاول العثور على إبرة في كومة من قش ، فإذا لم ينجح في المحاولة الأولى ، فلن يقدر له النجاح قط ، مهما أوغل في البحث . قمع الانزعاج المتصاعد من أعماقه ، وتطلع بعيداً ، في دهشة مجردة من أي تعبير ، إلى حافة المنحدر .

أليس هناك موضع يمكن تسلق المنحدر منه ؟ هكذا راح يتساءل ، دار حول المنزل مرتين أو ثلاثاً ، متطلعاً ، لو أنه تسلّق السقف فإن المسافة بينه وبين حافة الحفرة ستكون في أقصر أوضاعها عند الجانب الشمالي ، باتجاه البحر ، لكنها ستظل أكثر من ثلاثين قدماً ، وفوق ذلك فإن الحائط هناك أكثر انحداراً من أي مكان آخر . وبدت الجبهة العلوية المائلة للرمال متفاقمة الخطورة .

بدا أن الحائط الغربي هو انحدار أقل ضراوة نسبياً ، من سطح منحن مثل باطن مخروط . وبتقدير متفائل فربما كان انحداره يصل إلى حوالي خمسين أو خمس وأربعين درجة . خطا على نحو حذر خطوة

متلمسة، ومع كل خطوة إلى الأمام تراجع نصف خطوة، ورغم ذلك بدا كما لو أن بمقدوره بجهد هائل أن ينجح في التسلق.

مضت الأمور على نحو ما توقع بالنسبة للخطى الخمس أو الست الأولى، ثم شرعت قدماه تسوخان في الرمال. وقبل أن يدري ما إذا كان يحرز تقدماً من عدمه غاص حتى ركبتيه، وبدا أنه قد فقد كل قدرته على الحركة، ثم حاول مهتاجاً أن يزحف على أربعة، فأحرق الرمل المتقد راحتيه، تحدر العرق من جسمه كله، حجب الرمل والعرق الرؤية عن عينيه، وسرعان ما تقلصت عضلات ساقيه وعجز عن تحريكها على الاطلاق.

كف عن الحراك، وراح يلتقط أنفاسه، مفترضاً أنه قطع بالفعل مسافة يعتد بها، لكنه حين فتح عينيه، وحدق بها وهما نصف مغمضتين، أدهشه أن يكتشف أنه لم يقطع خمسة أمتار. راح يتساءل: ما الذي حققه على وجه الدقة بكل هذا الجهد؟ وفضلاً عن هذا، فقد بدا المنحدر الذي تسلقه أكثر استقامة مما بدا له وهو يتطلع من أسفل. وبدا من موقفه أسوأ بكثير. ورغم أنه أراد التسلق إلا أنه بدا كما لو كان قد استهلك كل طاقته لمجرد إحداث حفرة في الحائط الرملي. فقد سدت الجبهة الرملية الواقفة فوق رأسه مباشرة الطريق في وجهه. حاول بمزيد من اليأس أن يمضي قدماً، ولكن في اللحظة التي اندفع فيها نحو الرمال المطلة على رأسه انهالت الرمال من تحت قدميه.

انهارت به الرمال، فارتمى في قرار الحفرة، صدر عن كتفه صوت يحاكي انشطار عيدان تناول الطعام الخشبية، لكنه لم يلحظ انبعاث أي ألم فيه، ولبعض الوقت تهاوى رمل ناعم في رفق من سطح الصخرة

الرطبة، وكأنه يخفف من عصابه، ثم توقف. وكانت إصابته بالغة المحدودية.

لم يكن أوان الخوف قد حان.

قمع رغبته في الصراخ، وزحف متثاقلاً إلى الكوخ. كانت المرأة لا تزال نائمة في الوضع ذاته، فناداها، مترفقاً في البداية، ثم بصوت آخذ في الارتفاع، وبدلاً من أن ترد، تقلبت، كما لو أن الضيق ألم بها.

إنساب الرمل من جسمها، كاشفاً عن ذراعيها وكتفيها العاريتين، وعن عري خاصرتيها وعورتها. لكن أموراً أكثر أهمية كانت تشغله، فمضى نحوها، ونزع المنشفة عن رأسها، ألفى وجهها مكسواً بالبقع، وبدا، مقارناً بجسمها الذي كساه الرمل، متسلخاً على نحو رهيب. ومن المحقق أن بياض وجهها في ضوء المصباح البارحة، كان ناجماً عن استخدام الذرور، أما الآن وقد مسحت المادة البيضاء، مخلفة بقعاً جرداء تعطي الانطباع بأن المرء يقف أمام شرائح لحم لم تُطَّهَ في خبيص اللبن والبيض. أدرك، مندهشاً، أن المادة البيضاء ربما كانت دقيقاً أبيض حقيقياً.

أخيراً فتحت عينيها قليلاً، وقد بدا أن الضوء يبهرها، فأمسك بكتفيها، وهزها، وراح يحدثها مسرعاً، في ابتهال.

ـ أقول لك إن السلم ليس في موضعه! أين أفضل مكان للتسلق والخروج من هنا بحق السماء؟ ليس بمقدورك الخروج من مكان كهذا دون سلم.

لملمت المنشفة بحركة عصبية، ثم لطمت وجهها بها بطاقة غير

متوقعة، ثم استدبرته تماماً، وقد التفّت حول نفسها، وثنت ركبتيها نحوها، وتوسّدت الأرض. ترى أكانت تلك حركة تنمّ عن الحياء؟ لكن هذا ليس بموضعه. صرخ الرجل، كما لو كان سدّ قد انهار.

ـ ليس هذا محلاً للمزاح! لا أعرف ما سأفعله، إن لم تخرجي ذلك السلم. إنني في عجلة من أمري! أين بحق الله أخفيته؟ لقد نلت ما يكفيني من مزاحك. أحضريه هنا في الحال!

لكنها لم تحر جواباً، وإنما ظلت في الوضع ذاته، وكل ما فعلته أنها هزت رأسها يمنة ويسرة.

تصلّب في موضعه، وزاغ بصره، وتحشرج تنفّسه، وأوشك على التوقف. أدرك، فجأة، عبث طرح الأسئلة عليها، فالسلم مصنوع من الحبال، ومثل هذا السلم لا يثبت نفسه، وحتى لو وصل إليه، فليست هنالك إمكانية لتثبيته من أسفل، الأمر الذي يعني أن المرأة لم تنتزعه، وإنما مضى به أحدهم من أعلى عند الطريق. فجأة لاح وجهه غير الحليق المعفّر بالرمل بائساً.

اكتسبت حركات المرأة وكذلك صمتها مغزى رهيباً وغير متوقّع. رفض أن يصدّق الأمر، غير أنه في أعماقه كان يعلم أن أسوأ مخاوفه قد تحققت. وبما كان السلم قد نزع بمعرفتها، ودون شك بموافقتها التامة. ولا مجال للخطأ في أنها كانت ضالعة في الأمر، والوضع الذي اتخذته لا علاقة له، بالطبع، بالشعور بالحرج، فقد كان وضع الضحية إذ يضحّى بها، وضع المجرم المتقبل لأي عقاب ينزل بساحته. لقد اجتذبته الخنفساء إلى صحراء لا فكاك منها، كأنه فأر يتضوّر جوعاً.

وثب من موضعه، وهرع إلى الباب، وأطل منه مجدداً. كانت الريح قد هبت، وتصاعدت الشمس على الحفرة على وجه التقريب، وارتفعت موجات الحرارة، متألقة، كأنما تدبّ فيها الحياة، من الرمل المتقد. وتسلقت الصخرة الرملية متطاولة إلى الأعلى فوقه، وبدا أن وجهها المفعم بالنذير يحدث عضلاته وعظامه بأن المقاومة لا معنى لها. اخترق الهواء الساخن جلده، وشرعت درجة الحرارة في التصاعد.

بدأ في الصراخ، كأنما ألمّ به طائف من جنون، لم يدر بما كان يقوله في صراخه، فقد كانت كلماته بلا معنى. راح يصيح بأعلى صوته، كأنما كان بمقدوره أن يجعل الكابوس يرعوي، ويتراجع عن جرمه، فيهرع به بعيداً عن قاع الحفرة. لكن صوته الذي لم يعتد الارتفاع الى حد الصراخ كان متهالك النبرة، ضعيف الرنين، وفضلاً عن ذلك فقد امتص الرمل كلماته وأطاحت بها الريح، ولم يكن هناك من سبيل لمعرفة المدى الذي وصلت إليه.

قاطعه فجأة صوت رهيب، فكما تنبأت المرأة البارحة، فقدت جبهة الرمال الواقعة إلى الجانب الشمالي رطوبتها وانهارت. بدا أن الدار بأسرها تطلق صرخة، كأنما تسلم فيها روحها، كأنما أصابها جرح قاتل، وشرع دم رمادي يشخب محدثاً صوتاً حاداً من الهوة الجديدة، - بين الطنف والحائط الرملي. بدأت الرجفة تأخذ بمجامع الرجل. وقد امتلأ فمه باللعاب، بدا الأمر كما لو أن جسمه هو الذي تعرض للانسحاق.

لا يمكن أن يكون هذا الكابوس كله أمراً يحدث له، فهو أغرب من أن يقع. أمن المسموح به أن يُصيد، مثلما حشرة أو فأر، إنسان

لديه شهادة تأمين طبّي، ودفع ما عليه من ضرائب، ويشغل وظيفة، وقد سُوِّيت سجلاته العائلية على خير حال؟ لم يستطع تصديق الأمر. ربما كان هناك خطأ ما، ومن المحقق أن في الأمر خطأ، لم يكن ثمة ما يمكن القيام به إلا افتراض أن هناك خطأ ما.

ليس هناك، بداية، أيّ معنى على الإطلاق لإتيان ما فعلوه به. إنه ليس حصاناً، ولا هو بقرة، لا يمكنهم إجباره على العمل رغماً عنه، وبما أنه لا نفع فيه كقوّة عمل، فليس هناك معنى لسجنه داخل هذه الجدران الرملية، وكل ما في الأمر أنهم يلقون عالة على المرأة.

لكنه بشكل ما لم يكن متأكداً. راح يتطلّع الى الحائط الرملي الذي يحيط به وكأنما ليخنقه، فذكّر على نحو يائس بفشله الذريع في تسلّق هذا الحائط، لقد تعثّر وسقط عنه. أصاب إحساس بالعجز جسمه كلّه بالشلل. كانت الرمال تلتهم القرية بالفعل، ولم تعد الأعراف التي تهيمن على الحياة اليومية مرعيّة، ربما غدت القرية عالماً يحيا وحده، في عزلة عن غيره. ولهذا السبب، فإنه إذا أراد ان يتشكّك، لوجد الكثير مما يعدّ مثار شك. فإذا كان صحيحاً أن الجاروف وصفيحتي الكيروسين قد أعدّت خصيصاً له، فمن الصحيح كذلك أن سلّم الحبال قد نُزع دون علمه. وفضلاً عن ذلك، فالحقيقة المتمثّلة في أن المرأة لم تطرح كلمة في معرض التفسير، وأنها تقبّلت كل شيء في صمت، وبامتثال غريب، قد جسّدت الخطر الكامن في الموقف. وربما لم تكن ملاحظتها البارحة، التي تشير بأن إقامته سيقدر لها ان تكون طويلة الأمد، مجرّد زلة لسان.

ثم وقع انهيار رمليّ صغير.

عاد إلى الكوخ خائفاً يترقّب، مضى الى المرأة مباشرة، فألفاها على حالها ملتفّة حول نفسها. رفع يده اليسرى مهدداً، تـوهّجت عيناه، فيا هو واقف هنالك، وقد أخذ العذاب بخناقه. ولكن فيا هو يوشك ان يشير على هذا النحو، تهاوت ذراعه التي رفعها متوعّداً على حين غرّة. ربما تحسّنت حالته لو أنه أوسع المرأة العارية صفعاً، ولكن أليس هذا على وجه الدقة ما يتوقع منه القيام به؟ إنها تترقّبه، وبتعبير آخر لئن نالت عقابا لحسبَ ذلك أن الجريمة قد دفع ثمنها.

تحوّل مبتعداً عنها، وتهالك على حافة الجزء المرتفع من الأرضية، ووسّد رأسه بين ذراعيه، وشرع في الأنين، دون أن يرتفع صوته. حاول ابتلاع اللعاب الذي تجمّع في فمه، لكنه التصق بحلقه، لقتيّاً. كان الغشاء المبطن لزوره قد أصبح بالغ الحساسية لوجود الرمل. لن يتفاده مهما طالت إقامته في هذه القرية. غدا لعابه زبداً بنيّاً يسيل من ركني فمه. وعندما انتهى من البصق، غدا بمقدوره أن يستشعر خشونة الرمل، على نحو أكثر ضراوة، حاول التخلص منه، مرّراً طرف لسانه على باطن فمه، وبصق مراراً وتكراراً، لكن الرمل كان بلا نهاية. كان فمه محترقاً وساخناً، كأنما أصابه التهاب ما.

لم تكن هناك جدوى. على أيّة حال، سيحادث المرأة، ويدفعها لإيضاح الأمور له، على وجه أكثر دقّة وتحديداً، ولو أن الأمر تمّ توضيحه، فربما عقد عزمه على القيام بهجوم قاطع، فلا يمكن أن يمضي دونما خطة عمل. ومثل هذا الموقف الفجّ لا يحتمل. ولكن ماذا بفعل إن لم تُجِبْ ردّاً على الاطلاق؟ ستكون تلك الاستجابة حقاً هي الأكثر إثارة للهواجس من بين كل الاستجابات. وكان هناك احتمال مناسب لإبدائها لها. يا لصمتها العنيد! وما أعجب الطريقة التي تبدو

بها ضحية لا تملك الدفاع عن نفسها وهي ترقد هنالك ملتفّة حول نفسها وركبتاها ملتصقتان بها.

كان مرأى ظهرها العاري فجأة، وعلى شيء من الحيوانية. بدا وكأنها يمكن قلبها، بمجرد وضع كفّه على مؤخرتها. ما إن جالت الفكرة بخاطره، حتى كفّ عن التنفس، وقد حلّ به الخجل. ساوره شعور بأنه لن ينقضي وقت طويل قبل أن يرى نفسه جلاداً، يعذب المرأة، واقفاً عند ردفيها المكسوّين بالرمل. نعم، سيحدث هذا بالفعل، وفي تلك اللحظة سيفقد حقه في الكلام.

أصاب ألمٌ حادٌ بطنه فجأة، ذلك أن مثانته، التي تضخمت، فيما يبدو، الى درجة الانفجار، راحت تصرخ طالبة الإفراغ.

- ٨ -

انتهى من التبوّل، وظل واقفاً على غير ما كان في الهواء الجاثم، وقد أعمى اليأس بصيرته، لم يكن ثمة أمل في أن تتبدل الأمور مع مرور الوقت، غير أنه لم يستطع حمل نفسه على الرجوع إلى الدار. عندما غادر موقعه بجوار المرأة، ازداد إدراكه للمخاطر التي تكتنف وجوده بجانبها، فراح يحدث نفسه قائلاً: لا، لم تكن المشكلة متمثلة فيها هي ذاتها، وإنما في وضعها المنحني ذاك. لم يسبق له أن شاهد أيّ شيء على مثل هذا القدر من الفجاجة والخروج قط. لم يكن هناك سبيل للعودة إليها، فوضعها ذاك متفاقم الخطورة من كل الجوانب.

هناك أنواع معيّنة من الحشرات والعناكب تقوم، حينما تتعرض

للهجوم على نحو غير متوقّع ، باتخاذ وضعية الشلل التام ، ويسيطر عليها نوع من التصلّب الصرعيّ ... مطارٌ سيطر معاتبه على برج مراقبته ... صورة تشظّت. رغب في أن يصدّق أن غياب الحركة من جانبه قد أوقف الحركة بأسرها في الدنيا ، على نحو ما يلغي ضفدع خارق في سباته الشتاء.

فيما كانت أفكاره تواصل انسياحها ، غدت أشعة الشمس أشدّ ضراوة. أتى بحركة افناء مفاجئة ، كأنما يلقي نفسه من طعنات الضوء ، أحنى رأسه بحدّة ، وأمسك بياقة قميصه ، واجتذبها بكل قوته ، فانتثرت الأزرار الثلاثة العلوية. فيما كان يحكّ راحتي يديه ، مزيلاً منهما الرمل ، تذكر مرة أخرى ما قالته المرأة البارحة ـ ومؤداه أن الرمل لا يجفّ أبداً ، وإنما يظل على الدوام محتفظاً بقدر من الرطوبة ، يكفي للتحلّل التدريجيّ لأيّ شيء يمسّه. عندما أتمّ خلع قميصه ، فكّ حزامه ، وترك الهواء يتخلّل سرواله. لكن ذلك لم يكن بالأمر الذي يستحقّ كثيراً من الاهتمام ، غادره الشعور المقيت بالسرعة التي حطّ بها عليه. لقد فقد البطل بالفعل ، لمسته السحرية بمجرد اتصاله بالهواء.

خطر له ، في تلك اللحظة ، أنه قد ارتكب خطأً فادحاً ، إذ يبدو أن تفسيره لعري المرأة كان مغرقاً في التعسّف ، ورغم أنه لم يستطع استبعاد رغبة خفية من جانبها في إغوائه ، إلا أن عريها ربما كان عادة مألوفة تماماً ، اقتضتها طبيعة الحياة التي تعيشها ، فهي في نهاية المطاف قد أوت إلى الفراش حينما طلع النهار. وكلّ إنسان عرضة للتعرّق في نومه ، وكان عريها عادياً تماماً في ضوء أنها قد نامت نهاراً ، وفضلاً عن ذلك ، في وعاء من الرمل المتّقد. ولو أنه كان في موضعها لاختار بالتأكيد أن يكون عارياً إذا كان ذلك بمقدوره.

خفف هذا الإدراك، فجأة، من مشاعر توتره، كأنما فصل نسيج متهافت، على نحو مرئيّ، العرق عن الرمل على جلده. لم يكن هناك طائل وراء تعريك مخاوف لا أساس لها، وقد هرب الناس من وراء أعداد هائلة من جدران الاسمنت وقضبان الحديد، وهو لن يجبن أمام قفل دون ان يكتشف ما إذا كان مقفلاً من عدمه. مضى على مهل عائدة باتجاه الكوخ، جاراً قدميه في الرمل، إنه في هذه المرة سيكون رابط الجأش، وسيحصل منها على المعلومات التي ينشدها. وبوضع نفسه في هذه الوضعية والصراخ فيها لا يتوقع منها إلا أن تلزم الصمت، إضافة الى ذلك، فربما لم يكن صمتها إلا خجلاً من إهمالها، الذي أدى إلى أن يراها راقدة، وقد تعرّت من ملابسها.

- ٩ -

تبدى داخل الكوخ لعينيه اللتين تمرّستا لتوّهما للرمل المتّقد وقد لفّته العتمة، وأحسّ به رطباً، بارداً. كانت للهواء الحارّ رائحة ثقيلة عفنة، تختلف تماماً عن الخارج، لكنه فجأة أحسّ بما لا بد أنه هذيان.

لم تكن المرأة هناك، جفل للحظة، كان قد نال كفايته من ألعاب الاستغماية، تلك، لكن لم يكن هناك لغز ينبغي حلّه، فها هي ذي هناك، تقف ناظرة إلى أسفل، وقد أولته ظهرها، أمام جرّة الماء إلى جوار حوض الغسيل.

كانت قد أتمّت ارتداء ثيابها، لم يجد فيها عيباً، منحه اللون المتّسق

من الخضرة والزرقة للكيمونو وسروال العمل اللذين ارتدتهما شعوراً بالانتعاش، كالذي يثيره طعم النعناع. لقد ساورته حقاً مخاوف أكثر مما ينبغي، وفيما بين عدم نيله لقسط كافٍ من النوم وهذه البيئة الغريبة ما كان يمكن الا أن تراوده أغرب التصوّرات.

وضعت المرأة يدها على حافة الجرة وراحت تحدّق فيها، وبطرف إصبعها حركت سطح الماء حركة دائرية، طوّح قميصه في الهواء بقوة، وكان ثقيلاً بما لصق به من رطوبة وعرق ورمل، ولفّه بإحكام حول معصمه.

تطلّعت حولها في ترقّب وخوف، وقد توتّرت ملامحها، كانت طريقتها الجزعة في الالتفات طبيعية تماماً، حتى ليحسب المرء أنها قد أمضت عمرها وهذا التعبير مرتسم على محياها. فقرّر أن يتصرف، على نحو عفويّ وعرَضيّ، بقدر الإمكان.

ـ حرّ، أليس كذلك؟ يا للمياه، ليس بمقدوري ارتداء قميص حينما يكون الحرّ فظيعاً على هذا النحو!

غير أنها كانت لا تزال تبدو متشكّكة، وراحت تتطلّع إليه في حزن، وندّت عنها ضحكة خجول ومصطنعة، وتحدّثت بتردّد:

ـ حقاً، الأمر كذلك. إنك ستصاب بطفح جلدي رملي في النوم إذا ظللت مرتدياً ملابسك وأنت تتعرّق.

ـ طفح جلدي رملي؟

ـ نعم، الجلد يلتهب، مثلما يحدث بعد الإصابة بجرح، ثم يتسلّخ.

ـ إحم، أتساءل عما إذا كان يستطيع حقاً، فهو يتهيأ بسأم مرطوبة.

ـ نعم... هذا هو السبب...

ربما كانت قد شرعت في التراخي أخيراً، وحلّت عقدة لسانها، أضافت:

ـ عندما يحتمل أن نحترق، هذا هو السبب في أننا نمضي دون ملابس بقدر ما نستطيع. ففي نهاية المطاف نحن نعيش في قرار هذه الحفر، ولذا لا ينبغي علينا أن نخشى أن يرانا أحد.

ـ بالطبع، انظري، ليس في نيّتي أن أسبب لك أيّ متاعب، لكني أريد غسل هذا القميص.

ـ بالتأكيد، سيمكنني غسله، لسوف يحضرون برميل الماء الخاص بنا غداً.

ـ غداً؟ الغد سيكون مشكلة.

قالها ضاحكاً ضحكة مريرة. كان قد نجح بالفعل في المناورة بصورة ماهرة، لتحويل الحوار باتجاه موضوعه، أضاف:

ـ بالمناسبة، متى يعتزمون بحقّ السماء إخراجي من هنا؟ لسوف أقع في ورطة حقيقية. ولو أنّ موظّفاً مثلي تجاوز جدوله الزمنيّ المحدّد حتى ولو بمقدار نصف يوم لتعرّض لخسارة كبيرة، ولست أريد تضييع دقيقة واحدة، هناك الكثير من «الحشرات غمدية الجناح» تتواثب في التربة الرملية على هذا النحو، وأتساءل عما إذا كنت تعرفين أيّاً منها، أردت العثور على نوعيات جديدة منها في هذه العطلة.

حركت شفتيها مترددة، لكن كلمة واحدة لم تند عنها. ربما كانت تردد الاسم غير المألوف فحسب. أدرك أن ذهنها يـوصـد مغاليقه مرة أخرى، فواصل الحديث بصورة غريزية:

ـ أتساءل عما إذا لم تكن هناك طريقة ما للاتصال بالقرويين، مثل قرع صفيحة كيروسين، أو شيء من هذا القبيل.

لكنها لم تحر رداً. وعكفت مجدداً على صمتها السلبي، بالسرعة ذاتها التي يغوص بها حجر في الماء.

ـ ما بك؟ اللعنة! لِمَ لا تقولين شيئاً؟

أوشكت أعصابه على الإفلات، من جديد، لكنه قمع بشكل ما رغبته في الصراخ، وأضاف:

ـ لست أفهم. لو أن هناك نوعاً من سوء التفاهم لسوّينا الأمر! فلا جدوى من البكاء على الحليب المسكوب. أما صمتك هذا فهو أسوأ شيء، تلاميذي يلجأون الى هذا دائماً، لكني أقول لهم، إن أكثر ما يمكنهم القيام به جبناً هو التزام الصمت والتظاهر بأنهم يتحمّلون اللوم. إن كان هناك أيّ تفسير فجئني به في الحال!

ـ ولكن...

تقلقلت عيناها في محجريها ونظرتها تتّجه إلى كوخها، لكنها قالت بصوت حازم على نحو مدهش:

ـ أحسب أنك تفهم الأمر بالفعل.

ـ أفهم...؟

قالها لاهثاً، وقد عجز عن إخفاء صدمته.

ـ نعم، لا بد أنك فهمت الآن.

صرح بها أخيراً.

ـ لكني لست أفهم من الأمر شيئاً! كيف ينبغي أن أفهم؟ ليس بمقدورك أن تتوقعي أن أفهم بينما لم تنطقي بكلمة واحدة. أليس كذلك؟

ـ طيب. الحياة هنا أصعب من أن تحتملها امرأة بمفردها.

ـ ما شأن هذا بي؟

ـ له بالتأكيد شأن بك، أخشى أنني أسأت التصرف نحوك.

ـ ماذا تقصدين بقولك «أسأت التصرف؟»

قالها متعثراً في حديثه، في انتظار تلهّفه إلى ردّ. أضاف:

ـ بتعبير آخر لمَ هذه المؤامرة؟ لقد عصرت الفخّ، وحسبت أنني سأنتبه في الحال إن كانت هناك امرأة، كأني كلب أو قطة ما.

ـ يدنو الآن الموسم الذي تهبّ فيه الرياح من الشمال، فيقلقنا أمر العواصف الرملية.

قالتها، ناظرة إلى الباب الخشبيّ، الذي كان مفتوحاً. كانت هناك ثقة حقاء في صوتها الهادئ الرتيب.

ـ ليس هذا بالمزاح! هناك حدّ للعبث. هذا احتجاز غير مشروع، واضح، وصريح. جريمة صارخة! لست بحاجة لإثبات مثل هذه الأمور التي لا معنى لها. هناك الكثيرون من المتعطّلين سيرحّبون بفرصة الحصول على راتب يوميّ.

ـ ربما، لكن المتاعب ستقع إذا علموا خارج هذه المنطقة بما يجري هنا.

ـ وهل تعتقدون أنكم آمنون في حالتي؟ إنكم لستم كذلك حقاً! إنكم تقعون في خطأ حقيقي إذا ظننتم أن الأمر كذلك. من سوء حظكم انني لست من المتسكّعين. فأنا أدفع ما عليّ من ضرائب، وأقيم في مسكن مسجّل. وسرعان ما يسجّل طلب لإجراء تحقيق، وعندئذ سترون. ألا تدركون أيها الناس؟ كيف تتوقعون تبرير عملكم؟ الآن أمضي وأستدعي المسؤول كائناً من كان؟ سأحدثه بالضبط عن رأيي في هذا الموقف المتّسم بالغباء.

نكست عينيها، وتنهّدت متردّدة، وتهالكت كتفاهـا، لكنهـا لم تبذل محاولة للتحرك. بدت كما لو كانت كلباً صغيراً، مكروباً، نساء معاملته، على نحو غير مبرّر. غير أن موقفها جعله يزداد غضباً.

ـ فيمَ ترددك؟ هلمّي! لست الوحيد الذي يعنيه الأمر. إنك ضحية مثلي تماماً. ألست كذلك؟ طيب. ألست كذلك؟ قلت إنهم إذا علموا خارج هذه المنطقة بأمر الحياة هنا فإن المتاعب ستقع. هذا يوضح أنك تدركين مدى عدم معقولية حياتك هذه. توقفي عن الحديث باسم القرية، كفي عن تلقي معاملة الأمة... ليس لأحد الحق في سجنك هنا. الآن أمضي وأستدعي أحداً. سوف نخرج من هنا... أم، هكذا الأمر. إنك خائفة، ألست كذلك؟ لكن تلك حماقة! مم تخافين؟ ها أنذا، ولديّ أصدقاء يحررون حساب إحدى الصحف، لسوف نبرز الزاوية الاجتماعية في الأمر. ماذا دهاك؟ لِمَ لا تردّين؟ أقول لك إنه ليس هناك ما تخشينه!

بعد لحظة، تحدثت المرأة، كأنها تواسيه:

ـ هل أشرع في إعداد طعام الغداء؟

ـ ١٠ ـ

راح يرقب شبحها خلسة من طرف عينه، فيما شرعت صامتة في تقشير بعض البطاطس. هل يتقبل طواعيةً الطعام الذي عكفت على إعداده أم لا؟ شغلت المشكلة تفكيره تماماً.

الآن حان وقت هدوء الأعصاب. وكبح الجماح. وبما أن نواياها كانت واضحة، فإن من الأفضل مواجهة الحقائق، بدلاً من إضاعة الوقت سدى، من الأفضل وضع خطط محددة للهرب. بمقدوره، فيما بعد، محاسبتهم على معاملتهم غير المشروعة له. لكن معدته الخاوية أضعفت إرادته، لم يكن بمقدوره تملّك ناصية قدراته. ولكنه إذا كان لا يريد ان يعترف، رسمياً، بالورطة التي وقع فيها فربما كان من المتعيّن عليه ان يرفض كل طعام يقدم إليه كذلك. سيكون أمراً مثيراً للسخرية أن يتناول هذه الوجبة فيما هو يرفض الموقف بأسره. إن الكلب الوضيع المظهر هو الذي يهزّ ذيله بمجرد حصوله على عظمة.

ولكن من الأفضل ألاّ يقفز إلى النتائج، فطالما أنه لا يعرف المدى الذي ستمضي إليه المرأة، فإن الحاجة لا تمسّ إلى التزام هذا القدر من السلبية. ليس الأمر متمثلاً في أنها تقوم بشيء حياله دون مقابل.

فمن المؤكد أنه سيدفع مقابل طعامه. وإذا دفع النقود المستحقة عليه فليس هناك سبب لشعوره بأنه مدين لها، ولو قليلاً. كان مذيعو مباريات الملاكمة في التليفزيون يقولون دائماً إن الهجوم خير وسيلة للدفاع.

مستلهماً هذه الفكرة، أحسّ بالارتياح، لعثوره على مبرّر وجيه لعدم رفضه للطعام. فجأة صفا ذهنه، وأدرك كل شيء. إن الرمل وحده هو عدوّه. نعم هذا هو جوهر الأمر. ليست هناك حاجة معقّدة لخلق مشكلات غير معقولة، لأن يتم النفاذ عبره، كأنه قضبان حديدية. لقد انتزعوا سلّم الحبال، طيّب، لسوف يصنع سلّماً من الخشب، وإذا كان الحائط الرملي حادّ الانحدار، فإنه سيجعل الميل أقل حدّة بتسوية الرمل، لو أنه أعمل ذهنه قليلاً فإن الأمر سيغدو يسيراً. بدت الخطة بالغة البساطة، ولكن طالما أنها تقدم الغرض الذي يرمي إليه، فكلما كانت أبسط غدت أفضل. وأفضل حلّ ـ ولنتذكر كولمبوس وبيضته ـ غالباً ما يكون بسيطاً على نحو مثير للسخرية. وإذا لم يكن يكترث بالمتاعب، إذا كان سيرة الضربة يمثلها حقاً، فإن اللعبة لم تنته بعد.

أكملت المرأة تقشير الطماطم، قطعتها إلى مكعبات صغيرة، ووضعتها في وعاء حديديّ كبير فوق الموقد، جنباً إلى جنب مع فجلة كبيرة مقطعة إلى شرائح بما في ذلك أوراقها الخضراء. التقطت في حرص عود ثقاب من كيس بلاستيكي، وبعد إشعاله لفّت الكيس بإحكام مرة أخرى، وربطته بشريط مطاطي. وضعت أرزاً في منخل، وصبّت الماء عليه، ربما لإبعاد الرمل، صدرت بقبقة عن الوعاء، وأفعم الهواء برائحة الفجل الحادّة.

ـ بقي بعض الماء، أتحب أن تغسل وجهك؟

ـ كلا، أفضل شربه على غسل وجهي به.

ـ آه، آسفة، لكني أحتفظ بماء الشرب على حدة. أخرجت من أسفل حوض الغسيل غلاية كبيرة، لفت بالبلاستيك، وأضافت:

ـ ليس بارداً للغاية، ولكنه سبق غليه، لذا فلا تخش شيئاً...

ـ على فكرة، إذا لم تتركي قليلاً من الماء في الجرة، فسوف تواجهين مشكلة فيما بعد حينما يتعين عليك غسل الأطباق. أليس كذلك؟

ـ آه، كلا، فأنا أنظف الأطباق بحكّها بالرمل.

فيما قالت هذا، أمسكت بقبضة من الرمل قرب النافذة، وألقتها إلى الطبق الذي كانت تمسك به، أدارت الرمل في صورة دوامة، فغطت الطبق به، لتظهر بشكل عملي ما قصدته. لم يكن واثقاً من أن الطبق كان نظيفاً حقاً، لكن شعوراً ساوره بأنه نظيف حقاً، فالرمل في هذه العملية، على الأقل، توافق تماماً مع فكرته عن الرمل.

مرة أخرى قدمت الوجبة، تحت المظلة، وإلى جوار السمك الذي شوي شيئاً خفيفاً خضر مطهوة. كان كل شيء مختلطاً قليلاً بحبيبات من الرمل. حدث نفسه بأن بمقدورهما أن يتناولا الطعام معاً لو أنها علقت المظلة في السقف، لكنه لم يرغب في طرح أي اقتراح صريح. كان الشاي الخشن العادي على قدر كاف من قتامة اللون، لكن مذاقه لم يكن قوياً.

عندما انتهى من تناول الطعام، عادت المرأة الى الحوض، احتمرت

قطعة من البلاستيك، وشرعت بدوره في تناول وجبتها. حدّث نفسه قائلاً إنها تبدو كنوع من الحشرات. أتعتزم المضيّ في العيش على هذا النحو إلى الأبد؟ لا يبدو هذا المكان من الخارج إلا كبقعة صغيرة من الرمل، ولكنك حينما تقبع في قرار الحفرة لا ترى إلاّ سماء ورمالاً تترامى بلا انتهاء. وجود رتيب تنطبق عليه عين. ربما كانت المرأة قد أمضت عمرها كله ها هنا، دونما ذكرى عن كلمة مواساة قالها لها أحد. ربما كان قلبها يخفق الآن، كقلب صبيّة في مطالع العمر، لأنهم اصطادوه، وألقوا لها به. كان ذلك أمراً داعياً لأشد مشاعر الاشفاق عليها.

أحسّ بالرغبة في أن يقول لها شيئاً، غير أنه قرر في الوقت الحاضر أن يدخّن، فأشعل سيجارة. يبدو أن البلاستيك ضرورة حياة هنا. أشعل عود الثقاب، لكن السيجارة استعصت على التدخين، اجتذب أنفاساً قوية منها، فغار خداه الى الداخل، ولكن رغم كل محاولاته لم يخرج إلا بطعم الدخان، دخان شحمي للغاية آذى لسانه، كانت السيجارة قد أصبحت عديمة الجدوى. فأفسدت حالته المزاجية تماماً، وانتزعت منه أي رغبة في محادثة المرأة.

عكفت على تنظيف الأطباق المستخدمة في الوجبة، فوضعتها على الأرضية الترابية، وكومت على مهل الرمال فوقها، ثم قالت مترددة:

ـ سأقوم حالاً بإزاحة الرمل عن السقف.

ـ إزاحة الرمل؟ آه، طيب، ذلك أمر لا يزعجني.

تساءل، دونما اكتراث، عن السرّ في أن ذلك ينبغي أن يعنيه الآن. فلم يكن يزعجه أن تتحلل الدعامات وأن يهوي السقف أرضاً.

ـ إذا كنت سأعرقلك، فهل ترغبين في انتقالي الى موضع آخر؟

ـ آسفة، ولكن هل قلت في القيام بهذا...؟

ليس هناك ما يدعوها الى التظاهر بغير ما تبطن! ألم تُظهر ولو القليل من مشاعرها الحقيقية؟ ربما كانت تحسّ في أعماقها بإحساس من قضم بصلة فاسدة. لكن وجهها خلا من أيّ تعبير فيا هي تقوم مسرعة وبحركة مألوفة بلفّ منشفة مطوية بشكل مزدوج حول الجزء الأدنى من وجهها وربطها وراء رأسها. وضعت تحت إبطها مكنسة وقطعة صغيرة من الخشب، وتسلّقت الجدار الفاصل للغرفة الصغيرة، التي لم يبق من بابها إلا نصفه.

صاح فجأة:

ـ أنا مقتنع بصراحة بأننا سنكون أفضل حالاً، لو أن هذه الدار تهاوت فقدت أشلاء!

أدهشه هو نفسه ذلك الاندفاع الشكس، وتلفتت المرأة، متطلعة إليه، بنظرة أشدّ اندهاشاً. طيب، ربما لم تكن قد تحوّلت تماماً الى حشرة.

مضى قائلاً:

ـ لا، لست غاضباً منك بشكل خاص، وإنما غضبي متعلّق بالأمر كله. لا يعجبني هذا التآمر الذي تعتقدون في إطاره أن بمقدوركم سجن إنسان. أتدركين عمّ أتحدّث؟ كلا، فلا فارق إذا كنت تدركين ذلك من عدمه. سأحكي لك قصة مسلية. اعتدت الاحتفاظ في المنزل الذي أقيم فيه بكلب عديم الشأن. كانت له فروة كثيفة الشعر، لا يتساقط منها الشعر حتى في الصيف، وكان منظره بشعره

الكثيف هذا يائساً إلى الحدّ الذي قررت معه أن أجزّ قرونه تلك. ولكن فيما كنت أوشك على إلقاء الشعر الذي قصصته ندّ عن الكلب نباح مثير للإشفاق.

التقط كومة من الشعر بفكّيه، واندفع نحو بيته الصغير. ربما كان قد أحسّ بأن الشعر جزء من جسمه، لا يرغب في أن ينفصل عنه.

راح يرصد، خلسة، التعبير المرتسم على ملامح المرأة، لكنها لم تحاول التحرك من موضعها، وظلّت منحنية على قمة الحائط الفاصل في وضع غير طبيعي، أضاف قائلاً:

- طيب، لندع الأمور في أعنّتها، فلكلّ شخص فلسفته، التي لا تروق لسواه، امضي في إهمال أصابعك حتى ينهرأ لحمها في كنس الرمل أو أيّ شيء تقومين به، لكن لا أستطيع احتمال الأمر، لقد نلت ما فيه الكفاية! بمقدوري الخروج من هنا بسهولة إذا أردت ذلك. وقد نفدت سجائري لتوّها.

- آه... أردت أن أقول... بالنسبة للسجائر... حينما يحضرون الماء فيما بعد...

قالتها مرتبكة وبصوت تعلوه رنّة خضوع.

ضحك رغماً عنه. قال:

- سجائر؟ أيجلبون لك السجائر أيضاً؟ ليست تلك هي المسألة، إنني أتحدث عن خصلات الشعر. خصلات الشعر. ألا تفهمين؟ ما أحاول قوله هو أنه لا معنى لمثل هذا الاهتمام المبنيّ بخصلة شعر.

لزمت الصمت، لم تفصح عما ينمّ عن أيّ تفسير. انتظرت لحظة،

وعندما بدا جلياً أنه كفّ عن الحديث، تحركت في تؤدة، كأنما لم يحدث شيء، وواصلت عملها الذي لم تنجزه. أزاحت الغطاء الموضوع على سقف الغرفة الصغيرة وزحفت الى أعلى، دافعة جذعها الى القمة بكوعيها، ومحرّكة ساقيها في ارتباك. شرع الرمل في التساقط في نهيرات رفيعة هنا وهناك. ساوره شعور بأن هناك حشرة غريبة داخل السقف. رمل وخشب متحلّل، لا، شكراً، فقد نال كفايته من الأشياء الغريبة!

ثم شرع الرمل في التساقط من أحد أركان السقف، متألقاً من غدران عديدة تشبه الشرائط. شكّل الهدوء الغريب مفارقة مخيفة مع عنف تدفق الرمل. سرعان ما ارتسمت الثقوب والصدوع في ألواح السقف في نقش دقيق مماثل على الحصير المصنوع من القشّ. اتّقد الرمل في أنفه وأهاج أغشية عينيه، فلاذ بالهرب من الدار.

فجأة أحسّ بأنه يذوب ذوباناً، من قدميه فما فوق، في مشهد من لهب. لكن شيئاً يشبه عموداً متطاولاً من الثلج بقي في محور جسمه. شعر بالخجل على نحو من الأنحاء. امرأة تشبه الحيوان... لا تتذكر إلا في اليوم... لا أمس... لا غد... وقد حلّت نقطة محلّ قلبها. عالم اقتنع فيه الناس بأنه من الممكن محو الشر كعلامات الطباشير من فوق سبورة. لم يكن بمقدوره في أكثر أحلامه جموحاً أن يتصوّر أن هذه النزعة البربرية لا يزال لها وجود في أي مكان من العالم. طيّب، على أية حال... إذا كان هذا مؤشراً على أنه قد شرع في استعادة رباطة جأشه والإفاقة من الصدمة الأولى فإن وخزات ضميره لا تعدّ شيئاً مبيناً.

لكنه لا ينبغي أن يهدر الوقت سدى. وبوده، لو أن ذلك كان ممكناً، أن ينتهي من الأمر قبل أن يرخي الليل سدوله. راح من بين جفنيه يقيس ارتفاع الحائط الرملي المتاوج تحت غشاء من موجات الحرارة، كالزجاج المصهور. بدا له في كل مرة يتطلع إليه أنه يزداد تسلقاً. لسوف يكون من الصعوبة بمكان أن يعارض الطبيعة ويحاول ان يجعل منحدراً، سهلاً، حاداً في استقامته، وكان كل ما يريده أن يجعل منحدراً حاداً أكثر سهولة وتسطحاً. لم يكن ثمة ما يدعو إلى التسويف.

ستكون أفضل طريقة للقيام بالأمر هي، بالطبع، تسطيحه تدريجياً من أعلى. ولما كان ذلك مستحيلاً، فليس أمامه خيار إلا أن يحفر من القاع. سيقوم أولاً بإزالة مقدار مناسب من الرمل من أسفل، وينتظر تداعي الرمال من أعلى، ثم يزيل المزيد، ومن جديد يدع القمة تسقط. قد يطيح به، بالطبع، انهيار الرمال، في غمار هذه العملية. ولكن مهما كانت كمية الرمل المتدفق، فهو ليس بالماء، ولم يقدر له ان يسمع عن شخص غرق في الرمل قط.

كان الجاروف قائماً مع صفيحتي الكيروسين، مقابل الحائط الخارجي، الذي يلتف حول الأرضية الترابية، وتألقت الحافة المستخدمة للجاروف شهباء كأنها قطعة من الخزف المكسور.

انكب فترة من الزمن عاكفاً على الحفر، وبدا الرمل قابلاً للمعالجة على نحو متزايد، ولاح أن عمله يحرز تقدماً. واكب صوت الجاروف وهو يريح الرمل وتنفسه مرور الوقت. ولكن في النهاية حل تعب متزايد بذراعيه حسب أنه قد عمل لوقت يعتد به، لكن حفره لم يبْد

له آخرو نتائج على الانطلاق. لم يتساقط من الرمل إلا القليل من فوق القمة التي كان يحفر فيها مباشرة. بشكل ما كان الأمر يجري على نحو مخالف للعملية الهندسية التي أدارها في ذهنه.

قرّر بدلاً من أن يدع القلق يتفاقم أن ينتهز فرصة استراحة يحصل عليها، وأن يختبر نظريته ببناء نموذج للحفرة. ومن حسن الحظ أن المواد كانت متوافرة. اختار بقعة في ظلّ ملتف الدار، وحفر حفرة يصل اتساعها الى نصف المتر، لكن ميل المنحدر لم يتخذ الزاوية التي توقّعها، حيث لم يبلغ إلا خمساً وأربعين درجة على أقصى تقدير. فغدت الحفرة التي احتفرها مثل إناء للمزج واسع الفوهة. وعندما حاول رفع الرمل من القاع تدفّق منحدراً على الجوانب، لكن الميل ظل على حاله. يبدو أن هناك درجة ثابتة لميل الرمل. ولاح أن قوة ومقاومة حبات الرمل على توازن تام. ويفرض أن هذا صحيح فهل للحائط الذي يحاول قهره درجة الميل ذاتها؟

لا، لا يمكن ان يكون الأمر كذلك، وربما كان وهماً، لكنه لا يمكن أن يكون حقيقياً. فحينما تنظر إلى أي سطح مائل من أسفل فمن الواضح أنه سيبدو أقلّ مما هو عليه.

ثم ألا ينبغي له أن يعتبر المسألة مسألة كم؟ فمن الطبيعي أن الضغط سيتغير مع الكميات المختلفة من الرمل. وإذا تغير الضغط فمن الطبيعي أن يحدث التغاير في توازن القوة والمقاومة. وربما كان ذلك يعتمد على طبيعة حبات الرمل. فالطين المكوّم والطين المستمد من إرساب طبيعي لها مقاومة مختلفة تماماً للضغط، وفضلاً عن ذلك فإن عليه أن يضع موضع الاعتبار مسألة الرطوبة. وباختصار، فإن قانوناً مختلفاً عن ذلك الذي طبّقه على النموذج الذي صنعه هو الذي يسري مفعوله.

رغم فشله لم تذهب التجربة سدى كلية ، فالحقيقة ذاتها القائلة بأنه قد أدرك الآن أن انحدار الحائط كان فيا يمكن أن يدعوه بوضعية الثبات الفائق كان اكتشافاً مهماً ، وبصفة عامة فليس من الصعوبة بمكان تحويل وضعية فائقة للثبات الى وضعية ثبات عادي .

إن محلولاً فائق التشبع يفرز في الحال ، وبمجرد رجة ، راسباً متبلراً ، ويتحرك باتجاه نقطة التشبع العادي .

ساوره ، فجأة ، شعور بأن أحداً بقربه ، فالتفت حوله . لم يكن قد أحسَّ بالمرأة ، التي وقفت لدى الباب محدّقة فيه بثبات . خالجه شعور بالحرج ، على نحو يمكن فهمه ، فتراجع خطوة في اضطراب ، ناظراً حوله ، وكأنه يتلمّس العون ، رفع عينيه ، وهناك عند قمة الضفة الشرقية وقف ثلاثة رجال صفاً ، وهم يتطلّعون إليه ، كانوا قد لفّوا مناشف حول رؤوسهم ، وبما أنهم لم يكونوا على قدر كبير من الوضوح ، لدى النظر اليهم بالتركيز على النصف الأعلى من وجوههم ، فإنه لم يكن واثقاً من الأمر ، لكنهم بدوا له كهول الأمس . استقام عوده في الحال . لكنه غيّر رأيه على نحو مفاجئ بالقدر ذاته ، وقرر تجاهلهم والمضيّ في عمله ، واستحثته حقيقة تعرّضه للمراقبة على المضيّ قدماً

تحدّر العرق إلى عينيه ، وتقاطر من أرنبة أنفه . ولما لم يكن هناك وقت لتجفيفه ، فقد أغمض عينيه ، وأعمل جاروفه في الرمل ، لا ينبغي له بحال أن يريح ذراعيه . فحينا يرون إيقاع عمله الذي لا يكلّ سيدركون ، ما لم يكونوا بليدي الحس ، مدى جدارتهم بالازدراء .

تطلّع إلى ساعته ، مسحها في سرواله ليزيح الرمل عن سطحها ، لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية وعشر دقائق . إنها الدقائق العشر بعد الساعة الثانية ذاتها على نحو ما كانت عليه حينما تطلّع إلى ساعته من قبل. فقدَ ، فجأة ، الثقة في انتظام عمله ، ربما كانت الشمس من وجهة نظر حلزون تتحرك بسرعة كرة بيسبول. غيّر موضع قبضته على الجاروف ، تحرك عائداً من جديد إلى الحائط ، وشرع في العمل باهتياج.

ازداد تدفق الرمال عنفاً ، على حين غرّة ، صدر صوت مكتوم ، ثم أحسَّ بضغط على صدره ، حاول أن يتطلّع ليرى ما يجري ، لكنه لم يعر حساً بالاتجاه ، كان يدرك على نحو غامض ومعتمر وجود ضوء حليبي واهن يتلاعب فوقه ، فيما هو ملقى متكوّراً في بقعة تشبه السوداء .



جابو، جابو، جابو،
أيّ صوت ذاك؟
إنه الجرس يُقرع.
جابو، جابو، جابو،
أيّ صوت ذاك؟
إنه الشيطان يوسوس.

مضت المرأة تغنّي، كأنما هي تهمس لنفسها، مكرّرة دونما كلل الأشعار ذاتها، فيما هي تزيل الطين الراكد من جرّة الماء.

عندما انتهت الأغنية، تناهى إلى سمعه صوت طحن الأرز، فتنهّد بهدوء، وتقلّب في موضعه، وراح ينتظر، وقد وتّر الترقّع جسمه. وسرعان ما جلبت المرأة حوضاً للغسيل ممتلئاً بالماء، ربما لتدلك جسمه بالاسفنجة، فقد كان جلده، الذي انتفخ من الرمل والعرق، قد أصبح ملتهباً. وقد عانى منتظراً المنشفة الرطبة الباردة.

ظلّ في الفراش منذ غُشي عليه في الرمال. وفي اليومين الأولين أخذت الحمى بخناقه، وجعل يتقيأ باستمرار، ولكن في اليوم التالي تراجعت الحمى منحسرة، واسترد شهيته نوعاً ما، وربما لم يكن العيب الرئيسي متمثلاً في الإصابة التي لحقت به، في غمار الانهيار الرملي، وإنما في الإجهاد غير المألوف الذي تعرّض له، على امتداد مثل هذا

للوقت الطويل، وسياط الشمس تنهال عليه. وعلى أيّة حال فإن الأمر في المدى الطويل لم يلحق به كبير ضرر.

ولعلّ هذا هو السبب في استعادته لصحته بمثل هذه السرعة، ففي اليوم الرابع خفّت حدّة الألم في ساقيه وخاصرتيه، إلى حدّ الزوال تقريباً. وفي اليوم الخامس لم يبق شيء من أعراض مرضه بادياً، اللهم إلا شعوراً معيناً بالتثاقل. ورغم ذلك، مكث في الفراش، موحياً لمن يراه بأنه يعاني من مرض بالغ الخطورة، ولكن كان هناك، بالطبع، دافع يحدوه إلى هذا، وحسابات يستند إليها، إذ من الطبيعي أنه لم يتخلّ للحظة عن خططه للهرب.

ـ أمستيقظ أنت؟

سألته، على استحياء، ومن ركني عينيه نصف المغمضتين لاحظ استدارة ركبتها، تحت سروال عملها. ردّ بأنّة لا تخلو من الكلمات. سألته، وهي تعتصر المنشفة منهمكة في حوض الغسيل النحاسي المتجعد:

ـ كيف حالك الآن؟
ـ طيب... تحسنت حالتي قليلاً...
ـ أتريدني أن أمسح لك ظهرك بالمنشفة؟

لم يكن يكترث على نحو خاص لترك نفسه بين يدي المرأة، حيث أن المرض هذه الذي يتعلّل به. تذكّر بغموض أنه كان قد قرأ قصيدة عن طفل محموم، رأى في المنام أنه بين طيات ورقة فضية باردة. مرة أخرى أحسّ بأن جلده، الذي ألهبته الرمال، أصبح فجأة بارداً ومتعشاً من جديد. انسلّت رائحة المرأة إلى جسمه الذي تدفّقت في عروقه الدماء، فأثارته على نحو مراوغ.

ورغم ذلك، لم يستطع أن يغفر لها ما جنته عليه. لشعوره هذا غموضاً شيء، وما فعلته شيء آخر، وكان عليه أن يميّز بينهما، على الأقلّ في الوقت الحالي. كانت إجازته ذات الأيام الثلاثة قد انقضت، ولم تعد هناك جدوى من مجالدة الواقع. كان فشل خطّته الأولى لتطبيع التحدر الرملي بتحطيم الصخرة راجعاً إلى الافتقار إلى الإعداد، والعديد من العوامل الأخرى، وكان يمكن أن تمضي على ما يرام، لولا ضربة الشمس التي أصابته. ولكن الكدح في حفر الرمال كان أكثر إرهاقاً مما تصوّر، وعليه ان يلجأ إلى أساليب عملية، وهكذا خطرت بباله فكرة ادّعاء المرض تلك.

حينما ثاب إليه وعيه، أدرك بشيء من الاستياء أنه وضع في الفراش بدار المرأة. فالقرويون، فيما يبدو، لا يعتزمون إظهار أيّ تعاطف معه. وقد فهم هذا، لكنه كانت لديه فكرته الخاصة. لقد قدروا حالته تقديراً مندنياً، ولم يستدعوا طبيباً، لسوف يجعلهم يشعرون بالأسف لهذا حقاً. سيغط في النوم ليلاً فيما المرأة عاكفة على العمل، وبالعكس فخلال النهار حينما يتعيّن عليها أن تنال قسطاً من الراحة سيقطع عليها نومها بالشكاوى المبالغ فيها من ألم مبرح ينتابه.

ـ هل تحسّ بألم؟

ـ بالطبع، أحسّ به، ولا بدّ أن عمودي الفقري قد خلع من موضعه عند إحدى فقراته.

ـ هل أدلكه لك؟

ـ يا إلهي، لا، فلا أستطيع تحمّل أن تمسّني يد أحد من غير المحترفين. والأعصاب الفقرية قاتلة. ماذا تفعلين إن متّ؟ ستكونين

من تقع المسئولية على كاهله. أليس كذلك؟ استدعي طبيباً طبيباً! آه، إنني أتألم. لا أستطيع تحمّل هذا الألم. لئن لم تسرعي فإن الأوان سيفوت!

وإذ تعجز المرأة عن تحمّل ضغط الموقف فإن الإعياء سرعان ما يحلّ بها، وتنخفض قدرتها على العمل، بل ويتعرض أمن المبنى للخطر، وسيكون ذلك أمراً له أهميته بالنسبة للقرية كذلك. وسيجد القرويون أنفسهم أبعد ما يكونون عن الحصول على شخص يساعدهم في العمل، وكلّ ما وصلوا إليه هو عقبة كأداء. وإذا لم يخرجوه، في الحال، فإن الموقف سيخرج كلية من أيديهم.

لكن هذا المشروع بدوره لم يمض بالمرونة التي توقّعها. فالليالي هنا متخمة بالنشاط على نحو يفوق النهار كثيراً... أصوات الجاروف التي كان بمقدوره سماعها عبر الجدران... لهاث المرأة... صفير وصيحات الرجال الذين يجذبون سلال رفع الرمال... الدويّ المكتوم للشاحنة ذات العجلات الثلاث، والذي يخفّف الريح من وقعه بأن تحمله بعيداً... نباح الكلاب البعيد... وكلما أوغل في محاولة الإغفاء ازدادت عصبيته، وطار النوم من عينيه.

لما كان لا يحصل على كفايته من النوم، خلال الليل، لم يكن بمقدوره تجنّب الإغفاء نهاراً. لكن ما هو أسوأ كان معرفته بأنه إذا فشلت هذه الفكرة فلا بدّ من أن تكون هناك على الدوام طريقة أخرى للهرب. وكان قد ضاق ذرعاً إلى حدّ ما بالموقف الراهن. انصرم أسبوع بالفعل، ولا بد أنه في غضون ذلك قدّم طلب لإجراء تحقيق بشأن غيابه. كانت الأيام الثلاثة الأولى إجازته الاعتيادية،

ولكن بعد ذلك سيعد غائباً بدون إذن، ومن المؤكد أن زملاءه، الذين كانوا على قدر كبير من الحساسية عادة حيال ما يقوم به الآخرون، لن يتركوا الأمور تجري على عواهنها. وربما كان واحد ممن همّهم الأمر يمضي في هذا المساء عبر متلمساً الأخبار حول منزله. ومن شأن الغرفة التي يستأجرها، وهي عارية من الأثاث تقريباً، أن تشي بغيابه، إذ تبدو موصدة، والروائح تنبعث منها. وربما ساورت الزائر، على نحو غريزي، مشاعر الغيرة من الرجل المحظوظ، الذي تحرّر من هذه الترعة، التي تشبه الحفرة. وفي اليوم التالي ستتهامس الألسن بوشايات، تصحبها تقطيبات للجبين، وتعبيرات شتى عن الدهشة. وسيكون هذا أمراً طبيعياً، بل إنه هو نفسه ما كان ليتوقّع أن يكون لهذه العطلة الخارجة عن المألوف أيّ تأثير مخالف لهذا على زملائه. ذلك أنك نادراً ما تلقى إنساناً شديد الغيرة كالمدرّس، فالتلاميذ يجتازونه عاماً بعد الآخر، كأنهم نهر متدفّق، يندفعون إلى البعيد، ويبقى المدرس وحده كأنه صخرة دفنت غائرة في قاع التيار. ورغم أنه قد يحدث الآخرين بآماله إلا أنه هو نفسه لا يعلم بتحقيقها، وهو ينظر إلى نفسه بصفاته شخصاً لا قيمة له، وإما أن يقع في إسار وحدة مازوكية ضارية، أو إذا أفلت منها، أن يصبح موسوساً وشديد الورع بصورة مطلقة، يتعجب على الدوام غرائب ما يأتيه الآخرون، ويغرق في الحنين إلى الحرية والحركة حتى ليصل الأمر به إلى كراهية الناس. هل كان اختفاؤه بمحض الصدفة؟ لا، ولو أنه كان حادثاً لترددت أنباء عنه. طيب، أهو انتحار إذن؟ لكن هذا من شأنه أن تتحرّى الشرطة الأمر. والانتحار سيكون أمراً مستحيلاً، فلا ينبغي عليك ان ترفع من قدر الفتى الأحمق. نعم، حقاً، لقد

اختفى مختاراً، فليست هناك حاجة لمواصلة البقاء كالجذر ها هنا. ولكن سرعان ما يوشك أسبوع على الانقضاء. إنه حقاً مثير للرعب، ولست أدري حقيقة ما يمكن أن يدور بخلده.

كان من المشكوك فيه ما إذا كانوا يستشعرون القلق عليه مخلصين، ولكن فضولهم الذي يدسّ أنفه في كل شيء كان مستثاراً على الأقل كأنه ثمرة برسيمون تنتظر القطاف. وبناء على هذا فإن الخطوة التالية ستتمثل في زيارة الناظر للشرطة واستفساره عن استمارات طلب إجراء تحقيق، وتحت ملامحه الجادة سيخفي تماماً سروره المتدفع بداخله. الاسم الكامل: نيكي جومباي. السنّ واحد وثلاثون عاماً. الطول خمسة أقدام وخمس بوصات. الوزن: مائة وأربعون رطلاً. الشعر: خفيف قليلاً، ناحل إلى الوراء مباشرة، لا زيت للشعر. قوة الإبصار. العين اليمنى. عشرون على ثلاثين، اليسرى: عشرون على عشرين. لون البشرة: يميل إلى السمار. الملامح: وجه مستطيل، عينان منكستان قليلاً، أنف أقطس، فك مربع، ولا علامات فارقة أخرى اللهم إلا شامة بارزة أسفل الأذن اليسرى. فصيلة الدم: إيه. بي. يتحدث بتثاقل وتلعثم. منطو على نفسه، عنيد، ليس مجرداً من البراعة بشكل خاص على الصعيد الاجتماعي. الملابس: ربما كان يرتدي زياً يتلاءم مع هواية جمع الحشرات. الصورة المرفقة التي يبدو فيها الوجه كاملاً التقطت قبل شهرين.

ولا بد أن لدى القرويين بالطبع نوعاً من الاجراءات المضادة، إذ أنهم واتتهم الجرأة على توريط أنفسهم في مثل هذا المشروع المجنون. سيكون خداع شرطيين ريفيين أمراً يسيراً، ولا بد أنهم قد اتخذوا بعض الاجراءات الاحتياطية لمنعها من العودة بشأن بعض الأمور التي

لا أهمية لها. ولكن هذا النوع من سائر الدخان التمويهية لا يكون فعالاً، إلا طالما كان هو في حالة صحية طيبة وقادراً على العمل في جرف الرمال، أما إخفاء رجل في حالة صحية بالغة السوء ظل راقداً في الفراش على حاله طوال أسبوع فأمر لا يستحق عناء المخاطرة. وإذا ما وصلوا إلى أنه لا طائل وراءه، فسيكون من الخير لهم أن يتخلّصوا منه في الحال قبل أن يصبح الأمر حافلاً بالأخطار. بمقدورهم عند المرحلة الراهنة تلفيق رواية يسردونها. ربما يقولون إن توهّمات غريبة تملّكت ناصيته، وهي توهّمات سبّبتها الصدمة، بعد أن سقط من تلقاء ذاته في الحفرة، وسيكون هذا التفسير مقبولاً على نحو يفوق كثيراً شكاواه الخيالية من أنه تمّ الإيقاع به وسجنه.

صاح ديك، في مكان ما، وخار ثور بصوت حاد. ولكن في التجويف الرملي لم يكن هناك اتجاه ولا مسافة. كان العالم العادي المألوف هناك في الخارج، حيث يلهو الأطفال، فاذفين الأحجار بأرجلهم على الطرق، وحيث تعلن الديكة نهاية الليل في الوقت الصحيح. كانت ألوان الفجر قد شرعت في الامتزاج بحرف الأرز المطهوّ.

راحت المرأة تنظّف جسمه بعناية. وبعد مسحه بخشونة بمنشفة مبللة، مصت تدلكه كأنها تصقل زجاج نافذة، وهي تلوي المنشفة بإحكام إلى أن أصبحت مثل قطعة من الصوف. وإضافة إلى أصوات الصباح، جلب له الإحساس الإيقاعي بالتدليك شيئاً فشيئاً إحساساً لا يقاوم بالنعاس.

فجأة تثاؤباً بدا أنه انبعث عنوة من أعماقه، وهو يقول:

ـ بالمناسبة... لقد مرّ وقت طويل... وأودّ لو قرأت صحيفة. فما رأيك...؟ هل تعتقدين أن هناك سبيلاً للحصول على إحداها؟

ـ طيب... سأسأل... فيما بعد.

أدرك تماماً أنها تحاول أن تظهر بمظهر المخلصة. وكان حساساً على نحو جليّ لخوفها من أن تؤذي مشاعره، وهو الخوف الذي تجلّى في نغمة صوتها الحيّية. لكن ذلك أثار ضيقه. هل سئل حقاً؟ أليس من حقه أن يقرأ صحيفة إذا ما أحبّ ذلك؟ ثني يديها بعيداً عنه، مباعداً ما بينه وبينها، وقد حدته رغبة قوية في أن يقلب حوض الغسيل ومحتوياته.

ولكن الاستسلام للغضب عند هذه المرحلة من شأنه أن يفسد الأمور. فالمريض الذي أخذ المرض بخناقه لا ينفعل على هذا النحو بسبب صحيفة. لكنه كان يرغب بالقطع في أن يطالع صحيفة. وإذا لم تكن هناك مناظر طبيعية يسرح النظر فيها، فمن الطبيعي أن يرغب في أن يرى على الأقل صوراً لها. وكان قد قرأ في عدة كتب كيف أن رسم المناظر الطبيعية في ريف فقير على صعيد مناظر الطبيعة، وكيف أن الصحف قدمت من مناطق صناعية لا تعرف العلاقات الإنسانية. وفضلا عن ذلك، فقد يواتيه الحظ فيجد إعلانات عن أشخاص مفقودين. أو ما هو أفضل من ذلك، قد يعثر على تقرير عن اختفائه في ركن من أركان الأعمدة الاجتماعية. والقرويون لا يمكن، بالطبع، أن يتوقع منهم أن يمرّروا له من تلقاء أنفسهم الصحيفة التي تحمل تقريراً كهذا. وعلى أية حال، فالصبر هو أهم شيء الآن.

ومن المؤكد أن ادّعاء المرض لم يكن بالأمر الطريف. فهو يشبه الإمساك بنابض مضغوط في قبضة يدك، لا يمكنك احتماله إلى أجل غير مسمّى. وليس بمقدوره أن يدع الأمور تجري في أعنّتها، وإنما يتعيّن عليه أن يجعلهم يدركون حقاً مدى مسؤوليتهم عنه. سيحرص منذ اليوم على ألاّ يغمض للمرأة جفن!

(لا تنم... ! لا ينبغي أن يأخذك النوم)

تمطّى، وتثاءب طويلاً بصوت مسموع.

- ١٢ -

مضى يرتشف، تحت الظلة التي نصبتها له المرأة، حساءً حريفاً به قطع من عشب بحري. وبقي راسب رملي في قاع القدح.

كفّت ذاكرته عن العمل تماماً، وكانت عند ذاك قد تشابكت مع حلم عند تقبل الوطأة. كان يمتطي في الحلم صهوة عصا لتناول الطعام عتيقة ومستخدمة، يحلق بها عبر شارع مجهول. ولم يكن ركوب العصا سيئاً، وإنما يشبه ركوب دراجة بخارية، لكنه حينما قلّل انتباهه فقد، على حين غرّة، قدرته على التحليق في الهواء. اكتسى الشارع بلون أحمر كئيب وبدا قاب قوسين أو أدنى. وتمايل في البعيد لون أخضر مغتصَب. أثار قلقه شيء ما في تركيبة الألوان. أخيراً، وصل إلى مبنى خشبي طويل، يبدو كالكنيسة. انتشرت في الهواء رائحة صابون

رخيص. ارتقى الدرج، جاذباً إلى أعلى سرواله الذي بدا أنه يوشك على الانزلاق، بلغ غرفة خاوية لا تضم إلا مائدة طويلة، ضيقة. تحلّق حولها حوالى عشرة من الرجال والنساء، عاكفين في حماس على لعبة ما. كان اللاعب الجالس في الصدارة يوزع الأوراق من مجموعة للعب الورق. في نهاية الدور، أعطاه موزّع الورق فجأة الورقة الأخيرة، وصاح به، التقط الورق راغماً، وتطلع إليها، لم تكن ورقة لعب على الإطلاق. وإنما رسالة. كانت الرسالة توحي بملمس غريب، ليّن. حينما ضغط عليها بأصابعه انبجس الدم منها، فصرخ، واستيقظ من نومه.

أعاق غشاء قاتم، شبه ضبابيّ، رؤيته. انبعثت ضجة متقطعة صادرة عن ورق جاف، فيما كان يحرك جسمه. كان وجهه مغطى بصحيفة مفتوحة. اللعنة! كان قد غرق في النوم مرة أخرى. سقط غطاء رمليّ من سطح الصحيفة، حينما نحّاها جانباً. يبدو من كمية الرمل أن وقتاً ليس باليسير قد انقضى منذ أغفى. أفصح له ميل أشعة الشمس المخترقة للصدوع في الجدار بأن النهار في حوالى منتصفه. ولكن أي رائحة تلك؟ مضى موغلاً في تساؤله. حبر جديد؟ حدّث نفسه بأن ذلك مستحيل، ومع ذلك ألقى نظرة على تاريخ صدور الصحيفة. الأربعاء الموافق السادس عشر. إنها صحيفة اليوم حقاً! أمر لا يصدّق، لكنه حقيقيّ. لا بد، إذن، أن المرأة قد نقلت طلبه للقرويين.

جدول أعمال موسع للجنة اليابانية ـ الأميركية المشتركة:

كيف أفلحت المرأة بحق السماء في وضع يدها على هذه الصحيفة؟ أيمكن أن يكون صحيحاً أن القرويين بدأوا يحسّون بأنهم مدينون

له بشيء ما؟ وحتى إذا كان الأمر كذلك، وفي ضوء الحكم على الكيفية التي سارت بها الأمور حتى الآن، فإن كل اتصال بالعالم الخارجي يتوقف بعد الإفطار. فهل للمرء طريقة خاصة في الاتصال بما خارج القرية لم يحط بها علماً بعد؟ أو إذا لم يكن الأمر كذلك هل خرجت بنفسها واشترت الصحيفة؟ من المؤكد أنه إما هذا أو ذاك.

إجراءات متشددة لحل اختناقات المرور:

ولكن مهلاً لحظة! على افتراض أن المرأة قد خرجت... ليس من المتصور أن تكون قد استطاعت القيام بذلك دون سلّم الحبال. لم يدر كيف أفلحت في القيام بذلك، لكن شيئاً واحداً كان مؤكداً... أن سلّم حبال قد جرى استخدامه، ومن المألوف أن يحلم السجين بالحرية، ولكن كيف استطاعت المرأة، وهي من سكان القرية، أن تحتمل فقدان حريتها في التحرك حيثما شاءت؟ لا بد أن نزع سلّم الحبال كان إجراءً مؤقتاً يستهدف الاستمرار في حبسه. ولئن كان الأمر كذلك، ولو أنه استطاع مواصلة إبقائهم على غير حذر منه، فإن الفرصة ذاتها قد تتاح يوماً ما.

اكتشاف عنصر فعال في البصل لعلاج إصابات الإشعاع:

بدا أن أسلوبه القائم على ادعاء المرض قد أعطى مردوداً غير متوقع. وقد أجادوا التعبير عن هذا بقولهم: «من تأنّى نال ما تمنّى». لكنه، بشكل ما، لم يستجب لهذه الفكرة، ففي أعماقه كان شيء ما لا يزال بعيداً عن الرضا، وربما كان الأمر عائداً لذلك الحلم القريب المقلق على نحو رهيب. راوده شعور بعدم الارتياح بصورة غريبة إزاء

الرسالة الخطرة. ولكن أكانت خطرة؟ وما الذي كانت تعنيه كائناً ما كان؟

غير أنه لم يكن هناك طائل من وراء القلق في كلّ مرة يجلم بشيء ما. وعلى أية حال فإن عليه أن يمضي قدماً بما شرع فيه.

كانت المرأة تغطّ في نومها إلى جوار عتبة الجزء المرتفع من أرضية المنطقة المحيطة بالموقد. راحت تتنفّس بهدوء، وهي راقدة ملتفّة كالكرة، محتضنة ركبتيها كعهدها دائماً. كانت قد ألقت كيمونو صينياً على جسمها. فبعد ذلك اليوم الأول كفّت عن الظهور عارية أمامه، لكنها ربما كانت عارية تحت الكيمونو كذي قبل.

تطلّع مسرعاً إلى صفحة الاجتماعيات والأعمدة المحلية. وبالطبع، لم يكن هناك تقرير عن اختفائه، ولا إخطار عن شخص غائب. ولكنه كان قد توقّع ذلك، ولذا لم تثبط عزيمته بشكل خاص، نهض بهدوء، وخطا على الأرض المتربة، ولم يكن يرتدي إلا سروالاً تحتياً، متوسّط الطول، منتفخ الشكل، من الحرير الصناعي، وجذعه عار تماماً. وكان ذلك هو أكثر السبل التي يمكن أن تبعث على الارتياح. تراكم الرمل حول خصره حيث أحكم ربط حزام السروال، وكان الجلد ملتهباً.

وقف عند المدخل، وتطلّع إلى الحوائط الرملية، فانغرس الضوء في عينيه، وراحت الأشياء المحيطة به تفتقد إلى حد الاصفرار. لم يكن ثمة أثر للإنسان، أو لسلّم من الحبال، بدا ذلك أمراً طبيعياً. ورغم ذلك، فقد دقّق في الأمر، لمجرّد التأكد. لم يكن هناك حتى مجرّد مؤشر لتدلية الحبل. بالطبع، مع وجود ريح كهذه لن يستغرق الأمر خمس

دقائق، لكي تختفي المؤشرات. وخارج الباب مباشرة كان سطح الرمل يقلّب باستمرار إلى أسفل، كأنما كان هناك تيار ما.

دلف إلى الداخل، واضطجع. كانت ذبابة ترفرف بأجنحتها في المكان. كانت ذبابة فاكهة صغيرة ذات لون أحمر ورديّ فاتح. ربما كان ثمة شيء قد فسد. بعد أن بلّل حلقه بالماء من الغلاّية الملفوفة بالبلاستيك الموضوعة قرب وسادته، خاطب المرأة قائلاً:

ـ أتسمحين بالاستيقاظ لحظة؟

وثبت من موضعها مرتجفة، فانحسر الكيمونو الصيفي حتى خصرها. برزت العروق مزرقة في نهديها المرتخيين وإن بقيا على اكتنازهما. حلّ بها اهتياج يشوبه الارتباك، فسارعت بإحكام الكيمونو حولها. ارتسمت نظرة ذاهلة في عينيها، ولم يبد عليها أنها استيقظت تماماً. تردد، هل ينبغي أن يسألها الآن عن السلّم؟ هل ينبغي أن يرفع صوته غاضباً؟ أم ينبغي عليه أن يتبنّى نغمة معتدلة مستفهمة؟ لو أن هدفه كان الحيلولة دون توهمها، فمن الأفضل، إذن المضي في الأمر بعدوانية بالغة. إنه لم يصب الهدف بمرضه المدّعى، ذلك أن سلوكه لم يكن سلوك رجل أصيب بتقلقل في فقرة بعموده الفقري. وما ينبغي عليه القيام به هو جعلهم يدركون أنه لم يعد ذا فائدة فيما يتعلّق بالعمل... في كافة الأحوال، ودفعهم إلى تقليل يقظتهم في مراقبته، وقد لانت حركتهم إلى حد إعطائه صحيفة، وعليه أن يحطّم مقاومتهم بصورة أكبر.

ولكنه سرعان ما أصيب بخيبة أمل في توقّعاته.

ـ لا، بالطبع، أنا لا أخرج. وتصادف أن الرجال من المزرعة

التعاونية كانوا يسلمون مادة لحفظ الخشب سبق أن طلبتها منذ بعض الوقت، وأتيحت لي الفرصة للطلب منهم. ففي القرية لا تحصل على الصحف إلا أربعة أو خمسة دور تقريباً، وعليهم المضيّ حتى المتجر في البلد والقيام بشرائها.

لم يكن وقوع الأمور على هذا النحو بالأمر المستحيل. وكان الأمر بالأحرى أشبه بأن يسجن المرء في زنزانة لها قفل بلا مفتاح. فإذا كان أبناء المنطقة أنفسهم يتعيّن عليهم تحمّل السجن، فإن الحائط الرملي لا يكون أمراً سهلاً بالنسبة له. حلّ اليأس به جنباً إلى جنب مع الإصرار.

ـ هذا مدهش! تلك دارك؟ أليست كذلك؟ وأنت لست بالكلية وينبغي أن يكون من اليسير عليك أن تذهبي وتجيئي مثلما يحلو لك. أليس كذلك؟ أم أنك أتيت شيئاً مستهجناً فلم يعد بمقدورك أن تخرجي على أبناء القرية بوجهك؟

اتسعت عيناها من فرط الدهشة، وبلغ من قوة التوهج في النظرة أنها بدتا حراوين مختنقتين بالدم.

ـ كلا، بالتأكيد! من السخف الاعتقاد بأنني لست أجرؤ على الخروج إليهم.

ـ طيب، ليس هناك سبب يدعوك لكل هذا الجبن.

ـ ولكن ليس هناك أيّ سبب يدعوني للخروج!

ـ تستطيعين على الأقل القيام بجولة.

ـ جولة؟

ـ نعم، جولة. ألا يكفي أن تقومي بجولة حول المنطقة فحسب؟

أعني أنك اعتدت القيام بجولة حينما كنت ترغبين في ذلك قبل مجيئي. أليس كذلك؟

- بلى. لكنني سئمت السير بلا سبب محدد.

- لست أمزح. سلي نفسك! ينبغي أن تفهمي. حتى الكلب سيجنّ جنونه إذا حُبس في قفص للحيوانات.

قاطعته، فجأة، بصوتها الرتيب، المنكفئ على ذاته، قائلة:

- لكنني قمت بجولات، حقاً، اعتادوا جعلي أسير كثيراً، حتى جئت إلى هنا. اعتدت حمل طفل معي وقتاً طويلاً، فسئمت حقاً من السير بأسره.

ذهل الرجل، يا لها من طريقة غريبة في الحديث حقاً! عجز عن الرد عندما قاومت على ذلك النحو.

نعم، تذكّر، حينما حلّ الدمار بكل شيء قبل عشر سنوات، كان الجميع يتوقون يائسين إلى ألا يضطروا للسير. والآن هل اكتفوا بهذا التحرّر من السير؟ ورغم ذلك، فحتى الطفل الذي يرغب يائساً في الانطلاق في نزهة خلوية أن ينخرط في البكاء حينما يضلّ الطريق.

غيّرت المرأة، فجأة، لهجتها، وقالت:

- هل أنت على ما يرام؟

كفّ عن الظهور بمثل هذا الغباء! سيطر عليه الغضب، كان يريد أن يجعلها تقرّ بذنبها، حتى ولو اضطر لانتزاع هذا الإقرار منها انتزاعاً. وقف شعر رأسه حيال الفكرة ذاتها، وأحسّ بجلده خريشاً كأنه ورقة جافة. بدت كلمة «جلد» وكأنها ثمة جسر اتصال من

الأفكار بكلمة «قوة». فجأة أصبحت المرأة صورة ظلية انتزعت من خلفيتها. إن الرجل في العشرين من عمره تثيره الفكرة جنسياً، أما الرجل الأربعيني فيستثار جنسياً عند سطح جلده. أما فيما يتعلق بالرجل الثلاثيني فإن المرأة التي لا تعدو أن تكون صورة ظلية هي الأكثر خطورة بالنسبة له. بمقدوره أن يعانقها بالسهولة التي يحضن بها ذاته. أليس ذلك بمقدوره؟ ولكن خلفها هناك مليون عين. فما كانت إلا دمية تتحكم بها خيوط الرؤية. وإذا ما عانقها فإنه سيحل عليه الدور بعدها في التحكم به. في الحال ستنكشف الكذبة الكبيرة، التي قال في إطارها إن عموده الفقري قد أصيب بالتواء، لتظهر على حقيقتها. لم يكن بمقدوره احتمال وضع حدّ لحياته، حتى في مكان مثل هذا.

سارت المرأة بشكل جانبي حتى بلغته، وضغطت وكبتاها على وركيه من الخلف. شرعت رائحة راكدة لماء سخنته الشمس، تنبعث من فمها، أنفها، أذنيها، إبطيها، وجسمها بأسره، منتشرة في الغرفة من حوله. بدأت المرأة، ببطء، وفي تردد، تمرر أصابعها القاسية صعوداً وهبوطاً على عموده الفقري، فتصلّب جسمه.

إستدارت الأصابع، فجأة، حول خاصرته. فندّت عن الرجل صرخة:

- إنك تدغدغين!

ضحكت المرأة، وبدا أنها تداعبه، أو أنها خجل. كان ذلك مفاجئاً تماماً. لم يستطع أن يصدر حكماً في هذا الشأن حقو الخاطر. فإذا كان تصدها حقاً؟ وهل فعلت ذلك عمداً أم أن أصابعها

انزلقت دونما قصد؟ حتى لحظات قلائل كانت تفتح عينيها بكل قوتها محاولة الاستيقاظ. وتذكر أنها في الليلة الأولى كذلك ضحكت بذلك الصوت الغريب، حينما وخزته في خاصرته، وهي تمرّ به. راح يتساءل عما إذا كانت تقصد أي شيء بالتحديد بمثل هذا السلوك.

ربما لم تصدق حقاً تظاهره بالمرض، وقامت باختبار صدق شكوكها. ذلك أمر وارد. لم يستطع الخروج من حذره. فقد كانت فتنتها مثل نبات آكل اللحوم، مزوّداً، عمداً، برائحة الشهد الحلوة. وهي ستعمد أولاً إلى غرس بذور فضيحة، بدفعه إلى القيام بتصرّف جنسيّ، ثم تحلّل قيود الاهتزاز بديه وقدميه.

- ١٣ -

كان يذوب مثل الشمع، وقد امتلأت ساقاه بالعرق المفرز. ولما كانت ساعته قد توقّفت عن العمل، فلم يكن متأكداً من الوقت على وجه التحديد. وربما كان ضوء النهار في سمت قوته خارج هذه الحفرة الممتدة ستين قدماً، لكن القاع اكتسى بنور الغسق.

راحت المرأة تغطّ في نومها، ربما كانت تحلم، فقد كانت ذراعاها وساقاها في حالة انتفاض عصبي. كان قد حاول أن يقضّ مضجعها، لكنه أخفق في ذلك. أما فيما يتعلق به فقد نال حاجته من النوم.

انتصب واقفاً، وترك الهواء يلفح وجهه. لقد سقطت المنشفة عن

وجهه، فيما يبدو، حينما تقلّب في نومه، ولذا علق الكثير من الرمل بمؤخرتي أذنيه وحول أنفه وفي ركني شفتيه، حتى استطاع بإزاحته بتحريكه وإبعاده. وضع بعض الأدوية على عينيه، وغطّاهما بطرف المنشفة، كرّر ذلك مرات عديدة، وفي نهاية المطاف استطاع فتحهما بصورة عادية. لكن أدوية الصبي ستنفد خلال يومين أو ثلاثة. ولهذا السبب وحده أراد إنهاء الأمور على وجه السرعة. كان جسمه ثقيلاً كأنه يرقد على فراش مضغوط في أردية من حديد. بذل جهداً لتركيز بؤرة عينيه، وفي الضوء الواهن الذي تسلّل عبر الباب تبين بعينين غشاهما الدمع ما طبع على الصحيفة، وكأنه قوائم ذبابة اخترقها الموت.

كان يتعيّن عليه بالفعل أن يدع المرأة تقرأ له الصحيفة خلال النهار، ومن شأن هذا أيضاً أن يقطع عليها نومها، مما يجعله يصيب عصفورين بحجر واحد. كم كان سيئاً أنه غرق في النوم أولاً، لقد حاول أن يحقق شيئاً ما، لكنه قلب الأمور رأساً على عقب.

سيلمس من جديد الليلة ذلك الأرق الذي لا يطاق. حاول أن يعد عائداً نحو البداية من رقم المائة مواكباً تنفّسه. راح يتتبع في عناء بخاطره الطريق الذي اعتاد أن يقطعه من مسكنه إلى المدرسة. حاول أن يعدد أسماء كل الحشرات التي عرفها، جامعاً إياها في مجموعات على أساس العائلة والنظام التراتبي. ألفى نفسه في حالة أكثر تفاقماً من الضيق من ذي قبل، عندما أدرك أن كل تلك الحيل ليس لها تأثير على الإطلاق. كان بمقدوره سماع صوت الريح، وهي تكنس حافة الحفرة... وقع الجاروف وهو يقضم قاع الرمل الرطب... نباح الكلاب البعيدة، غمغمة الأصوات البعيدة، وهي تتذبذب راقصة مثل

لب شمعة. كان الرمل المنهال يحاكي مبرداً عند أطراف أعصابه، ومع ذلك فينبغي أن يصبر عليه.

طيب، شكل ما سيأتي للأمر. لم يكن الضوء الأزرق الآخذ في البرودة ينزلق من حافة الحفرة، حتى، انقلب كل شيء رأساً على عقب، واشتبك في معركة مع النعاس، الذي راح يمتصه، كما تمتص الإسفنجة الماء. وطالما أن هذه الحلقة الجهنمية لم تتكسر عند إحدى نقاطها، فإن ساعته لن تكون وحدها هي التي توقفت، وإنما الزمن ذاته هو الذي تجمد، فيما كان يختفي، على يد حبات الرمل.

كانت الصحيفة لا تزال على حالها. وراح يتساءل عما إذا كان هناك هزة تمتد لمدة أسبوع حقاً، إذا لم يكن هناك جديد يمكن العثور عليه ولئن كانت تلك نافذة على العالم فإن زجاجها كان معتماً.

رشاوى ضريبة الشركات تصل إلى مسؤولي المدينة. المدن الجامعية تصبح مراكز استقطاب صناعية. إيقاف العمليات، المجلس العام للنقابات يجتمع قريباً - الرأي سيعلن للجمهور. أم تخنق طفليها، وتحتسي السم. هل تعني سرقات السيارات العديدة أن نمط الحياة الجديد يلد جريمة جديدة؟ فتاة مجهولة الهوية تجلب الزهور إلى نقطة الشرطة لمدة ثلاث سنوات. أوليمياد موسكو يلقي المتاعب. مفتّع يطعن فتاتين مرة أخرى اليوم. جامعيون يتسممون من جراء الحروب المتوزمة. أسعار البورصة تلفحها رياح الخريف. تيرو ساكس وبلوز جاكسون الشهيران يصلان إلى اليابان. اضطرابات في اتحاد جنوب أفريقيا مرة أخرى - سفوط

٢٨٠ ضحية. مدرسة لصوص مختلطة لا تتقاضى مصاريف. إصدار شهادة النجاح لدى إتمام اجتياز الامتحان بنجاح.

لم يكن هناك خبر واحد له أهميته. برج من الوهم، بأسره، مقام بأحجار وهمية وملىء بالثقوب. لو أن الحياة كانت تتألف من الأمور المهمة فحسب لكانت بيتاً خطيراً من الزجاج حقاً، لا يتعيّن التعامل معه دونما اكتراث. ولكن الحياة اليومية كانت كالمتاريس تماماً. وهكذا فإن الجميع، إذ يعرف عبث الوجود، يضبط بوصلته على بيته.

فجأة وقعت عيناه على خبر مدهش:

«في حوالي الساعة الثامنة من مساء الرابع عشر من الشهر الجاري وفي موقع بناء تابع لشركة شرقي آسيا للإنشاءات، يقع في ٣٠ يوكوكاوارتشو أصيب باشيرو تسوتومو، سائق شاحنة جرافة بشركة هينوهارا - ٢٨ عاماً - بجروح خطيرة حينما دفن تحت إنهيار رملي. وقد نقل إلى مستشفى قريب، لكنه لفظ أنفاسه الأخيرة بعد وقت قصير من وصوله إليه. وجاء في التحقيق الذي أجرته شرطة يوكوكاوا أنه يبدو أن سبب الحادث هو نقل قدر أكثر مما ينبغي من الرمل من الجزء الأسفل من ركام يرتفع لثلاثين قدماً كان يجري نقله».

آه! هذا هو، دون شك، النبأ الذي قصد أبناء القرية أن يقرأه، فهم لم يستجيبوا لطلبه عبثاً. وكان تصرفاً جديراً بالإطراء أنهم لم يحيطوا هذا الجزء بالحبر الأحمر. أعيد إلى ذاكرته السلاح الخطير المعروف باسم الهراوة المبطنة، وهذه الهراوة يتمّ صنعها بوضع الرمل في شيكارة رملية خاصة، تصنع من الجلد، ويقال إنها تتمتع بقوة ضاربة، يمكن أن توضع موضع المقارنة مع القوة الضاربة بقضيب من الحديد أو

الرصاص. وأياً كان تدفق الرمل فإنه يظل مختلفاً عن الماء، فبمقدور المرء أن يسبح في الماء، لكن الرمل يمكن أن يطمر رجلاً ويسحقه حتى الموت. بدا كما كان قد أساء تقدير الموقف.

- ١٤ -

احتاج لبعض الوقت، ليمعن فكره، قبل أن يصل إلى قرار، بشأن أسلوب جديد للتحرك. لا بد أن أربع ساعات قد انقضت منذ خرجت المرأة لإزالة الرمال. كانت المجموعة الثانية من رافعي السلال قد أتمت العمل المسند إليها، وأخذت في العودة باتجاه الشاحنة ذات العجلات الثلاث. بعد أن تيقن، مرهفاً السمع، من أن الرجال ليسوا في طريقهم إلى العودة مجدداً، نهض في هدوء، وارتدى ملابسه. ولما كانت المرأة قد حملت المصباح معها، فقد تعين عليه القيام بكل شيء بالاستعانة بحاسة اللمس. ألفى حذاءه ممتلئاً حتى حافته بالرمل، ودسّ ثنيتي طرفي سرواله في جوربيه، ثم أخرج طاقيه ودفعها في جيبه. قرر أن يلملم معدات جمع الحشرات الخاصة به معاً قرب الباب، بحيث يستطيع العثور عليها بسهولة. ولم تكن به حاجة إلى التزام الحذر، فما يتعلق بوقع خطاه، وذلك بفضل السجادة الكثيفة من الرمل الممتدة على الأرضية.

انشغلت المرأة كلية بعملها. بدت حركاتها لينة، فيما هي تدفع بالجاروف في الرمال، وتنفسها قوياً ومنتظماً. راح ظلّها المتطاول

يتراقص حول المصباح الموضوع عند قدميها. أجبر الرجل، الذي اختفى عند ركن المبنى، نفسه على التنفس بهدوء. قبض بيديه في إحكام على طرفي منشفة، وجذبها حتى التوتّر، بعد أن يصل إلى المد العاشر سيندفع لينجز الأمر، ويتمنّى أن يقع هجومه في اللحظة التي تنحني فيها لترفع كومة الرمل من موضعها بالجاروف.

لم يكن بمقدوره، بالطبع، الادّعاء بأنه ليس ثمة خطر على الإطلاق. فلا أحد يمكنه التنبؤ بما سيقع، إذ قد يتغيّر موقفها فجأة في غضون نصف الساعة. فعلى سبيل المثال، هناك ذلك الموظف الحكومي. كان العجوز القروي قد حسب، في البداية خطأ، الموظف الحكومي، وأبدى أمارات الحذر البالغ. لا بد أنهم كانوا يتوقّعون أن يقوم الموظف الحكومي بمهمة تفقد في المستقبل القريب. وإذا كان الأمر كذلك فإن القرية ستنقم على ذاتها فيما يتعلّق به، بل وقد يتوقّف القرويون عن احتجازه وإخفاء وجوده، ولكن للسبب نفسه لم يكن هناك ضمان ألا يمتد النصف ساعة إلى نصف عام، إلى عام كامل، بل وإلى ما يتجاوز ذلك. كان كل من الاحتمالين يعادل في قوته الآخر، ولم يكن بالتأكيد على إستعداد لخسارة الرهان.

عندما اعتبر أن الخلاص قد يكون قاب قوسين أو أدنى منه، أدرك أن الأمور ستكون أكثر يسراً بالنسبة له إذا استمر في ادّعاء المرض. لكن تلك كانت حقاً النقطة التي أثارت حيرته. إنه يحيا في ظل حكومة دستورية، ومن ثم فمن الطبيعي أن يتوقع المساعدة. والناس الذين يختفون في ضباب من الغموض ويظلّون مجهولي الإقامة غالباً ما يريدون هذا على وجه الدقة، وطالما أن القضية لا تبدو ذات طبيعة إجرامية فإنها يعهد بها إلى السلطات المدنية لا القائمة على

مكافحة الجرائم، وهكذا فإنه حتى الشرطة ليس بمقدورها التوغل في الأمر.

ولكن في حالته كان الموقف مختلفاً تمام الاختلاف، وكان يعدّ يده بائساً من طلب النجدة. وكل من يرى غرفته الخاوية، سيفهم توّاً ما وقع حتى إذا لم يره أو يتلقى كلمة على نحو مباشر منه. والكتاب الذي لم يفرغ منه ووضعه مفتوحاً على الصفحة التي كان يقرأها حينما تركه... النقود ذات الفئات الصغيرة التي دسّها في جيب ملابس مكتبه... دفتر توفيره، الذي لا يحمل أي أثر لعمليات سحب مبالغ حديثة، على الرغم من المبلغ الصغير الباقي في حسابه... صندوقه الذي يضمّ الحشرات المارّة بمرحلة التصبير، والذي لم ينته من ترتيبه. الظروف الذي يحمل خاتم دفعه قيمة البريد والذي يضم أمراً على بياض للحصول على زجاجة جديدة لجمع الحشرات، والذي وضع جانباً في انتظار إرساله بالبريد - كل هذا فقد الانقطاع في مسيرته، فكل شيء يشير إلى نيته مواصلة العيش. وليس بمقدور الزائر إلا أن يصغي للصوت الكئيب المنبعث من الغرفة.

طيب... لولا تلك الرسالة... لولا تلك الرسالة الحمقاء فحسب. لكن ذلك هو بيت القصيد، هكذا كان. لقد قال الحقيقة في حلمه، أما الآن فهو يراوغ نفسه. لماذا؟ لقد انتحل ما يكفي من الأعذار. والأخبار المفقودة لم يعد لها وجود، ومنذ زمن بعيد اهتزّ عنقه بيديه.

كان قد التزم موقفاً غامضاً، على نحو غير معقول، بالنسبة لإجازته هذه، فلم يفه بحرف عن مقصده لأيّ من زملائه. وهو لم يمض فحسب دون أن يحادث أحداً وإنما جعل الغموض نصب عينيه. ولم تكن هناك وسيلة أكثر فعالية لمداعبة زملائه الكالحي الوجوه

والمكتئبين بأيامهم الكئيبة المسار. غاص في قرار مقت لا يطاق للذات حينها ساورته فكرة تقول بأنه وسط الناس المكتئبين، الكالحي الوجوه، فإن هناك آخرين غيره لهم ألوان غير اللون الرصادي ـ الاحمر، الأزرق، الأخضر.

يحدث في الروايات والافلام فحسب أن يحفل الصيف بشمس متألقة. أما ما يوجد في الواقع فأيام آحاد مقهورة تنتمي للبلدات الصغيرة... رجل يأخذ غفوته تحت الأعمدة السياسية لصحيفة ما، وقد لفه دخان مدفع... عصائر معلبة وأوعية حافظة للحرارة ذات رؤوس مخطة... قوارب للإيجار لقاء خمسين سنتاً في الساعة ـ طابور ها هنا... شراطئ مزيدة بالغثاء الرصاصي لسمك ميت... ثم في نهاية المطاف سيارة ترولي أضعفها الإعياء. الكل يعلم أن هذا حقيقيٌ، ولكن ما من أحد يرغب في أن يجعل نفسه يظهر بمظهر الحمقى ويقع في الأحابيل. ولذا فهو يرسم مبتهجاً على قماش رسم الواقع الكئيب شكل مهرجانه الوهمي هذا فحسب. آباء بالسون غير حليقين يهزون أكتاف أطفالهم المتبرمين بالشكوى محاولين جعلهم يقولون إنه كان يوم أحد باعثاً على السرور... مشاهد صغيرة رآها الجميع في ركن عربة ترولي... غيرة الناس البائسة ونفاد صبرهم حيال سعادة الآخرين.

طيب، إذا كان ذلك كل ما هنالك فهو ليس بالأمر الذي يهم به المرء كثيراً. ولو أن رجل الـ «موبيوس» لم يبد رد الفعل نفسه الذي صدر عن زملائه الآخرين لكان من المشكوك فيه أنه سيكون بمثل هذا العناد.

كان قد وضع ثقته متردداً في ذلك الرجل، الذي كان شخصاً

جاحظ العينين، يبدو على الدوام كما لو كان قد غسل وجهه للتوّ، وكان يبدي على الدوام حماسه للنقابات المهنية. وقد حاول ذات مرة علماً الكشف عن خلجات نفسه، التي نادراً ما يُطلع أحداً عليها.

ـ ما هو رأيك؟ يراودني شك كبير حول نظام التعليم الذي يعطي للحياة معنى.

ـ ما الذي تقصده بـ «معنى»؟

ـ بتعبير آخر، إنه تعليم وهمي، يجعل المرء يعتقد أن شيئاً ما على قيد الوجود، بينما هو لا وجود له حقاً. ومن هنا فإنني مهتم بالرمال، في هذا المثال الذي أضربه، لأنها رغم كونها صلبة، إلا أن لها خصائص متعلقة بالديناميكة المائية.

انحنى الآخر إلى الأمام، وقد لفته الحيرة، مقوساً ظهره كأنه قطة. لكن التعبير المرتسم على ملامحه ظل، كذي قبل، صريحاً وواضحاً. لم يبد أنه وجد الفكرة دافعة للاكتئاب على نحو خاص. كان أحدهم قد عقّب بقوله إن الرجل يشبه قطعة «موبيوس». وقطعة «الموبيوس» هي ورقة مستطيلة تطوى طية واحدة، وتلصق أطرافها معاً، وهكذا تكوّن سطحاً ليس له وجه أو ظهر. أكانوا يقصدون أن حياة هذا الرجل النقابية وحياته الخاصة شكّلتا دائرة موبيوس؟ تذكّر أنه أحسّ بإعجاب خاص بذلك الرجل، وبمزاج كليّ ساخر.

ـ أتقصد بتعبير آخر تعلماً واقعياً؟

ـ كلا، والسبب الذي ضربت من أجله مثال الرمال هو أني أعتقد أن العالم يشبه، في نهاية المطاف، الرمال. فمن الصعب إدراك الطبيعة

الأساسية للرمال حينما تتفكر فيها في وضعيتها الثابتة، ذلك أنها لا تتدفق فحسب، وإنما هذا التدفق ذاته هو الرمال. آسف لأنني لا أستطيع التعبير عن الأمر بصورة أفضل.

ـ لكني أفهم ما تعني، لأنك في التعليم العملي لا تستطيع تجنّب التورّط في النسبية. هل بمقدورك ذلك؟

ـ لا، ليس هذا ما أعنيه. فأنت نفسك تصبح رمالاً، ترى بعيون الرمال، وحينما تموت فليس لك أن تستمرّ في القلق بشأن الموت.

ـ لا بد أنك مثالي النزعة. أحسب أنك تحسّ بالخوف من تلاميذك ... أليس كذلك؟

ـ إني أخافهم، لأنني أعتقد أنهم شيء يشبه الرمال.

ضحك الرجل من القلب، كاشفاً عن أسنانه البيضاء، ولكنه لم يبد للحظة وقد أثار هذا الحوار المتضارب اضطرابه. انخفضت عيناه الجاحظتان بين طيّات الجلد. لم يكن بمقدور جومباي إخفاء ابتسامة واهنة لاحت على شفتيه. كان الآخر يشبه تماماً دائرة موبيوس، بل كان دائرة موبيوس حقاً بالمعنيين الجيد والسيّئ للتعبير. وعلى الجانب الجيد من الأمر كان جديراً بالثناء.

ولكن، لدى الحديث عن دائرة موبيوس، فإن الآخر أظهر صراحة الحسد الكئيب ذاته له على إجازته، مثلما فعل زملاؤه. بدا ذلك أمراً بعيداً عن دائرة موبيوس. أحسّ بخيبة الأمل، وفي الوقت نفسه بالسرور، فالكل عرضة لأن يضيقوا ذرعاً بالفضيلة، وهكذا تعوّد أن يحسّ بشعور متزايد بالسرور لدى مداعبته ومضايقته.

ثم هناك الرسالة... البطاقة البريدية التي لا سبيل لاسترداها والتي سلمت بالفعل. كان للهاجس الذي سيطر عليه في حلمه البارحة سبب محدد تماماً.

سيكون من قبيل معارفة الحقيقة الذهاب إلى القول بأنه لم يكن هناك حبّ على الإطلاق بينه وبين المرأة الأخرى. كانت المسألة ببساطة أن علاقة غامضة تربطهما، ليس بوسعه في إطارها أن يكون متأكداً من المرأة، إزاء خصامهما المتبادل. فلو أنه، على سبيل المثال قال إن الزواج هو في نهاية المطاف أشبه بزراعة أرض غير مستصلحة، لردّت متضمنة، في غضب، ودونما سبب، بأنه يعني الاضطرار إلى حمل دار متهالكة أكبر حجماً. أما إذا قال العكس، فإنها ستتبنى وجهة النظر المعارضة له. كانت لعبة أشبه بالتأرجح، تكررت مرات عديدة بلا كلل، على امتداد عامين وثلث العام. ربما كان من الأفضل القول بأنهما لم يفقدا عاطفتهما، وإنما جدداها من خلال المبالغة في إضفاء الطابع المثالي عليها.

ثم قرّر فجأة أن يبلغها عن طريق رسالة بأنه قد مضى بعيداً وحده بعض الوقت، وامتنع قاصداً عن إبلاغ أحد بالجهة التي سيمضي إليها. ولم يثر لغز عطلته الذي كان له كلّ هذا التأثير على زملائه أي ردّ فعل من جانبها. لكنه حدث نفسه بأن الرسالة بلهاء، وألقى بها على مكتبه مخترمة ومعنونة، ومضى بعيداً.

وكنتيجة لذلك، فإن هذا العمل البريء قدّر له أن يصبح القفل التلقائي الذي يستعصي على اللصوص فتحه فلا يملك فتحه إلا صاحبه. من المؤكد أن الرسالة ستلفت نظر أحدهم، سيبدو الأمر كما لو أنه

ترك عامداً إفادة بأنه قد اختفى من تلقاء ذاته. كان كمجرم أبله وضع تحت الملاحظة في مسرح جريمته ثم أقدم بغباء على مسح بصمات أصابعه، فأثبت على هذا النحو قصده الجنائي.

تراجعت فرصته من الهرب إلى البعيد. ومع ذلك، ورغم أنه ظل على تشبثه باحتمال إنقاذه حتى الآن، فإن آماله راحت تتخبط في سمّ شكوكه. الآن غدا السبيل الوحيد هو اقتحام الأبواب بالقوة دون انتظار فتحها له. لم يعد هناك عذر يتحمله للتباطؤ بعد الآن.

غرس أصابع قدميه في الرمل حتى آلمته، إنحنى للأمام، واستعدّ للقفز لدى العدّ العاشر، لكنه رغم ذلك تردّد حتى عند العد الثالث عشر. أخيراً، وبعد أن التقط أربعة أنفاس عميقة، إندفع للخارج.

- ١٥ -

على الرغم مما انتواه، فإن تحركاته كانت بطيئة، ذلك أن الرمل امتصّ قوته. كانت المرأة قد التفتت إليه، وراحت تحدق فيه بدهشة جلية، ومجارونها مرفوع.

لو أنها أرادت حقاً أن تقاوم، لكانت النتيجة مختلفة تماماً عما علق الآمال عليه. لكن أسلوبه في مباغتتها نجح تماماً، وكان نواتها للانقضاض، لكن المرأة بدت كما لو أصابها الشلل، ولم تخطر ببالها قط، فيما يبدو، فكرة رده على أعقابه بمجارونها المرفوع.

ـ لا تصرخي، فلن ألحق بك أذى، وما عليك إلا التزام الهدوء!

واصل همسه هذا، بصوت متوتّر، وهو يدسّ، كيفما اتفق، منشفة في فمها. ظلت على الوضع الذي دفعها إليه، دون أن تقاوم... حتى في مواجهة هذا التصرّف الطائش، غير المتقن.

استجمع رباطة جأشه، حينما أدرك سلبيتها، سحب المنشفة، التي كان قد دسّ شطرة منها في فمها، وأعاد ترتيبها حول فمها، وربطها بإحكام عند قفاها، ثم قيّد يديها بإحكام بطاقه الذي كان قد دسّه في جيبه.

ـ حسناً! ادخلي الدار!

بدت معنويات المرأة في الحضيض، ولم تخضع لتصرّفاته فحسب، وإنما أطاعت كلماته بحذافيرها كذلك. ولم تظهر أي مقاومة أو عداء، ربما كانت في حالة تنويم مغناطيسي. لم يشعر بأنه قد عالج الموقف بشكل فذ، ولكن عنفه غير المتوقّع أدى، فيما يبدو، إلى انتزاع كل مقاومة منها. أجبرها على التوجه إلى الجزء المرتفع من الأرضية، وبالطاق الآخر قيّد قدميها عند الكاحلين. وكان عليه أن يمضي قدماً في الظلام، عن طريق التلمّس، ولمجرّد الاطمئنان، لفّ الجزء الباقي من الطاق مرة أخرى على كاحليها.

ـ لا، لا تتحرّكي! أتفهمين؟ لن أؤذيك. طالما أنك تلزمين الهدوء فلن أمسّك بسوء. لكنني يائس من أمري...

واصل التطلّع باتجاه تنفّس المرأة اللاهث، فيما هو يتراجع بظهره نحو الباب. اندفع من هناك، أمسك بالجاروف، والمصباح بشدة، وجرى عائداً بها في الحال. كانت المرأة قد سقطت على جانبها،

وراحت تحرك فكها هبوطاً وصعوداً، على نحو متكرر، مع تنفسها اللاهث، ربما كانت تدفع بفكها إلى الأمام مع كل نفس لتجنب استنشاق الرمل من الخشية. وحيثما تخرج زفيرها كانت تبدو من ناحية أخرى وكأنها تخرجه من أنفها، وعلى هذا النحو تدفع الرمل بعيداً من وجهها.

ـ طيب. سيتعين عليك تحمل هذا لبعض الوقت. ستضطرين للاعتصام بالصبر إلى أن يعود أبناء القرية بالسلال. ليس هناك ما يدفعك إلى الشكوى بعد الغراء الذي اضطررت لاحتياله منك. إضافة إلى ذلك، سوف أدفع لك بأمانة تكاليف الإقامة، وبالطبع سيقتصر ذلك على النفقات الفعلية التي سأحسبها بنفسي. هذا لا يضايقك. أليس كذلك؟ حقاً إن إقامتي هنا ينبغي أن تكون مجانية، ولكني لا أستطيع تحمل بالفاء مثل هذا الدين. سأجعلك تقبلين ما أدفعه لك.

أرهف السمع لبعض الوقت، وقد سيطرت عليه العصبية، وغلبه الضيق، وفتح باقة قميصه ليتخللها الهواء، متلمساً أمارات الحياة في الخارج، غير أنه ربما كان من الأفضل إطفاء المصباح، ورفع غطاءه وهمّ بإطفاء اللهب... ولكن لا، قبل ذلك لا بدّ من تفقد وضع المرأة. كانت الرباطات محكمة على قدميها، ولم يكن هناك فراغ كافٍ لدفع إصبع تحتها، وتورم رسغاها بالفعل واكتسيا باللون الأحمر القاتم، وتحولت أظافرها لتكتسي بلون لطخة حبر قديمة.

كان رباط الفم بدوره محكماً، وقد جذبت شفتيها الكالحتي اللون على نحو متوتر حتى نفر الدم منها، ولاح مظهرها شبحياً على وجه

التقريب، وسال اللعاب من فمها، فخلف لطخة قاتمة على الخشبة تحت خدها. ومع ارتفاع ذبالة المصباح خيل إليه أنه يسمع صرخاتها المكتومة.

- لا جدوى، وعلى أية حال فقد كنت أنت البادئة.

قالها مسرعاً دونما تفكير، وأضاف:

- حاول كل منا الفوز على الآخر، ونحن متعادلان تقريباً. ألسنا كذلك؟ إنني إنسان بدوري، وليس بمقدورك تقييدي كالكلب. والجميع سيصف ما قمت به بأنه دفاع شرعيّ عن النفس من جانبي.

لوت المرأة عنقها فجأة، وحاولت الإطلال عليه بجانبي عينيها نصف المغمضتين.

- ماذا دهاك؟ أترغبين في قول شيء ما؟

حركت رقبتها في ارتباك، كأنما هي تومئ بالموافقة أو حتى بالنفي. قرّب المصباح، وحاول مطالعة ما ارتسم في عينيها. لم يستطع أن يصدّق تواً ما رآه. فقد كانت عيناها مترعتين بأسى لا حدّ له، ولم يرتسم فيهما الكره أو المرارة، وبدا أنها تتضرّع من أجل شيء ما.

مستحيل، لا بد أن خياله هو الذي صوّر له ما رأى. ليست الكلمات «تعبير مرتسم في العينين» إلا مجرد تلاعب بالألفاظ. كيف يمكن أن يوجد تعبير في مقلة بلا عضلات؟ ومع ذلك فقد جفل، ومدّ يديه ليوسع كمامة الفم.

ردّها إلى موضعها مسرعاً، ونفخ في المصباح، فأطفأه، إذ دنت أصوات حاملي السلة. وضع المصباح المنطفئ على حافة المنحدر عند

الجزء المرتفع من الأرضية، بحيث يتاح له العثور عليه بسهولة، ووضع شفتيه على الغلاية تحت الحوض وتناول شربة ماء، أخفى نفسه إلى جوار الباب قابضاً على الجاروف بيديه. بدأ في التعرّق، سرعان ما يمين الأوان، سيتعيّن عليه أن يصبر خمس دقائق أو عشراً أخرى. وبإحدى يديه قرّب صندوق جمع الحشرات منه.

- ١٦ -

دوّى صوت أجشّ:

ـ أنت، يا من هناك!

وردّ صوت آخر متذبذب ومرح بصفير سنّ صاحبه صدى الصوت الأول.

ـ ماذا تفعلين هناك؟

كان ظلام الحفرة الدامس يلفّ الرجل، ولكن في الخارج أطل القمر جلياً. وبدت ظلال الرجال الواقفين على الخط الممتدّ بين الرمال والسماء لطخة غير مميزة وآخذة في الاتساع.

دنا، منحنياً حافة قرار الحفرة، والجاروف بيده اليمنى.

دوت ضحكة خشنة، عند قمة الصخرة. وأُدلي قليلاً فقليلاً حبلاً به خطاف لصفيحتي الكيروسين.

ـ هلمّي، أيتها السيدة، تحركي!

في تلك اللحظة بعينها، وثب الرجل نحو الحبل، واثباً على الرمل وناثراً إياه في عدوه.

ـ أنتم هناك، شدّوا لأعلى!

هتف بها الرجل بأعلى صوته، متشبثاً بالحبل المشدود بقبضة كان يمكن أن تجعل أصابعه تغوص في الصخر، أضاف:

ـ شدّوا لأعلى! شدّوا لأعلى! لن أفلت الحبل حتى تقوموا بهذا! فلتدث المرأة في الدار، إذا أردتم مساعدتها فارفعوا في الحال! لن أدعكم تصلوا للمرأة إلا بعد أن تقوموا بذلك، وإذا ما نزلتم إلى هنا سأحطم رؤوسكم بهذا الجاروف. ما عليكم إلا أن تأخذوني إلى المحكمة وسترون من ينتصر. هل تتوقعون حقاً أن أقدم لكم التنازلات؟ فتح هذه الضجة؟ إذا رفعتموني سأسحب شكواي وأتجاهل الأمر بكامله. ليس الاحتجاز غير الشرعي بالجريمة الهينة. ما الأمر؟ تحركوا وارفعوني!

لطمت الرمال المنهالة وجهه، انتشر إحساس بارد دبق بسرعة من ياقته إلى قميصه، وأحرق نفَسُه الملتهب شفتيه

بدا أنهم فوق الحفرة قد شرعوا في مناقشة من نوع ما. فجأة حدثت جذبة قوية، وشرعوا في سحب الحبل. غرس وزنه الكامل، الذي كان أثقل مما توقع، الحبل قاطعاً عبر أصابعه، فتشبث به بقوة مضاعفة، قلبت نوبة عنيفة، كالضحك، معدته. بدا كما لو أن كابوس الأسبوع قد تحطم وتناثر بعيداً. حسن... حسن... ها قد تم إنقاذه.

تجرّد، على حين غرة، من وزنه، وحلّق في الفراغ. اجتاح جسمه

غثيان كأنما أصابه دوار البحر، وألقى الحبل، الذي كان حتى الآن يعتصر ذراعيه، يقبع هامداً في يديه.

لقد أفلتت العصابة الواقفة فوق الحفرة الحبل! وثب وثبة خلفية، وسقط فوق الرمال، فندّ صوت كئيب عن صندوق جمع حشراته تحت جسمه، وخدش شيء ما خدّه - كان، فيما يبدو، الخطاف المربوط في نهاية الحبل. يا للأوغاد! من حسن الطالع أنه لم يصب بسوء. عندما تفقّد خاصرته، التي ارتطمت بصندوق الحشرات، لم يجد أن هناك موضعاً بعينه يؤلمه. وثب واقفاً في الحال، متطلعاً حوله، باحثاً عن الحبل، لكنه كان قد سُحب بالفعل.

- أيها الحمقى الأغبياء!

صرخ، على نحو مضعضع، وبصوت أجشّ.

- أيها الحمقى الأغبياء! ستعضّون أصابعكم ندماً في نهاية الأمر!

لم يكن هناك ردّ، وما انهالت عليه إلا غمغمة صامتة، كأنها الدخان، فزادته ضيقاً على ضيق، ذلك أنه عجز عن تحديد ما إذا كان صوتاً عدائياً، أم أنهم كانوا يكتمون صوت ضحكهم.

تصلّب بداخله شعوره بالغضب والهوان. واصل الصراخ، وأظافره تغوص في راحتيه العارقتين:

- ألا تفهمونني؟ لا أظنكم تفهمونني لو أنني حدثتكم بالأمر بالكلام وحده. ألم أوضح لكم موقفي بما فعلته؟ ألم أقل لكم إنني أحكمت وثاق المرأة؟ خير لكم أن ترفعوني في الحال. ستظلّ المرأة على حالها إلى أن تسلّموني سلّم الحبال. ليس هناك من يزيل الرمال. أهذا لا يعنيكم؟ فكروا في الأمر! لن تلوموا إلا أنفسكم إذا دُقّتا

تحت الرمال. وإذا سيطرت الرمال على هذه الحفرة فإنها ستشق طريقها عبر القرية كلها. ماذا دهاكم؟ لمَ لا تردّون؟

بدلاً من أن يردّ الرجال عليه، غادروا المكان بشكل عابر وعلى نحو يشي الشعور بخيبة الأمل، دون أن يخلفوا وراءهم إلا صوت سلالم الجرجرة على الأرض.

ـ لماذا؟ لماذا تمضون هكذا دونما كلمة؟

صاح الرجل، هاتفاً بهم، متخاذلاً، لكن صوته لم يكن مسموعاً إلا له. انحنى مرتجفاً، لمّ محتويات صندوق جمع الحشرات الخاص به. بدا كما لو أن صدعاً قد أصاب وعاء الكحول فيه، وفي اللحظة التي لمسه فيها كفّه انتشرت برودة منعشة في أصابعه. انخرط في نشيج مكتوم. لكنه لم يكن حزيناً بشكل خاص، بل أحس وكأنما شخص آخر هو الذي راح ينشج.

التصق الرمل به، كأنه حيوان ماكر، ثم، متلمساً طريقه بصعوبة، خطا في الظلام عائداً إلى مدخل الدار، فولجه. وضع برفق صندوق حشراته الذي فقد مفصلاته إلى جوار موضع المدفأة الغائر في الأرض. ملأ رئتيه بريح الهواء. أخرج أعواد الثقاب الملفوفة بالبلاستيك من العلبة الفارغة في ركن المرجع وأشعل المصباح.

لم يتغير وضع المرأة، فلم تتحرك إلا تغيير زاوية ميل جسمها قليلاً إلى أسفل. حوّلت وجهها قليلاً باتجاه الباب، ربما بقصد تفحص الموقف من الخارج. فتحت عينيها للحظة إزاء الضوء، لكنها أغمضتهما بإحكام في الحال مرة أخرى. راح يتساءل عن الكيفية التي ستتلقى بها أنباء المعاملة المتعمدة التي عاملوه بها. إذا كانت تريد أن تبكي فليكن

ذلك لها. وإذا أرادت أن تضحك فلها ذلك أيضاً. لم يصبح استنتاجاً مسلياً به بعد أنه خسر اللعبة. وعلى أية حال فقد كان هو الذي يمسك قنبل القنبلة الزمنية.

انحنى على إحدى ركبتيه خلف المرأة. تردد للحظة ثم أرخى الكمامة عن فمها وانتزعها بعيداً. لم يشعر بالذنب تحديداً، ولم يساوره أدنى شعور بالإشفاق أو الرحمة.

كان يحسّ بالإعياء، فلم يعد بمقدوره تحمّل المزيد من الضغط والتوتر. أضف إلى ذلك أنه حينا فكّر في الأمر وجد أن الكمامة لم تكن ضرورية منذ البداية، فلو أن المرأة صرخت طالبة النجدة في ذلك الوقت لأثارت فزعه وربما عجلت بالوصول إلى نهاية الأمر.

دفعت بفكها إلى الأمام لاهثة. كانت الشقة ثقيلة بلعابها وأنفاسها الكريهة، كأنها فأر نافق. وقد ضغطت على لحمها، مخلفة بعض البقع التي لم يبدُ أنها وشيكة الاختفاء. بدأ تصلّب خديها، اللذين أصبحا مثل جلد سمكة متقددة، في التراخي فيما هي تحرك فكّها السفلي مراراً وتكراراً.

ـ ستصبحين على ما يرام بعد قليل.

قالها الرجل، ملتقطاً الشقة بأطراف أصابعه، ومنقياً إياها على الأرض المتربة، وأضاف:

ـ حان وقت وصولهم إلى قرار ما. من المؤكد الآن أنهم سيحضرون عاجلاً سلّم الحبال. لن يلوموا إلا أنفسهم إذا تركوا الأمور كما هي الآن تجري في أعنتها، وتلك هي الحقيقة. لم تكن هناك حاجة على الإطلاق تحدوهم إلى تجشّم عناء إيقاعي في فخ إن لم يكونوا مضطرين لذلك.

ابتلعت المرأة لعابها المرير، وبللت شفتيها.

ـ ولكن...

لم يبد أن لسانها قد استعاد قدرته على أداء مهامه، تحدثت بصوت كتوم، كأنما كانت تضع بيضة في فمها.

ـ هل بزغت النجوم؟

ـ النجوم؟ لِمَ تسألين عن النجوم؟

ـ طيب، لو أنها لم تبزغ...

ـ ماذا تقصدين بقولك لو أنها لم تبزغ؟

لكن هذا القدر من الحديث أنهكها، فلزمت الصمت مجدداً.

ـ ماذا دهاك؟ لا يمكنك التوقف في وسط ما شرعت في قوله! أتراك ستكشفين لي طالعي أو شيئاً من هذا القبيل؟ أم هناك خرافة في هذا الصدد في هذا الجزء من الريف؟ أحسب أنهم لا يدلون بالحبل في الليالي التي تغيب نجومها. ما قولك؟ هه؟ ليس بوسعي فهمك إذا التزمت الصمت. إذا أردت الانتظار إلى أن تطلع النجوم فهذا شأنك. ولكن ماذا تفعلين لو أن ريحاً قوية هبت فيما أنت تنتظرين؟ آخر ما ستفكرين فيه هو النجوم!

قالت المرأة بصوت تردد كما لو كان قد جرى اعتصاره من أنبوب بال:

ـ إذا لم تبزغ النجوم في حوالي هذا الوقت فلن تهب ريح قوية للغاية.

ـ لماذا؟

ـ إذا لم تر النجوم فهذا مرده إلى وجود غمامة.

ـ ماذا تقصدين بقول شيء كهذا بينما الريح تهب بمثل هذه القوة؟

ـ لا، هذه هبة ريح فوق الحفرة.

قلّب الأمر في ذهنه، ربما يكون الأمر على ما قالت، ففي نهاية الأمر كان معنى حقيقة عدم وضوح النجوم أن الريح ليست لها قوة الإطاحة بالأبخرة المعلقة في الجو، ربما لن تهب ريح قوية الليلة. ولئن كان الأمر كذلك فإن أبناء القرية ربما لن يدفعوا بالأمور إلى نهايتها. وما أعتقد أنه هراء محض تبين أنه في الحقيقة ردّ منطقي.

ـ بالطبع، لكني لست قلقاً على الاطلاق. ولو أن فكرتهم هي الانتظار فستكون حرب أعصاب، والفرص متساوية فيما إذا كنت سأنتظر أسبوعاً أو عشرة أيام أو حتى أسبوعين.

ثنت المرأة أصابع قدميها بإحكام إلى الداخل، فبدت كما لو كانت أقراص سمكة «لشك». ضحك، وخلال ضحكه انتابته حالة غثيان.

لماذا يحق السماء يحس بالقلق والتوتر على هذا النحو؟ إنه هو الذي يضغط على نقطة ضعف العدو. أليس كذلك؟ لمَ لا يستطيع رصد الأمور برباطة جأش أكبر؟ لو أنه قدر له أن يعود سالماً فمن المؤكد أنه سيكون ما يستحق العناء حينما يحدث ذلك أن يعكف على تسجيل هذه التجربة.

ـ طيب، يا تيكي، إنني مندهش. أخيراً قررت أن تكتب شيئاً.

لقد كانت التجربة التي صقلتك حقاً. إن دودة التراب العادية لا تصل الى غرتها الكامل، فيا يقولون، ما لم يجر تنبيهها وحفزها.

ـ شكراً، في الحقيقة يتعين عليّ التفكير في عنوان ما.

ـ إحم. أتساءل: أيّ نوع من العناوين؟ «شيطان الرمال» أم «أهوال تلّ الرمال»؟

ـ هذان العنوانان يفصحان عن ميل فظيع إلى ما هو غامض. ألا يعطيان انطباعاً بعيداً عن الأمانة للغاية؟

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ الأمر لا معنى له، فأياً كانت حدة التجربة، لا معنى لرصد سطح الحدث وحده. وأبطال هذه المأساة هم القنية المحليون، وإذا لم تلمح إلى الحلّ من خلال وصفهم فإن تجربتك النادرة ستفقد... آف!

ـ ماذا دهاك؟

ـ أهم ينظّفون المجاري في مكان ما، أم أن هناك تفاعلاً خاصاً بين رائحة الثوم في فمك والمحلول المطهر الذي يستخدمونه لتنظيف المشى

ـ ماذا؟

ـ لا، هوّن عليك! مهما عكفت على محاولة الكتابة لا أجدني صالحاً لأن أكون كاتباً.

ـ هذا التواضع الذي لا يليق بك مرة أخرى! ليست هناك حاجة

تدفعك إلى النظر للكتاب باعتبارهم مخلوقات خاصة. إذا كنت تقوم بالكتابة فأنت كاتب. أليس كذلك؟

ـ طيب، يعتبر المدرّسون بصفة عامة ممن يميلون للكتابة دون تمييز.

ـ لكنهم قريبون من الناحية المهنية من الكتاب.

ـ أهذا ما يقال له التعليم الإبداعي؟... على الرغم من الحقيقة القائلة بأنهم لم يصلوا حتى إلى صنع علبة أقلام رصاص بأنفسهم.

ـ علبة أقلام رصاص... كم هذا مؤثر! أليس شيئاً طيباً أن يدفع المرء إلى إدراك طبيعة شخصيته.

ـ بفضل هذا التعليم، يتعيّن عليّ أن أعايش إحساساً جديداً لكي أقدر ألماً جديداً.

ـ هناك أمل.

ـ لكن المرء ليس مسئولاً عما إذا كان الأمل سيتحقق من عدمه.

ـ انطلاقاً من هذه النقطة على المرء أن يؤمن بقوته الذاتية.

ـ ليكن! دعنا نكف عن خداع الذات، فمثل هذه السيئة غير مسموح بها لأي مدرّس.

ـ سيئة؟

ـ ذلك بالنسبة للكتّاب. فأن تقول إنك تريد أن تصبح كاتباً لا يعدو أن يكون أنانية، فأنت تريد أن تميّز بين ذاتك وبين الدمى بجعل نفسك محركاً للدمى. ما هو الفارق حقاً بين هذا وبين استخدام المرأة لأدوات الزينة؟

ـ ذلك قول قاس . ولكن إذا استخدمت اصطلاح «كاتب» بمثل هذا المعنى، فمن المؤكد أن عليك أن تكون قادراً على التمييز إلى حدّ معين بين الكاتب والكتابة.

ـ آه، هذا هو السبب عينه الذي أردت من أجله ان أصبح كاتباً. فإذا لم يكن بوسعي أن أصبح كاتباً فلن تكون هناك حاجة محددة للكتابة!

لا بد أنه يبدو مثل طفل لم ينل ما وُعِدَ به.

- ١٧ -

من الوجه الأدنى للصخرة علا صوت حادّ يشبه رفرفة الأجنحة. أمسك بالمصباح، واندفع إلى الخارج، وألقى على الرمال لفافة غُلّفت بالقش. لم يكن هناك مؤشر على وجود أحد على مقربة. هتف بصوت عال، فلم يسمع رداً على الإطلاق. بفضول ملؤه الشغف نزع الحبل الملفوف حول غلاف القشّ، فليس بوسعه إلا أن يفترض أن اللفافة تحتوي معدات لتسلّق الصخرة. لا يزال بعيداً عن مقدور القرويين الكشف عن وجوههم، وقد افترض أنهم ألقوا بهذه الأشياء إلى أسفل فحسب، ولاذوا بالفرار.

لكن محتويات اللفافة لم تكن إلا زجاجة سعة ثُمن جالون بسدادة خشبية، ولفافة صغيرة، غلفت بورقة جرائد، وضمت ثلاث علب،

يحتوي كل منها على عشرين سيجارة شيشي، ولا شيء غير هذا. أمسك بطرفي غلاف اللفافة الحصيري، وهزّه بعنف، ولكن لم ينسكب منه إلا الرمل. وكان يتطلّع إلى رسالة صغيرة على الأقل، لكنه لم يجد شيئاً. وكانت الزجاجة تحتوي على شراب ساكي، من النوع الرخيص، تنبعث منه رائحة الأرز المحمّر.

ما الذي يمكن أن يكونوا بصدده؟ أيمكن أن يكونوا في غمار مساومة؟ لقد سمع أن هنود أميركا يتبادلون السجائر كعلامة ودّ وصداقة. وفي اليابان أيضاً يُعدّ شراب الساكي على نحو شائع جزءاً من مناسبة سعيدة، هكذا فمن الممكن بالقطع أن يفترض أن تصرفاتهم نوع من التعبير المسبق عن عزمهم على التوصّل إلى اتفاق معه، فالريفيون يميلون إلى الوعي بالذات، فيما يتعلق بالتعبير عن مشاعرهم من خلال الكلمات، وبهذا المعنى فقد كانوا أكثر أمانة.

تقبّل الأمر مؤقتاً، فقد كانت السجائر أهمّ من أي شيء آخر. ترى كيف تحمّل المضيّ دونها قرابة الأسبوع؟ بحركة معتادة فضّ الغلاف، ونزعه عبر أحد الجوانب. بدا ملمسه كأنه ورق شمعيّ لين، فتح أسفل العلبة، وأخرج سيجارة. ارتجفت الأصابع التي أمسكت بها، أشعلها من لهب المصباح، وملأ رئتيه بأنفاس متمهلة عميقة، فتغلغل عرف الدخان في دمه إلى أقصى أطراف جسمه. أحس بخدر، وانسدلت ستارة قطيفية ثقيلة. انتشر دواراً، كما لو أنه كان يتعرض للخنق وعمّته برودة لاذعة.

أحكم قبضته على زجاجة ثُمن الجالون، وترنّح عائداً إلى الدار على ساقين أحسّها نائيتين ولا تنتميان إليه. وكان رأسه لا يزال مشدوداً

بإحكام في طوق من الدوار. حاول أن يطل على المرأة، ولكن مهما بالغ في المحاولة ظل عاجزاً عن التطلّع إلى الأمام مباشرة. بدا وجهها الذي لمحه من طرف إحدى عينيه بزاوية منحرفة صغيراً على نحو رهيب.

ـ إنها هدية، انظري!

رفع زجاجةً من الجالون عالياً، وأراها إياها مرتجفاً، وأضاف:

ـ أليسوا مهذّبين؟ ما قد أعطونا زجاجة مليئة للاحتفال بالمناسبة مسبقاً. ألم أقل لك؟ كنت أعلم منذ البداية. طيب، ما كان قد كان. ما رأيك في جرعة شراب؟ أتشاركينني؟

بدلاً من أن ترد عليه، أغمضت عينيها في إحكام. ترى أكانت غاضبة لأنها لم تستطع حله على فكّ الحبال التي قيّدها بها؟ يا للمرأة الغبية! لو أنها قدمت له رداً واحداً جيداً لفكّ قيدها في التوّ. هل كانت مكتئبة لأنها لم تستطع الاحتفاظ بالرجل الذي تحمّلت كل هذه المتاعب للإمساك به واضطرت في نهاية المطاف لتركه لحال سبيله؟ قد يكون هذا صحيحاً أيضاً.. ففي نهاية المطاف كانت لا تزال في حوالي الثلاثين من العمر فحسب... وأرملة.

بين مشط قدم المرأة وباطنها كانت هناك طية ملموسة ومنفرة، ومرة أخرى صدرت عنه ضحكة لا معنى لها. لماذا تبدو قدمها مضحكة هكذا؟

ـ إذا كنت تريدين سيجارة، فإني أشعلها لك. أتريدين؟

ـ كلا، فالسجائر تجعل حلقي جافاً.

قالتها المرأة بصوت خافت، وهي تهزّ رأسها.

ـ طيب، إذن، هل أعطيك جرعة ماء؟

ـ أنا على ما يرام الآن.

ـ ليس عليك الالتزام بالحياء، وتعرفين أنني لا أخضعك لهذا بسبب أي كراهية شخصية لك، لعلك تدركين، أليس الأمر كذلك؟ إن ذلك ليس بالأمر الذي كان من الممكن تجنّبه؟ يبدو أن وطئتك جعلت عريكة الآخرين تلين قليلاً.

ـ إنهم يوزّعون السجائر والسكاكر مرة كل أسبوع للأماكن التي يعمل بها الرجال على أية حال.

ـ ماذا تقصدين بقولك «إنهم يوزعون؟»

اكتشف الرجل أنه ذبابة سوداء ضخمة اعتقدت أنها قد حلقت، بينما هي لا تزال تدفع برأسها في مواجهة لوح زجاجي، في محاولتها للخروج واسمها العلمي هو «موسينا ستابيولانا». ولمثل هذه الذبابات عيون مركبة تكاد تكون مجردة من قوة الإبصار. صاح بصوت حادّ، دون أن يحاول إخفاء استيائه:

ـ لكنهم ليسوا مضطرين لتكبّد كل هذا العناء من أجلنا! ألا يستطيعون تركنا نخرج لشراء هذه الأشياء بأنفسنا؟

ـ لكن العمل شاقّ، وليس لدينا كل هذا الوقت، وفضلاً عن ذلك، فنحن نعمل لحساب القرية، ورابطة القرية هي التي تدفع النفقات.

طيب، إذن، فهم أبعد ما يكونون عن الوصول إلى حلّ وسط، وربما كانوا ينصحونه بالاستسلام. لا، بل الأمر أسوأ من ذلك، فيما

راح يحدث نفسه به. فقد أدرجوه، دونما شك، في سجل إلى جوار كثيرين غيره، كمجرد سنّ في دولاب يدير حياتهم اليومية.

ـ أود أن أسألك سؤالاً صغيراً لمجرد إرضاء فضولي: هل أنا أول من خاض تجربة من هذا النوع حتى الآن؟

ـ لا ... على أية حال، نحن لا نلقى مساعدة كافية. فالذين يستطيعون العمل ـ مثل الملاك العقاريين، والفقراء، وأي شخص آخر ـ يغادرون القرية واحداً إثر الآخر. إنها قرية فقيرة على أية حال، وكل ما هنالك هو الوحل...

ـ إلام يصير الحال إذن؟

قالها الرجل بصوت هادئ، اكتسب لون الرمال الذي يكفل الحماية، وأضاف:

ـ هناك شخص آخر غيري أمسكتم به إلى جواري. أليس كذلك؟

ـ بلى، هناك من وصفت، لا بد أن ذلك كان في مطالع الخريف من العام الماضي فيما أظن... إنه بائع البطاقات البريدية...

ـ بائع البطاقات البريدية؟

بائع متجول، أو شيء من هذا القبيل، من شركة تصنع بطاقات البريد وغيرها من الأشياء للسياح، جاء لزيارة رئيس النقابة المحلية، وحدثنا بأننا لو قمنا بالدعاية للمناظر الطبيعية الجميلة بين سكان المدن...

ـ وأمسكتم به؟

ـ كانت دار على الجانب ذاته الذي تطلّ عليه داري تعاني من متاعب في الحصول على مساعدة في العمل في ذلك الوقت.

ـ طيب، ماذا حدث عندئذ؟

ـ يقولون إنه مات بعد ذلك بوقت قصير، وقد فهمت أنه لم يكن قوياً للغاية منذ البداية، وفضلاً عن ذلك فقد تصادف أن جاء موسم الإعصار الاستوائي وكان العمل أشد مشقة.

ـ ولماذا لم يبادر بالهرب توّاً؟

لم تحر المرأة رداً، ربما كان الرد أكثر وضوحاً من أن يحتمل المزيد. فهو لم يهرب لأنه عجز عن ذلك. وربما كان هذا هو كل ما في الأمر.

ـ هل هناك غيره؟

ـ نعم، في وقت ما بعد بداية العام، دعني أتذكر، جاء طالب ليبيع كتباً أو شيئاً من هذا القبيل.

ـ بائع متجول؟

ـ أتذكر أنها كانت كتباً، ثمن الواحد عشرة ينات، وكانت تعارض شيئاً ما.

ـ آه، إنه طالب من أنصار حركة العودة للأرض، وقد اعتادوا التجول في الريف، داعين الناس لتأييد حملاتهم المناهضة للأمريكيين. وهل أمسكتم به بدوره؟

ـ لا بد أنه لا يزال في دار مجاورة، على بعد ثلاث دور من هنا.

ـ وقد نزعوا، بالطبع، سلّم الحبال.

ـ الشبان لا يستقرّ بهم المقام بصورة طيبة، وهذا هو السبب، أحسب أن ذلك يرجع إلى أن الأجر جيد في المدينة، ثم هناك الأفلام والمطاعم والمتاجر المفتوحة كل يوم.

ـ ولكن، ألم ينجح شخص واحد في الهرب من هنا حتى الآن؟

ـ بلى، كان هناك شاب في مقتبل العمر مضى إلى المدينة، وتعرف برفاق سوء، كان ضخم الجثة يعمل على الدوام خنجره... بل وقد نشر الأمر في الصحف... ثم بعد أن أنهى عقوبته أعادوه وأحسب الآن أنه يقيم مع أبويه في هدوء.

ـ لا أسألك عن مثل هؤلاء الناس، وإنما أسألك عن أولئك الذين لم يعودوا بعد أن أفلحوا في الهرب؟

ـ حدث ذلك منذ وقت طويل، وكانت هناك أسرة بكاملها أفلحت في الخروج ليلاً، فيما أذكر. وظلت الدار خاوية على عروشها وقتاً طويلاً، حتى أصبحت خطيرة، ولا يجدي معها الإصلاح. إنه أمر خطير حقاً، فلو أن موضعاً واحداً تداعى على امتداد الكثبان، لأصبح الأمر عندئذ مثل سد أصابه ثقب.

ـ أتعنين أنه لم يهرب أحد بعد ذلك.

ـ كلا، لا أحد، فيما أظن.

ـ هراء!

تضخمت صفائح الدم تحت أذنيه، وضاق حلقه.

تكوّمت المرأة، فجأة، كأنها دبورة تفقس بيضها.

ـ ماذا دهاك؟ أتحس بألم؟

ـ نعم، آه، هذه الأشياء مزلة.

تحسّس ظهر يديها، اللتين غدا لونهما كالحاً، ودسّ أصابعه تحت الخيوط التي تحكم وثاقها وجسّ نبضها.

ـ أتحسين بذلك؟ النبض قويّ، ولا يبدو الأمر خطيراً. آسف، لكني أود أن تحدثني بشكاوى أولئك الذين يحتلون في القرية المسؤولية عن ذلك.

ـ آسفة لإزعاجك، ولكن هل لك في أن تهرش لي ذلك الموضع في عنقي الذي يقع وراء أذني؟

أخذته الدهشة، فلم يستطع الرفض. كانت هناك طبقة غليظة من العرق، تشبه الزبد الذائب، بين جلدها وطبقة الرمل. أحسّ كأنه وضع أظافره على ثمرة خوخ.

ـ آسفة حقاً، ولكن بأمانة لم يُقدَّر حتى الآن لشخص واحد أن يخرج من هنا.

غدا الإطار الخارجي للمدخل، فجأة، خطاً خافتاً مجرداً من اللون، وطفا نحو البعيد. كان القمر قد أطلّ... حزمة من ضوء واهن كجناحي نملة. وحينما اعتادته عيناه تحوّل قرار الوعاء الرملي بأسره إلى سائل لامع له نسيج أوراق شجر وليدة.

ـ ليكن، إذن، فسأصبح أنا أول من يقدّر له الهرب.

كان الانتظار مسيراً، فقد طوى الزمن طيات عميقة، لا نهاية لها، كأنها الوسائد. ولو أنه لم يتوقّف عند كل طية لما استطاع المضيّ قدماً. وفي كل طية انتصبت كافة ضروب الشكوك، وقد امتشق كل منها سلاحه، واقتضى المضيّ قُدُماً جهداً هائلاً في مجالدة أو تجاهل هذه الشكوك أو تنحيتها جانباً.

بزغ الفجر، في نهاية المطاف، بعد أن أمضى الليل بكامله يترقّب. وسخر منه الصباح، الذي أقبل ضاغطاً بوجهه، كأنه بطن حلزون، على لوح زجاجيّ.

- معذرة، ولكن هل لي في بعض الماء؟

لا بد أنه أخذته سنة من النوم، فقد كان قميصه وسرواله حتى ركبتيه غارقين في العرق. كان الرمل الذي التصق بالعرق يشبه في القوام واللون كمكة تسبح مشبعة بالماء. ولما كان قد نسي تغطية وجهه، فقد غدا أنفه وفمه جافين مثل حلال أرز في الشتاء.

- آسفة، ولكن رجاء ... هل لي في بعض الماء؟

راح جسم المرأة بكامله يرتجف، تحت غطاء من الرمل المتصلّب، وندّ عنها صوت جافّ كأنما أصابتها حمى. انتقلت معاناتها إليه مباشرة كأنما كانا متصلين بأسلاك كهربائية. نزع الغطاء البلاستيكي عن الغلاّية ودسّ طرفها في فمه، حاول مضمضة فيه بالجرعة الأولى، ولكن ذلك كان مستحيلاً بهذا القدر الضئيل من الماء. فلم تنزل من

طرف الغلاّية إلاّ كتل من الرمل. ثم، دونما اكتراث، ترك الرمل يتحدر في حلقه مع الماء. كان الأمر كأنه يشرب حصى.

إرفضّ الماء الذي شربه عرقاً، في الحال، آله الجلد المحيط بظهره وصدره وخاصرتيه، نزولاً حتى أليتيه، كأنما انتزعت طبقة رقيقة منه. ألصق، على نحو يوشك أن يكون اعتذاراً، طرف الغلاية بشفتي المرأة، فالتقمته بأسنانها، ودون مضمضة علّت منه، وهي تهدل كالحمامة. غدت الغلاية خاوية بعد الجرعة الطيبة الثالثة. وللمرة الأولى، ظهرت نظرة لوّامة، بعيدة عن الصفح من عينيها، وهي تحدق فيه بثبات من تحت جفنيها المتورّمين. بدت الغلاّية الخاوية خفيفة كما لو كانت مصنوعة من الورق المطوي.

خطا الرجل الى الأرضية المتربة، نافضاً الرمل عن جسمه، في محاولة للتخلّص من هذا الشعور المقضّ. هل ينبغي أن يمسح وجه المرأة بمنشفة مبلّلة؟ سيكون ذلك اكثر معقولية من ترك العرق ينهمر إلى أن يغرقها. يقولون إن مستوى الحضارة يتفق مع مستوى نظافة الجلد. فإذا ما افترضنا أن للإنسان روحاً فإنها ينبغي بالضرورة أن تسكن الجلد. وقادته هذه التأملات حول الماء إلى إدراك أن للجلد المتسع الآلاف والآلاف من الماصات، والجلد شفاف على نحو بارد، مثل الثلج... رباط محكم ورقيق للروح. ولو أنه تأخر لحظة أكثر من ذلك لتحلّل جلد جسمه كله وتقشّر.

نظر إلى جرّة الماء، فصدرت عنه صيحة استياء:

ـ يا إلهي! أتدركين أنها فارغة؟ فارغة تماماً؟

دسّ يده في الجرة، وقلّب المحتويات، لم يكن الرمل القاتم المشبّث

بالقاع يرطب أطراف أصابعه. وتحت جلده المصاب بخيبة الأمل شرعت آلاف المثيليات في التصارع.

- نسي الأوغاد جلب الماء، بل إني أتساءل عما إذا كانوا ينوون جلب المزيد منه.

كان يعرف تمام المعرفة أنه قال هذا لمجرد تعزية نفسه. فالشاحنة ذات العجلات الثلاث تنهي دائماً مهمتها الأخيرة قبل انبلاج الصبح بقليل. أدرك ما يعتزم الأوغاد القيام به. ربما كانوا يحاولون تركيعه بالتوقف عن تزويده بالماء في وقت نفد فيه مخزونه منه. تأمّل الأمر ملياً، وأدرك أنهم ينتمون إلى تلك النوعية التي تتركه يمضي في طريقه وهي تعلم تمام العلم مدى خطورة تفتيت الصخرة من قاعها. من المؤكد أنهم لا يكنّون له كبير تعاطف، ويقيناً أنهم لن يطلقوا شخصاً ليعود حياً وهو يعلم هذا القدر من سرهم، ولو أن الأمر كان كذلك فمن المحتمل أنهم سيقطعون الشوط كاملاً.

وقف عند المدخل، وتطلّع إلى السماء. أخيراً، استطاع تبيّن التباشير الحمراء لشمس الصباح. سُحُب صغيرة تشبه الصوف... ليست من الأنماط التي تَعِدُ بالمطر. بدا أنه مع كل زفير يخرجه يفقد جسمه المزيد من رطوبته.

- ما الذي يعتقدون بحق السماء أنهم يقومون به؟ أيريدون قتلي؟

استمرّت المرأة في ارتجافها، كالمعتاد، ربما كان ذلك راجعاً إلى أنها تعلم كل شيء عما يحدث، فهي في نهاية المطاف متواطئة معهم اتخذت الموقف الذهني لطرف ناله الأذى. فدمها إذن تمالي، فسماتاتها هذه هي جزاء من جنس العمل.

لكن هذه المعاناة ستكون بلا طائل، إذا لم يدع القرويين يعلمون بأمرها، ولم يكن هناك ضمان لمعرفتهم بها. وكان يعلم حق العلم أنهم، وهم أبعد ما يكونون عن الإشفاق عليها، سيضحكون بها دونما وخزة ضمير واحدة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وربما كان هذا هو السبب في فزعها. كان حاله كحال حيوان يدرك أخيراً أن الصدع في السياج الذي كان يحاول الهرب من خلاله لا يعدو في حقيقة الأمر أن يكون مجرد مدخل القفص، شأن سمكة تدرك في النهاية بعد أن لطمت أنفها مرات لا حصر لها أن زجاج وعاء سمك الزينة هو جدار قائم. للمرة الثانية أطيح به دون أن يملك دفاعاً عن نفسه. كان الطرف الآخر هو الآن الذي يمتشق السلاح.

لكن الخوف لا ينبغي أن يستبد به. ويقولون إنه حيثما ينهار منبوذ من جراء الجوع والظمأ فإن الخوف من العوز المفضي، وليس العوز بالفعل، هو الذي يقف وراء انهياره، والهزيمة تبدأ بالخوف من أن المرء قد خسر الصراع. تساقط العرق من أرنبة أنفه. ولو أن القلق كان ينتابه من جراء عدد السنتيمترات المكعبة من الرطوبة التي يفقدها مع كل قطرة لكان معنى ذلك أنه قد سقط بالفعل في الشرك الذي نصب له العدو، وسيكون ما له أعصبته أن يتكهن بطول الوقت اللازم لتبخر كأس من الماء، وليس من شأن ضجة بلا طائل أن تعجل مرور الوقت.

ـ ما رأيك؟ ماذا لو أنني حللت وثاقك؟

كتمت المرأة أنفاسها متشككة.

ـ لا يعني الأمر، إن لم تكن بك رغبة في ذلك. أما إذا أردت أن

أقوم به، فإنّي سأنجزه، ولكن هناك شرطاً واحداً، لا تبرحي الجاروف دون إذني! ما رأيك؟ هل تعدينني بذلك؟

ـ آه، أرجوك!

قالتها المرأة، التي كانت تشبه كلباً اعتصم بالصبر، وشرعت تلحف في الرجاء بحدّة مظلّة قلبتها رأساً على عقب هبّة ريح، أضافت:

ـ أعدك بأي شيء، أرجوك! آه أرجوك!

خلفت الحبال آثاراً حمراء وزرقاء، علاها غشاء مبيض، خضّله العرق، رقدت على نحو ما كانت، وقد رفعت وجهها، وراحت تحكّ كاحليها أحدهما بالآخر، ثم انتزعت رسغيها وبدأت في حلّ القيود واحداً وراء الآخر. صرّت بأسنانها محاولة قمع دموعها، وسال العرق على وجهها. تحوّلت بجسمها تدريجياً، رفعت ردفيها، ونهضت على قوائمها الأربع. وفي نهاية الأمر، وبمزيد من الجهد، رفعت رأسها. راحت لبعض الوقت تؤرجح جسمها للأمام والخلف، وهي في الوضع ذاته.

جلس الرجل في هدوء على المنحدر عند الجزء المرتفع من الأرضية. أفرز بعض اللعاب وابتلعه، وكرّر هذا العمل، فأصبح اللعاب دبقاً كالعجين، والتصق بحلقه. لم يكن، بالطبع، يشعر بالنعاس، لكن حواسه التي شفّها الغروب أصبحت كالورق المبتلّ. طفت معالم الطبيعة أمام ناظريه في بقع وخطوط مشقّقة، كانت حقاً معالم طبيعية تشبه الصورة ـ اللغز. كانت هناك امرأة... ورمل... كانت هناك جرة ماء خاوية... كان هناك دُبّ سائل اللعاب...

كانت ثمة شمس. وفي مكان ما، لم يدر موضعه على وجه الدقة، لا بد أن هناك أيضاً مركز عاصفة وخطوط انقطاع. ترى من أين يحق الله يبدأ في حلّه لهذه المعادلة المليئة بالمجاهيل؟

نهضت المرأة على مهل، ومضت نحو الباب.

- إلى أين تمضين؟

غمغمت بشيء ما، كأنها تتجنّبه، فلم يستطع إدراك ما قالته، لكنه فهم معنى حرجها. أخيراً، تناهى من وراء الجدار الخشبي صوت تبول. وبشكل ما بدا كل شيء بلا طائل.

- ١٩ -

ما أصدق هذا القول! ليس الزمن كالجواد، يمكنك أن تنخسه، فتزيد سرعته. لكنه ليس بطيئاً، كعربة تدفع بالأيدي. اكتسبت حرارة الضحى حدّتها المعتادة تدريجياً، وبدأ فمه ومقلتاه في الاشتعال، واخترقت الحرارة أحشاءه، واتقدت رئتاه.

تحركت النداوة، التي امتصتها الرمل خلال الليل الى بخار، وانطلقت عائدة من حيث أقبلت، ويرق الرمل بضوء جعله يبدو، من خلال سنا الشمس المنكسر، كالأسفلت الرطب، لكنه ظل أساساً ثُمْنَ المليمتر الصرف الأشدّ جفافاً من دقيق صرف معلّب في التصدير.

سرعان ما حدث أول انهيار رملي، دوى ضجيج اعتاده، وأصبح

جزءاً من مسار الحياة اليومية، لكنه تبادل النظرات مع المرأة، دونما قصد. فما هي العواقب التي ستنجم عن ترك الرمل على حاله لمدة يوم؟ وفيما غلب على ظنّه أن هذه العواقب ليست بالخطيرة، إلا أن القلق ما انفكّ يساوره، لكن المرأة أشاحت بناظريها بعيداً، ولزمت الصمت، وأعطت نظرتها المكتئبة انطباعاً، قوامه أنّ عليه أن يكترث بالأمر كيفما حلا له وحده، وليتحمّل به اللعنة، إن وجّه إليها المزيد من الأسئلة. وفيما كان الانهيار الرملي يبدو أنه يتداعى متهافتاً، ومتحولاً إلى خيط رملي منساب كان نطاقه يتسع من جديد، ليبلغ حجمه عرض الحزام الرملي، ويكرر العملية في صورة نوبات وبدايات، وفي نهاية المطاف يتوقّف في هدوء.

لم يبد الانهيار الرملي بمثابة تأكيد خطيراً بما يدعو إلى القلق. وندّت عنه تنهيدة طويلة، ودوى نبضه في عروق وجهه، واستشعر إحساساً حارقاً. بدأت على حين غرة فكرة شراب الساكي الرخيص، التي حاول حتى وقتذاك ألا يفكر فيها، تجتذب أعصابه الى نقطة محددة، مثلما تجب يطفو في الظلمة. سيكون أيّ شيء مناسباً، فقد أراد أن يرطّب حلقه، ولئن ترك الأمور تجري في أعنتها فإن الدم سيتضاءل في جسمه. كان يعلم تمام العلم أنه يفرس بذور معاناته، وأنه سيندم على هذا فيما بعد، لكنه لم يستطع الاستمرار في المقاومة، فانتزع السدادة، ودفع الزجاجة بين شفتيه، واحتسى الساكي. لكن لسانه، شأن كلب حراسة يقظ بغته مهاجم غير متوقّع، أطلق نباحاً مدوياً. غصّ بما شربه، إذ كان يشبه نثر الكحول على جرح. ورغم ذلك لم يستطع كبح جماح رغبته في جرعة ثانية، بل وثالثة. يا له من ساكي رهيب!

ولما كانت المرأة ماثلة أمامه، فقد عرض عليها بعض الساكي

كذلك، وقد رفضته بالطبع. وكان رفضها صالقاً فيه كأنما كان يجبرها على احتساء السمّ.

وكما كان يخشى، تصاعد الكحول مرتداً من معدته إلى رأسه، كأنه كرة بينج بونج، مدوياً، كأنه طنين نحلة في أذنيه، وشرع جلده يتصلّب مثلما جلد خنزير. كان دمه يتكثّد... كان دمه يحتضر!

ـ ألا تستطيعين القيام بأي شيء؟ لا بد أن الأمر شاق عليك كذلك. سأحلّ وثاقك، فافعلي شيئاً!

ـ ليكن، ولكن إذا لم أحضر أحدهم من القرية لجلب الماء...

ـ طيب، لمَ لا تفعلين هذا؟

ـ بمقدوري هذا... لو بدأنا في العمل فقط...

ـ كفاك سخفاً! من أين حصل هؤلاء الناس على حق إبرام مثل هذه الصفقة العبثية؟ قولي لي! ليس هذا بمقدورك. أليس كذلك؟ ليس لهم الحق في ذلك، وأنت تعلمين هذا!

نكست المرأة ناظريها، ولزمت الصمت. يا له من موقف! تغيّر لون السماء، التي بدت جلية عبر الباب، من الزرقة إلى البياض المتوهج، كالجزء الأدنى من فرقعة بحرية. لو سلم بأن الالتزام هو جواز سفر الانسان بين بني البشر، فلمَ يتعيّن عليه الحصول على إذن من القرويين؟ إن الحياة الإنسانية لا ينبغي أن تكون العديد من رقاع الورق المتناثرة. الحياة يوميات ملزمة، وتعدّ صفحة أولى واحدة كثيرة بالنسبة لكتاب واحد، وليست هناك حاجة إلى قيام المرء بواجبه بالنسبة لصفحة لا ترتبط بما سبقها من صفحات. لا يمكن للمرء أن

يتورّط في كل مرة يوشك أحدهم على التضوّر جوعاً. اللعنة! كان يريد ماء، ولكن مهما تعاظمت رغبته فيه، فليست له الأجسام الكافية لشهود كافة صلوات الجنائز على أرواح أناس لا يمتون لي شيء.

بدأ انهيار رملي آخر.

نهضت المرأة واقفة، وتناولت مقشة من الجدار.

- ليس بمقدورك العمل! لقد وعدتني. أليس كذلك؟

- كلا، كلا، إنها للحشية.

- الحشية؟

- إذا لم تنل قسطاً من النوم سريعاً...

- إذا أحسست بالنعاس. سأعنى بها بنفسي.

أحس بصدمة تهزّ الأرض، ووقف متسمراً في موضعه. للحظة بدا كل شيء ضبابياً، في غبار الرمل الذي انهال من السقف. لقد تجلّت في نهاية المطاف عواقب التوقّف عن إزالة الرمال. وإذ لم يتح لهذه الأخيرة سبيل تسلكه، فقد شرعت في السقوط. أنّت مفاصل العروق والدعامات كأنها تعاني أهوال العذاب. لكن المرأة لم يبد عليها الاكتراث بشكل خاص، وهي تحدق في ثبات في عتبة عليا داخلية. لاح الضغط وكأنه لا يزال محصوراً حول قاعدة الدار فحسب.

- اللعنة! هل يعتزمون حقاً الاستمرار على هذا النحو إلى الأبد؟

يا لقلبه متسارع الدقات! كان يتقافز مثل أرنب خائف، كأنما عجز عن البقاء في تجويفه، وبدا كأنه على استعداد للزحف في أي مكان.. فمه، أذنيه، أو حتى إلى أحشائه. أصبح لعابه دبقاً على نحو أشد، ووصل الجفاف في حلقه إلى المستوى ذاته من السوء، وربما كان

ذلك راجعاً إلى أن الساكي الرخيص لم يرو ظمأه على نحو مناسب، وبمجرد انقشاع الكحول فإن ظمأ سيتقد من جديد، وستحركه ألسنة اللهب إلى رماد.

ـ لا بدّ أنهم يشعرون بالارتياح... وهم يقومون بهذه الأمور. فهم لا يتسمون بأفخاخ فئران. ترى ماذا سيفعلون إذا هلكتُ؟

رفعت المرأة وجهها، كأنما لتقول شيئاً، لكنها عدلت فجأة عن ذلك وواصلت صمتها الدائب، ويبدو أنها لم تعتقد أن ما طرح جدير بالرد على الإطلاق.

ليكن! إذا قدر لنهاية واحدة على كل الأحوال أن تحدث، فلمَ لا يجرب ما يستطيع القيام به كائناً ما كان؟

احتسى جرعة أخرى من زجاجة الساكي. وغادر الدار مسرعاً، لكنه انقلب على عقبيه، كأنما لطم رصاص مصهور عينيه. دار الرمل، الذي تدفق إلى التجاويف التي خلفتها قدماه، مدوّماً. وهنالك في العبد كان على وجه اليقين الموضع الذي انقضّ فيه على المرأة وأحكم وثاقها البارحة. ومن المؤكد أن الجاروف مدفون في مكان غير بعيد، ولبعض الوقت توقّف انهيار الرمال، ولكن على الرغم من ذلك فقد واصلت الرمال على الصخرة الواقعة لجهة البحر تدفّقها الذي لا يكلّ، وبين الفينة والفينة، وإذ تدفعها الريح، تنهال من وجه الصخرة، متموّجة كأنها قطعة ملابس. راح يبحث عن الجاروف بأصابع قدمه محاذراً أن يتسبب في انهيار رملي.

ورغم أنه تفحّص الرمل بعمق، فإن قدمه لم تلق مقاومة على الإطلاق. وسرعان ما أصبحت أشعة الشمس المباشرة شيئاً لا يطاق.

احتصر يؤبؤي عينيه حتى أصبحا رأسي دبّوس، وشرعت صدغاه تنتفض، كأنه قنديل بحر، واخترق ألم حادّ جبينه. ينبغي أن يكفّ عن فقدان المزيد من العرق. كان هذا هو الحد الأقصى. راح يتساءل عما كان يمكن أن يقوم به بالجاروف، كان قد أخرجه معتزماً استخدامه كسلاح، هذا شيء مؤكد، فلا بد إذن أنه قريب من هنا. حدّق ياممان في سطح الأرض، فأدرك فجأة أنه عند إحدى النقاط يرتفع الرمل متخذاً شكل جاروف.

شرع في البصق، لكنه توقف سريعاً، فلا بد أن يحتفظ في جسمه حتى بأدنى قدر من الرطوبة. فصل اللعاب عن الرمل بين أسنانه وشفتيه، وبطرف أصبعه أزاح ذلك الجزء الذي تبقّى بين أسنانه وحده.

كانت المرأة، التي واجهت الجانب الآخر في ركن من أركان الغرفة، تعكف على القيام بشيء ما في الكيمونو الذي ترتديه. ربما كانت تحلّ زنّارها أو تزيل الرمل الذي تراكم عليه. أمسك في قوة بمنتصف مقبض الجاروف، ورفعه إلى مستوى كتفيه. سدّد إلى الجدار الذي يحيط بالأرضية المتربة قرب المدخل، ورفع الجاروف عالياً بالحافة القاطعة.

صرخت المرأة به هاتفة من خلفه. هوى بالجاروف، ملقياً وراءه بكل ثقله، فنفذ الجاروف على نحو مخيب للأمال عبر ألواح الجدار. إذ لم تكن لها إلا مقاومة بسكويتة هشّة مبلّلة، وكانت تبدو بعد أن مسحها الرمل جديدة تماماً من الخارج، ولكن بدا جلياً أنها قد بدأت بالفعل في التحلّل.

ـ ماذا تفعل؟
ـ أحطم هذا الخشب لأصنع منه سلماً.

جرّب خطّة في بقعة أخرى، فجاءت النتيجة مطابقة لما سبق. كانت المرأة على حق فيما يبدو حينما قالت إن الرمل يجعل الخشب يتحلل. وإذا كان الجزء من الجدار الذي يتعرض أكثر من غيره للشمس على هذه الشاكلة، فبمقدوره أن يتخيل حالة الأجزاء الباقية، كان أمراً مدهشاً أن مثل هذه الدار المتهالكة تقف منتصبة في موضعها على الإطلاق. فقد كانت متداعية ومتهالكة كأنما ضربها فالج. وربما كانت مثل هذه الهياكل ممكنة ديناميكياً، حيث أنه فيما يبدو يبنون دوراً من البلاستيك والورق هذه الأيام، ولكن...

إذا كان هذا هو حال الألواح، فليجرب العروق العرضية.

ـ لا يمكنك القيام بهذا. كُفّ! أرجوك!
ـ سنحملنا الرمال في نهاية المطاف على أية حال.

رفع ذراعيه ليوجه ضربة جديدة، دونما اهتمام، لكن المرأة وثبت عليه بهتف صارخة، فدفع بكوعه، وثنى جسمه، في محاولة لدفعها عنه، لكنه أساء تقدير الموقف، وبدلاً من أن يدفع المرأة أطاحت هي به. حاول الردّ في التوّ، ولكنها تمسّكت بالجاروف كأنما قُيّدت إليه بأمراس. لم يدرك ما جرى، فعلى الأقل لا يمكن أن يهزم بالقوة، تدحرجا أحدهما على الآخر مرتين أو ثلاث مرات، وهما يتصارعان، على الأرض المتربة. وللحظة قصيرة اعتقد أنه قد ثبتها أرضاً، ولكنها قلبته، مستخدمة الجاروف كترس لها. لا بد أن شيئاً أصابه. ربما كان ذلك مرجعه إلى الساكي الذي شربه. وعلى أية حال فلم يعد بكثرث بكون خصمه امرأة، ولطم معدتها بركبته المثنية.

صرخت المرأة متألمة، وفجأة خاضت قوتها، فتدحرج فوقها في الحال، وثبتها أرضاً. كان نهداها قد انكشفا، وانزلقت يداه على جلد جسمه العرق زلقاً.

تجمّدا فجأة في موضعهما، مثلما يحدث في فيلم حينا يتحطم جهاز العرض. كانت لحظة مجمدة ستدوم طويلاً، إن لم يجر أي منهما حراكاً. كان بمقدوره أن يحس، بحيوية، امتداد نهديها وقد تمدّدا تحت معدته، وبدا عضوه وكأنه شيء حيّ، مستقلّ تمام الاستقلال عنه. فكفّ للحظة عن التنفس، وبتحوّل بسيط من جسمه كان يمكن للصراع على الجاروف أن ينقلب إلى شيء آخر مختلف تمام الاختلاف.

ارتفع حلق المرأة، فيا هي تحاول ابتلاع اللعاب المتراكم في فمها، فتلقّى عضوه هذا على أنه إشارة للانخفاض، لكنها قاطعته بصوت مبحوح:

ـ نساء المدينة جميلات، أَلَسْنَ كذلك؟

ـ نساء المدينة؟

استشعر الخجل فجأة، وراحت الحمى التي انتابت عضوه المنتفخ تنحسر. بدا أنهما تجاوزا الخطر من تلقاء ذاتيهما. لم يكن قد أدرك أن المسلسلات التلفزيونية السطحية يمكن أن تواصل الحياة حتى في قلب الرمال.

غير أنه بدا أن المرأة العادية مقتنعة تمام الاقتناع بأنها لا تستطيع حمل رجل يدرك قيمتها ما لم تقم في كلّ مرة تفتح فيها فخذيها بإثبات ذلك كما لو كان مشهداً في مسلسل تلفزيوني. لكن هذا الوهم

البريء والمثير للشفقة جعل النساء في حقيقة الأمر ضحايا لاغتصاب روحاني أحادي الجانب.

كان قد قرر مع امرأته الاخرى أنه سيستخدم على الدوام عازلاً مطاطياً، فهو حتى الآن ليس مقتنعاً بأنه شفي تماماً من المرض الجنسي، الذي أصابه يوماً ما، ودائماً كانت نتائج الاختبارات تأتي سلبية، ولكن بعد التبول كان يجري بوله بهدأة في إحليله، وحينما فحص عينة في أنبوبة اختبار، وجد، تماماً على نحو ما كان يخشى، شيئاً طافياً فيها، يشبه قطعة من خيط بال، وقد شخصه الطبيب على أنه اضطراب عصبي، ولكنه لم يستطع التخلص من الشك في أنه لا يزال المرض القديم بعينه.

ـ طيب، العازل المطاطي يناسبنا تماماً. أليس كذلك؟

كان جلد رقيق يكسو نكَيها الصغيرين وشفتيها، وكان الدم يبدو جلياً من خلاله، كانت تتحدث بقدر معين محسوب من النكاية، أضافت:

ـ الأمر بيننا يشبه الشراء في متجر تنويعي. أليس كذلك؟ وإذا لم يرق لك شيء يمكنك أن تعيده في أيّ وقت. فأنت تحزم رأيك، مطلاً على شيء مغلف بالبلاستيك ـ وبمقدورك النظر دون أن ترى الغلاف، تساءل عما بالداخل، تساءل عما إذا كان بمقدورك الاطمئنان إليه تساءل عما إذا كان الأسف لن يكون حليفك في وقت لاحق إذا ابتعت شيئاً غير مناسب الآن.

ولكنها في قرارة نفسها ربما لم تكن راضية عن مثل هذا النمط من العلاقات الذي يعتمد على النموذج التجاري... تذكَّر رائحة الميقي

التي تفوح بالعطور فيما هو يشرع في إحكام تزرير سرواله وقد أحس بالفعل بأنه يجري استعجاله... والمرأة لا تزال عارية على الفراش ومنشفة مدسوسة بين فخذيها.

- لكن لابأس إذا شعرت بين الحين والآخر وكأنك تعرض صفقة ما. أليس كذلك؟

- كلا، ليس الأمر كذلك، فأي عرض...

- لكنك شفيت الآن. أليس كذلك؟

- إذا كنت تعتقدين ذلك فلمَ لا توافقين إذن على المضي قدماً دونما احتياط؟

- هلمّ، الآن، لماذا تحاول التنصّل من مسؤولياتك؟

- طيب، ألم أقل إنني لا أحب فرض صفقة على أحد؟

- أمر غريب جداً. ما شأني بمرضك التناسلي بحق السماء؟

- ربما كان لك شأن به.

- لا تكن سخيفاً!

- طيب، على أية حال فأنا أسحب الصفقة الإرغامية.

- طيب، ألا تعتزم أبداً مطاهرة عضوك طوال حياتك؟

- أتساءل لِمَ تبدين كل هذا القدر من عدم التجاوب؟ سيكون من الطبيعي بالنسبة لك أن تأخذك الشفقة عليّ إذا تضاجعنا.

- بتعبير آخر فأنت مصاب بمرض تناسلي نفساني. أليس كذلك؟ وبالمناسبة فقد اضطر للعمل غداً.

إحم، مرض تناسلي نفساني، هكذا راح يحدث نفسه، وهو

يتناسب. إنه تعبير حاذق ذلك الذي سكّه، ولكنها لن تعرف أبداً مدى الألم الذي سببه له هذا التعبير. فالمرض التناسلي هو في المقام الأول ضد المسلسل التليفزيوني على وجه الدقة، والمرض التناسلي هو أكثر البراهين بأساً على أن المسلسل التليفزيوني لا وجود له على أرض الواقع، والمرض التناسلي... الذي استورده كولمبوس خلسة في مراكبه الصغيرة إلى مرافئ صغيرة... ونشره الجميع على نحو اجتهادي في جميع أنحاء العالم. فالناس متساوون أمام الموت والمرض الجنسي. المرض الجنسي... المسئولية الجماعية للبشر. ورغم ذلك فقد رفضت مطلقاً الإقرار به، وحبست نفسها داخل حكاية «أليس في بلاد العجائب» الخاصة بها، حيث اضطلعت هي نفسها بالدور الرئيسي، وقد تُرك وحيداً على هذا الجانب من المرآة، يعاني من مرض تناسلي نفساني. وهكذا شُلّ عضوه العاري الذي أجري له الطهور، وغدا بلا نفع. لقد جعلته مرآتها عنّيناً، وحولته براءتها النسائية إلى عدو.

- ٣٠ -

كان وجهه متصلباً كالنشا، وتنبثّ كالعاصفة، واكتسب لعابه طعم السكر الجاف المحترق... وياله من فقدان للطاقة! لا بد أن ملء كوب من الماء قد تبخّر عرقاً. نهضت المرأة ببطء، ورأسها لا يزال محنياً. وصل وجهها الذي علته طبقة من الرمل، إلى حوالي ارتفاع عينيه، فحدقت فجأة مستخدمة إصبعها، ومسحت يديها بالرمل الذي أمسكت بحفنة منه. إنزلق سروالها عن ردفيها المشدودين.

أشاح بعينيه بعيداً، وقد استبدّ به الضيق، لكنه لم يكن من الصحيح تماماً القول بأن الضيق استبد به فحسب، فقد تأرجح إحساس غريب، مختلف عن الجفاف، على طرف لسانه. كان عضوه ينتفض ويتذبذب دون عازل مطاطي وإن كان ذلك لوقت قصير، إلى أن أطفأ التعبير الأبله الذي فاحت به المرأة توهجه، والآن بقي دفء متأرجح، وربما كان من قبيل المبالغة وصف هذا بأنه اكتشاف، ولكنه كان جديراً بالاهتمام للحظة.

لم يكن يحس بأنه منحط جنسياً على نحو خاص، لكنه لم يكن على الإطلاق ميالاً للاغتصاب الروحي فقط. كان الأمر يشبه أكل مستحضر نشوي لصنع الحلوى لم تجر تحليته. فالاغتصاب الروحي يعني أنه قبل أن يتمكن من إلحاق الأذى بها سيكون قد آذى نفسه. ولم يتعيّن عليه أن يلتقط حتى مرضاً تناسلياً نفسانياً؟ سيكون ذلك ضغثاً على إبالة. أصحيح أن غدد المرأة ضعيفة إلى حد أن الدم يصدر عنها لا لشيء، إلا لأن رجلاً تطلع إليها؟

أحس، على نحو غامض، بأن هناك نوعين من الرغبة الجنسية، فعلى سبيل المثال، وعلى أساس دائرة «مويبوس» حينما تغازل فتاة فإنك تبدأ دائماً فيما يبدو بمحاضرات في الغذاء والذوق... أي أنك تحوم حول الجنس. والطعام لا يوجد إلا بالمعنى المجرد بالنسبة لشخص يتضوّر جوعاً، فليس هناك ما يمكن تسميته بطعم لحم أبقار كوبي أو محار هيروشيما. ولكن ما إن تمتلئ معدة المرء حتى يبدأ في رصد الاختلافات في الطعم والأنسجة. والأمر ذاته ينطبق على الرغبة الجنسية، ففي البداية تأتي الرغبة بشكل عام، وبعد ذلك فحسب

لتطور الأذواق الجنسية الخاصة، والجنس لا يمكن أن يناقش بشكل عام، إذ هو يعتمد على الزمان والمكان... في بعض الأحيان تحتاج لجرعة من الفيتامين... وفي أحيان أخرى تحتاج طبقاً من الانقليس بالأرز. كانت تلك نظرية أحكم وضعها، ولكن من المؤسف أنه ما من فتاة واحدة قدمت نفسها، تأييداً لها، معربة عن استعدادها لتجريب الرغبة الجنسية بشكل عام أو الجنس على وجه التخصيص، وكان هذا أمراً طبيعياً، فالنظرية وحدها لا تجتذب رجلاً أو امرأة، وكان يعرف هذا، لكنه عمل، على نحو ساذج، بنظرية دائرة «موبيوس»، وظل يواصل تكراراً الضغط على زر الجرس في منزل خاو، لا لشيء إلا لأنه لم يكن يرغب في اقتراف الاغتصاب الروحي.

ومن المؤكد أنه هو نفسه لم يكن من الرومانسية بحيث يحلم بعلاقات جنسية خالصة. فيمقدورك القيام بهذا حينما ترى الموت رأي العين... مثل عشب الخيزران، الذي ينبت بذوراً حينما يشرع في الذبول... مثل الفئران المتضررة جوعاً، التي تسافر مراراً وتكراراً في اهتياج وهي تهاجر... مثل مرضى ذات الرئة، الذين يأخذ بناصيتهم جميعاً لون من ألوان الجنون الجنسي... شأن الملك أو الحاكم، الذي يقبع في برج، ويكرس نفسه للتحريم... كالجندي الذي تعد كل لحظة ميتة بالنسبة له، فيما هو ينتظر صولة العدو، فيمضي تلك اللحظات الاخيرة في الاستمناء...

غير أنه من حسن الطالع أن الانسان ليس معرضاً على نحو عشوائي لأخطار الموت، ولم يعد الخوف يجتاحه، حتى في الشتاء، فقد أمكن من تحرير نفسه من وقر الدافع الجنسي الموسمي. ورغم ذلك، فحينما انتهى الصراع أصبحت الأسلحة مرهونة. لقد حل النظام، وأصبحت

القدرة على التحكم في الجنس والقوة الوحشية في قبضة الانسان، بدلاً من قبضة الطبيعة. هكذا فإن الجماع يشبه بطاقة السفرات المتعدّدة، لا بدّ من ختمها في كل مرة تستخدمها. ولا بدّ لك بالطبع من التدقيق للتأكد من أن البطاقة أصلية، لكن هذا التدقيق عمل شاقّ، فهو يتّفق مع تعقيدات النظام، فكل أنواع الشهادات: العقود، التراخيص، بطاقات الهوية، بطاقات الزيارة، الأذون، براءات الأنساب، أذون التخويل، التسجيلات، أذون النقل، شهادات العضوية، التصريحات المؤقتة، الاتفاقيات، شهادات الدخل، الإيصالات، وحتى شهادات النسب... كل الأنواع التي يمكن تصوّرها من الأوراق ينبغي حشدها غير العمل.

وبفضل هذه الضوابط يدفن الجنس تماماً تحت ركام الشهادات... كأنه دودة بلا أطراف. وأحس أن كل شيء سيكون على ما يرام إذا كان هذا مرضياً، ولكن إذا كان الأمر كذلك فهل يعني هذا نهاية الشهادات؟ ألن يكون هناك شيء آخر نسينا أن نشهد به ونعلنه؟ إن الرجال والنساء على السواء أسرى في يد غيرة قاهرة، وكل منهم يتشكّك في أن الطرف الآخر أسقط شيئاً ما عن عمد، وهم مضطرون، لإظهار أمانتهم، إلى إصدار شهادة جديدة. لا أحد على وجه الدقّة يعرف أين سيتوقف الأمر، وفي نهاية المطاف فإن الشهادة تبدو لامتناهية

وإنها تلومني لأنني مولع بالجدال، لكنني لست الطرف المولع بالجدال. تلك هي الحقيقة

ـ ولكن أليس ذلك التزاماً بالحب؟

ـ كلا، على الإطلاق. إنه ما يبقى بعد أن تزيل الضوابط من خلال عملية تصفية، وإذا لم تكن لديك كل هذه الثقة، فربما لن يكون لديك شيء منها على الإطلاق.

ليس هناك التزام بالمضيّ بهذا إلى حد ـ وإلى الذوق اليائس ـ تغليف الجنس كالهدايا. دعنا كل صباح نندفع على نحو متعثر إلى رحاب الجنس أيضاً. في الجنس ما أن يبلى الغطاء الخارجي له حتى يغدو هو ذاته قديماً بالفعل، تشدّ التجاعيد فيغدو كالجديد مرة أخرى، وإذ يبدو جديداً فإنه ينقلب قديماً في التوّ... أهناك أي التزام بالإصغاء لمثل هذه البذاءات؟

بالطبع، إذا كان بمقدوره الإحساس بأن هذا الترتيب يقدّم ضماناً ما للحياة فإنه يظلّ هناك مجال للوصول إلى حل وسط. ولكن ماذا عن الواقع؟ إن شركة الموت تسقط من السماء، وأشكاله ألتي لا تعدّ ولا تحصى لا تدع لنا مجالاً للحركة. وفي الجنس أيضاً يبدو المرء كما لو كان يستشعر هاجساً غامضاً، شعوراً بأن ما ترك له ليس إلا كمبيالة زائفة، وهكذا يبدأ المرء في تزوير البطاقة متعددة السفرات، لأنه لا يحس بالإشباع على الصعيد الجنسيّ. طيب، ليكن، فهذا عمل طيّب. أو يقرّ المرء بأن الاغتصاب الروحي هو شر لا مفر منه. وعلى أية حال، فبدونه لن تعقد أية زيجات. ومن يحبذون الجنس الحر يتصرفون بالطريقة ذاتها، فهم لا يقدمون إلا عقلنة محتملة للاغتصاب المتبادل. وإذا ما قبلته على هذا النحو فإنه من الممكن الاستمتاع به كذلك. فالحرية ترتبط بالقلق الدائب ـ مثل ستار لا يغلق تماماً ـ ولا يمكن أن تسفر إلا عن مجرمين جنسيين. لم تكن هناك فرصة أمام عضوه المثير للإشفاق ليتخلص من حشفته ويسترخي.

بدا أن المرأة تستشعر آليات انفعالات الرجل، فتوقفت في منتصف ربطها لسير سروالها، وتدلّى الطرف المتساب للسير من بين يديها، ونظّرت إليه بعينين تشبهان عيني الأرنب، ولم تكن مشابهتها لعين الأرنب راجعة فقط إلى جفونها الحمراء. ردّ عليها الرجل نظرتها بعينين كفّ الزمن عن الدوران فيها، لفّتها رائحة نفّاذة تشبه رائحة غضروف قملي.

مرّت إلى جواره مسرعة، وهي لا تزال تمسك بسير سروالها، ومضت إلى غرفتها، حيث شرعت في خلع سروالها. كانت طريقتها طبيعية تماماً، حتى بدت وكأنها تواصل ما كانت تقوم به من قبل. فرك الرجل بديه في أعماقه تطلعاً لما ينتظره، فمثل هذه المرأة هي امرأة حقيقية، لكنه أعاد النظر في الموقف تواً. باللغي! من المؤكد أنه مثل هذا التوقد سيفسد الأمر. وضع يده مسرعاً بدوره على حزامه، لو أن هذا حدث بالأمس لربما كان قد حل مسلكهما على محل التلاعب النسوي المكشوف، مثل ضحكاتها وإبرازها لفازتيها، وربما كان الأمر كذلك بالفعل. لكنه لم يرغب في التفكير بهذا. لقد انقضت المرحلة التي كان يمكن أن يساوم فيها على الجسد. والآن حسمت القوة الموقف. كان هناك أساس مناسب للتفكير في أن العلاقات ستكون مقبولة بصورة متبادلة، وإنه يمكن استبعاد المسارمة من أجل الحصول على إذن.

انسال دقيق محدود من الرمل، جثا إلى جنب مع سرواله، على قاعدة عضوه، وسقط بطول فخذيه، وانبعثت رائحة كريهة تشبه رائحة جوارب فضة، وراح عضوه ينتفخ من جديد على مهل ولكن بثقة، بضغطات تحاكي ضخّات مضخة مائية كان الماء قد أغلق الطريق

في وجه تدفقه عبرها. الكف العضو الجامح، رافعاً رأسه، فلذي لم يعرف الظهور، ونشر جناحيه، وذاب مندفعاً عبر المرأة التي كانت قد غدت عارية بالفعل.

ترى هل يجد الأمر حتماً؟ بالطبع كان كل شيء مضبوطاً ومناسباً، كأنما هو مطابقة لرسم بياني مفرغ بشكل معادل: التنفس، الشرقيت، الغرفة، المرأة. أهذا ما كان يدعوه الرجل الـ « موبيوس » بالرغبة الجنسية العامة؟ ربما، ولكن يا لها من عجيزة ملموسة! لا يمكنك أن تقارنها بأكياس العظام المتهالكة التي تلتقطها من الشوارع.

كانت المرأة قد بدأت، وهي مرتكزة على إحدى ركبتيها في إزالة الرمل عن عنقها بمنشفة، لفتها حتى غدت كرة. انهال فجأة تيهور من الرمال، وارتجف المنزل بأسره، وأصدر أنيناً حاداً. تدخل مثير أمام جبين غطى رمل كالسديم رأس المرأة بالبياض، وتراكم على كتفيها وذراعيها. ما كان يمكن للاثنين، وقد ارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر متشبثاً، إلا أن ينتظرا انجلاء التيهور.

تقاطر عرقهما إلى الرمل الذي كان قد تجمع، وانهال المزيد من الرمل على العرق، وارتجفت كتفا المرأة، فأحس بأنه ماء تم تسخينه إلى درجة فائقة، كما لو كان يوشك على الغليان، غير أنه لم يستطع فهم سر انجذابه على هذا النحو إلى فخذيها. لكنه كان منجذباً إليها... حتى لقد ود لو أخذ بأعصاب جسمه، فلفها عصباً وراء الآخر حولها. لا بد أن شهية الحيوانات آكلة اللحوم على هذا الغرار تماماً: فجة ونهمة، جالدها كأنه ثعبان انطوى طيات. كانت تلك تجربة لم يخض غمارها مع المرأة الأخرى. على ذلك الفراش ـ مع المرأة

الأخرى ـ كانا يحسّان بأنهما رجل وامرأة. رجل وامرأة يراقبان، كان رجلاً يراقب نفسه وهو يجرّب وامرأة تراقب نفسها وهي تجرّب، كانا امرأة تراقب رجلاً يراقب نفسه ورجلاً يراقب امرأة تراقب نفسها، كل هذا في مرايا حاكية... الوعي اللانهائي للفعل الجنسي. ومن حسن الحظ أن الرغبة الجنسية التي يرجع تاريخها إلى حوالي مائة مليون عام منذ الأميب تصاعدياً لا تبل بسهولة، ولكن ما كان يحتاج إليه الآن هو عاطفة نهمة، استثارة تكتسح أعصابه إلى فرج المرأة.

توقّف تيهور الرمال، وكأنما كان ينتظر ذلك منه، شاركت المرأة في مسح الرمل عن جسمها، ضحكت بصوت مبحوح، غدت يداه أكثر إلحاحاً وإصراراً، فها هما تمرّان من نهديها تحت إبطيها، ومن هناك إلى عانتها، انغرست أصابعها في عنقه، وبين اللفتة والأخرى كانت تندّ عنها صرخة من فاجأه ما لم يخطر له على بال.

سادت تقلّصات متشنجة، وتكرّر الأمر مجدداً... التكرار ذاته، الذي لا يتغير، الذي كرّس له نفسه، وهو يحلم بأمور أخرى: الأكل، التنزه، النوم، الفراق، الصياح، المضاجعة.

ـ ٢١ ـ

واصلت تقلّصات الرجل مراكمة طبقات لا نهاية لها من الأحافير. فقدت أسنان الديناصور وأنهار الجليد قوتها في مواجهة هذا الاندفاع التوالدي بصرخاته ونشرته، وأخيراً اعتصر ضوء ثاقب أشهب جسمه

المنخفض حتى الجفاف... النجس سرب نيزكي مخترقاً الظلمة الممتدة بلا حدود... نجوماً صدئة برتقالية اللون... عاصفة قلوية.

تجرجر للوهيج، واختفى في نهاية المطاف، ولم يعد ليدي المرأة اللتين راحتا تربتان أليتيه كي تسحته أيّ تأثير، ذوت أعصابه، التي تدفقت إليها، مرتدة، كأنها فجلة ضربها الجليد، وأصاب الشلل عصبه من شغفي المحارة. وبدورها خاصت المرأة مرتدة مرهقة في اختباط لاهث بعد أن كانت قد دفعت بردفيها مترددة في إخلاء سبيله.

واح شراع قديم يتحلل بصورة تامة وراء خزانة ذات أدراج... طريق عريض يمتد أمام ممشى للدراجات، اعتاد ان يمود منه منطفى مشوار النوم.

كان كل شيء بلا طائل في نهاية المطاف، ولم يتم إنهاء شيء. لم يكن هو الذي أشبع رغباته، وإنما شخص آخر فيما يبدو، شخص استعار جسمه. لم يكن الجنس، بطبيعته، محدداً من خلال جسم فرد واحد وإنما من خلال النوع بأسره. والفرد إذ ينتهي من فعله الوضيع لا بد له أن يعود إلى ذاته. والسعداء وحدهم هم الذين يعودون إلى الاغتباط، أما أولئك الذين كانوا حزانى فإنهم يعودون إلى رحاب اليأس، والذين كانوا يحتضرون يعودون الى فراش موتهم. ترى كيف أمكن أن يقتنع بأن مثل هذا الخداع كان حباً مفعماً بالعاطفة؟ وهل إن هناك في هذا الحب المفعم بالعاطفة شيء أفضل من الجنس خلال ركوب القطارات؟ ولو أنه كان هناك ما هو أفضل لكان خيراً له أن يغدو زاهداً صيغ جسمه من زجاج. أخذته سنة قصيرة من النوم،

فيا يبدو، لفه العرق والإفرازات، التي كانت رائحتها تشبه رائحة زيت السمك الزنخ، وغرق في الأحلام، كان أبرزها حلمٌ عن مرحاض لا سبيل للعثور عليه، رغم أنه كان بمقدوره سماع صوت الماء المنساب فيه، عن حمّام عمومي امتلأ مرحاضه بالغائط، حتى فاض على جوانبه، عن دهليز طويل شرعت أرضيته في التفلل والالتواء، عن كأس مشروخة، كان هناك رجل يجري حاملاً مزادة، وحينها سأله جرعة ماء فحسب تجهم الرجل عن وجه يشبه المجذوب واندفع مبتعداً.

أفاق من نومه، كان لصوق حاد دبق يدوب على ظهر لسانه، فقد عاد إليه الظمأ الذي كان يعانيه مضاعفاً، تاقت نفسه إلى الماء، ماء متألق صاف كالبلور، مع انطلاقات فضية لفقاعات الهواء من قاع الكأس. كان أشبه ما يكون بحمار في بيت مهجور، تغطيه أنسجة العناكب، ويغمره التراب، يشهق كأنه سمكة.

عندما انتصب واقفاً، أحس بيديه وذراعيه كأنها أكياس مطاطية أترعت بالماء. التقط الغلاية الخاوية، التي كانت ملقاة على الأرضية المتربة، ووضع طرفها في فمه، بعد حوالي ثلاثين ثانية بللت نهاية لسانه أخيراً قطرتان أو ثلاث قطرات، لكنه ظل جافاً، كالورق النشاف، فازداد تقلص حلقه التواق، كأنما أدركه الجنون.

حلّ به سعار في سعيه وراء الماء فراح ينقب فيما حول حوض الغسيل عن أي شيء يمكن أن يضع يديه عليه. ومن بين كل المركبات الكيماوية يعدّ الماء المركب الأكثر بساطة، فلا ينبغي أن يكون من المستحيل العثور عليه في مكان ما... مثل قلى منسيّ في درج من أدراج مكتب. هاك! لقد اشتمّ رائحة ماء. إنها دونما شك رائحة ماء، اغترف مسرعاً بعض الرمل الندي من قاع جرة الماء وملأ به فمه،

فتصاعد بداخله شعور بالغثيان، الغضبي، وقد تقلصت معدته، وشرعت دموعه تنهال فيا هو يتقيأ عصارة معدية صفراء.

انزلق ألم صداعه على عينيه مثل مقدم خوذة رصاصية، بدا أن الرغبة الجنسية لم تكن إلا طريقاً مختصراً نحو الانهيار، انتصب فجأة على يديه وركبتيه، ومثلما كلب شرع يحفر في رمل الأرضية المتربة، وحينما حفر بعمق كوعيه ألفى الرمل قاتماً ورطباً، فدفع وجهه فيه، وضغط جبينه الملتهب عليه، مستنشقاً بعمق، لربما اتخذ الأوكسجين والهيدروجين.

ـ اللعنة على ذوي الأيدي القذرة!

صرخ بها، غارساً أظافره في راحتي يديه، والتفت إلى المرأة:

ـ ماذا ستعطين بالله عليك؟ أليس هناك ماء حقاً في أي مكان؟

تحدثت المرأة همساً، مبعدة جذعها بعيداً، وساحبة الكيمونو على فخذيها العاريتين.

ـ كلا، ليس هناك شيء منه.

ـ لا شيء منه؟ أتعتقدين أن بمقدورك ترك الأمور تجري هكذا؟ تلك مسألة حياة أو موت! أيتها الكلبة! افعلي شيئاً! افعليه بسرعة! أرجوك، انظري! إنني حتى أتوسل إليك!

ـ طيب، لو أننا عدنا إلى العمل فحسب... فإنهم في الحال سيـ...

ـ لكن! لقد انتصرت، وليس بمقدوري الاعتراض، إنني أستسلم.

وفي قرارته لم يستسلم للحظة واحدة، لكن تلك بالتأكيد لم تكن بالطريقة التي يمكن أن يموت بها... فهو ليس سمكة سردين مجففة،

بعد كل شيء، لكنه كان على استعداد للتظاهر بالحمق أمام أي شخص لمجرد تبيّن ما إذا كان يمكنه الحصول على بعض الماء.

- إنني أستسلم حقاً، لكنه أمر سيّئ للغاية أن يجعلونا ننتظر حتى الموعد المعتاد لتسلم الماء. وليس بمقدورنا العمل جيداً بينما الجفاف يأخذ بخناقنا. هل تستطيع ذلك؟ اتصل بهم حالاً... أرجوك! ألست غلباي بدورك؟

- سيعلمون بالأمر في اللحظة التي نبدأ فيها في العمل، فهناك دائماً شخص يراقب بالاستعانة بمنظار مقرب من فوق برج رصد الحرائق.

- برج رصد الحرائق... أي برج؟

على نحو يخرق الأبواب الحديدية، ويتجاوز الجدران، يعد ثقب المراقبة هو العنصر الذي يجعل السجين شاعراً بسجنه. وفي شعور عارم بالبؤس استعاد مسرعاً ذكرياته في القرية.

تذكّر الأفق الممتدّ من رمل ومياه. لم يكن هناك مكان يمكن أن ينتصب فيه برج لرصد الحرائق. وفضلاً عن ذلك، فإنه لم يستطع تصديق إمكانية رؤيته والمرأة من الخارج بينما هما لا يستطيعان رؤية أحد من موضعهما.

ستفهم ما أقول إذا ألقيت نظرة قرب حافة الصخرة هناك في الخلف.

انحنى، في استخذاء، والتقط الجاروف. سيكون الاكتراث باحترامه لذاته عقب كل ما جرى مثل كي قميص مكوّ بالسخام، وخرج من الدار كأنه طُرد منها.

كان الرمل متقداً كأنه وعاء فارغ وضع على النار . خطف الوهج أنفاسه ، ويبدا أن الهواء الذي ملأ منخريه له رائحة الصابون . ولكن مع كل خطوة يخطوها كان يدنو بمقدار خطوة من الماء . وعندما وقف تحت الصخرة المطلة على شاطئ البحر وتطلع إلى أعلى استطاع أن يتبين قمة برج أسود لاح في حجم طرف إصبعه الأصغر . ودونما شك كان البروز الذي يشبه الشوكة مرقباً . ترى هل رصدوه؟ من المؤكد أن المرقاب كان ينتظر في ارتياح خبيث هذه اللحظة .

التفت نحو الشوكة السوداء ، ورفع الجاروف فوق رأسه ، ولوح به في غضب جامح إلى الأمام والخلف ، وضبط زاوية النصل بحيث تنعكس إلى عين المراقب ، انتشر على عينيه غشاء من الزئبق الحارق . ترى ما الذي تفعله المرأة؟ خير لها أن تحضر وتشرع في مساعدته في التوّ واللحظة .

فجأة ، ارتمى ظل بارد عليه ، مثلما منديل مبلل ، فقد مرت به سحابة ، كأنها ورقة شجرة دفعتها الريح إلى جانب من السماء . اللعنة ... لو أن المطر هطل لما اضطر للقيام بهذا ، لسوف يدٌ خفّيه وسرعان ما يمتلئان بالماء ، شآبيب من المطر تنهال على زجاج النوافذ ... أعمدة من الماء تندفع من خلل الغلف ، مطر دافق يحجب الأسفلت .

لم يدر ما إذا كان يحلم أم أن تأملاته قد أصبحت حقيقية ، لكنه أحس فجأة بحركة مهتاجة حوله ، وعندما ثاب إلى رشده وجد أنه في قلب انهيار رملي ، فاحتمى بطنفس الدار ، وانحنى على الجدار . بدا أن عظامه قد ذابت كأنها عظام سمكة معلبة ، اندلع غثاء حول صدغيه مخلفاً شظايا تمتد متناثرة على سطح وعيه ، مثل بقع بارزة . مرّ

بأسنانه، وضغط بيديه على معدته، فأفلح أخيراً في السيطرة على إحساسه المتصاعد بالغثيان.

تناهى إليه صوت المرأة. كانت تواجه الصخرة وتنادي أحدهم، تطلع، نظر شزراً من بين جفونه الثقيلة. كان العجوز الذي أحضره ها هنا في أول الأمر يدلي دلواً موصلاً بطرف حبل. ماء! أخيراً وصل! مال الدلو، وأحدث بقعة على المنحدر الرملي. كان ماء، ماء حقيقياً لا مجال للخطأ حياله! اندفع صارخاً وعلّقاً في الهواء لاقتناصه.

عندما وصل إلى حيث يطال الدلو، نحّى المرأة جانباً، وداسها بقدمه، وأمسكه بكلتا يديه. لم يستطع نزع الحبل قبل أن يغمس وجهه في الدلو، وجسمه يجيش، كأنه مضخة. رفع رأسه، والتقط نفساً، وفي المرة الثالثة لرفع رأسه انبجس الماء من أنفه وشفتيه، فغصّ بما في حلقه على نحو مؤلم، تهاوت ركبتاه تحته، وأغمض عينيه. الآن حان دور المرأة، وما كان هناك من سبيل لتجاوز قدرتها، وعدتاً صوتاً يبدو جسمها معه وكأنه تحول بأسره إلى شفاط مطاطي أتت على نصف محتويات الدلو في وقت لا يذكر.

عندئذ تركت الدلو وعادت إلى الأرضية المتربة داخل الدار، وشرع العجوز في سحب الحبل، فقفز الرجل في الحال، وأمسك به. وهتف ضارعاً:

– انتظر! لحظة واحدة، أريدك أن تسمعني، انتظر، أرجوك، كل ما أريد أن تسمعني!

استسلم العجوز لرغبته، كفّت يداه عن الحركة، وطرف بعينيه، على نحو محيّر، لكنه بقي تقريباً بلا تعبير يرتسم على محياه.

- بما أنك أعطيتني الماء فسأقوم بما يفترض أن أفعله. أعدك بذلك. ولكني لا زلت أريد أن تسمعني. لقد أملك حقاً على الحكم على الأمور، فأنا مدرّس أعمل بمدرسة ولي زملاء، ونقابة ينتظرونني هناك، وكذلك مجلس التعليم واتحاد المدرسين الحكوميين. هل تعتقدون أن الناس سيتقبلون اختفائي في صمت.

بلّل العجوز شفته العليا بلسانه، وابتسم بلا أدنى اكتراث. لم تكن ابتسامة حقاً، وإنما تجعدات حول عينيه فقط فيما هو يحاول إبعاد الرمل الذي تحمله الريح. ولكن تجعيدة واحدة لم تغب عن عين الرجل.

- ماذا؟ ما هذا؟ إنك تدرك - أليس كذلك - أنك قريب للغاية من إتيان عمل إجرامي؟

- لم؟ لقد مضت عشرة أيام، ولم يأت إخطار من شرطة المنطقة. قالها العجوز مكرراً كلماته بتدقيق شديد الواحدة إثر الأخرى، أضاف:

- نفترض أنه لم يأت إخطار حتى بعد عشرة أيام... فماذا إذن؟

- لم ننقض عشرة أيام، وإنما أسبوع!

أقفل العجوز فمه، ولم ينبس ببنت شفة. من المؤكد أن الحوار كان بلا جدوى، كبح جماح نفاد صبره، وقال بصوت متوتر:

- طيب، تلك أمور لا أهمية لها تذكر. ألن تنزل إلى هنا لنجلس معاً ونتبادل الحديث على راحتنا؟ لن آتي شيئاً غير مرغوب فيه بالمرة،

وحتى إذا أردت فليس بمقدوري القيام بشيء في مثل هذه الظروف. أعدك بذلك.

ظل العجوز على صمته، وبدأ الرجل يلهث.

- ليس الأمر مرده أنني لا أفهم مدى أهمية عملية إزالة الرمال هذه بالنسبة للقرية، فهي مسألة حياة او موت، وأنا أعرف هذا، إنه أمر مهم، وأنا أتفهم ذلك حقاً، ولو أنني لم أرغم عليه لربما كنت شعرت بالرغبة في التعاون معكم عن طيب خاطر، هذا صحيح حقاً، سيكون من قبيل الانسانية أن أتعاون معكم وأنا أرى الأمور على حقيقتها. أليس كذلك؟ أتعتقد حقاً أن هذه هي الطريقة الوحيدة لجعلي أعمل معكم؟ إنني أشك في هذا. ألم تستطيعوا التفكير في طريقة أفضل؟ الرجل المناسب في المكان المناسب. إذا لم تضعوا الرجل في المكان الذي يناسبه فإنكم تقضون على الرغبة في التعاون. هذا صحيح، أليس كذلك؟ ألم تكن هناك طريقة أفضل في الاستفادة من دون هذه المخاطر الوعرة؟

ترى هل سمعه العجوز أم أنه لم يسمعه؟ لقد أشاح برأسه على نحو خال من التعبير، وأتى بحركة بدت كما لو أنه يزيح عنه قطعة تعبة. أتراه كان عصبياً بسبب المرقب الموجود في برج رصد الحرائق! أهو أمر سيئ أن يربا معاً وهما يتجاذبان الحديث؟ هكذا راح يتساءل.

- إنك توافق على هذا، أليس كذلك؟ من المهم حقاً أن تتم إزالة الرمال، ولكن ذلك ليس إلا وسيلة، لا هدفاً. وهدفكم هو حماية حياتكم من الرمال، أليس كذلك؟ هذا هو الهدف، أليس كذلك؟ ومن حسن الحظ أنني قمت ببعض الأبحاث فيما يتعلق بالرمال، فأنا

مهتم بها على نحو خاص، وهذا هو سبب إصراري على المجيء إلى مكان كهذا، والرمال تغش الناس بشكل غريب اليوم، فهذا المكان يمكن تطويره كمنطقة سياحية على سبيل المثال، وتستفيدون من الرمال بتأثيرها، وليس بالاصطدام بها. وباختصار فإن عليكم إحداث تغيير كامل في طريقة تفكيركم.

فتح العجوز عينيه، وأجاب بلا اكتراث:

- في أي منطقة صناعية ينبغي أن يكون هناك نوع من الينابيع الحارة، وإضافة الى ذلك فالجميع يعلم أن المستفيدين الوحيدين من السياح هم التجار أو الغرباء.

ربما كان الأمر راجعاً إلى خيال الرجل، ولكنه ساوره شعور بأنه موضع سخرية، وتذكر فجأة القصة التي روتها المرأة عن بائع بطاقات البريد الذي حل به المرض ولقي حتفه بعد أن لقي المصير ذاته.

- طيب، هذا مجرد مثال واحد لما قد تقومون به، بالطبع. يمكنك أن تفترض كذلك أن هناك محاصيل خاصة تناسب المواصفات الخاصة بالرمل، ألا يمكنك ذلك، وباختصار فأنتم لستم مرغمين على التمسك بهذا الشكل غير المعقول بنمط الحياة القديم.

- ولكننا قمنا بأنواع عديدة من الدراسات، وجربنا زراعة الفول السوداني وبصل النبات وأشياء من هذا القبيل. وبودي أن أريك كيف تنبت أزهار الخزامى هنا.

- طيب، وماذا عن إقامة متاريس مرتبطة لحمايتكم من الرمال...؟

ماذا عن بناء متاريس مرتبطة كامل الامتداد لحمايتكم من الرمال؟

لديّ صديق يعمل في إحدى الصحف، ومن الممكن تماماً استخدام الصحيفة للبدء في تحريك الرأي العام لصالحكم.

- مهما كان تعاطف باقي العالم معنا، فلن يغير هذا من الأمر شيئاً، ما لم نحصل على الأرصدة اللازمة.

- طيب، إذن، عليكم البدء في التحرك للحصول على هذه الأرصدة.

- ربما، ولكن وفقاً للوائح الحكومية فإن الأضرار الناجمة عن الرمال التي تحملها الريح لا يبدو أنها معترف بها، باعتبارها كارثة تستحق التعويض.

- ينبغي أن تعملوا من أجل الاعتراف بها.

- وما عساك نفعل في مقاطعة فقيرة كهذه؟ إننا نحس بتقزز تام، وعلى أية حال فطريقتنا الحالية هي الأرخص، ولو أننا تركنا الإدارة الحكومية تمضي في طريقها، لطمرتنا الرمال، بينما هم يعبثون بمعادلات تعليم الأرقام للأطفال!

صاح الرجل بأعلى صوته:

- لكن أمام وضعي الذي يتعين التفكير فيه! إنكم آباء ولكم أبناء، أليس كذلك؟ ومن المؤكد أنكم تتفهمون التزامات المدرس.

في هذه اللحظة عينها، اجتذب العجوز الحبل، فأفلته الرجل دونما قصد، بعد أن أخذ على حين غرة. يا للوقاحة! أكان العجوز يتظاهر بالإصغاء إليه لا لشيء إلا لينتهز الفرصة لرفع الحبل؟ أدهشه أن يديه الممدودتين لم تمسا إلا الهواء.

- إنكم تتصرفون كالمجانين، لقد فقدتم عقولكم، حتى القرد يمكنه رفع الرمال بالجاروف إذا حصل على قليل من التدريب، بوسعي القيام بما هو أكثر من هذا كثيراً، وعلى الانسان التزام باستغلال قدراته بكاملها.

- طيب، ربما، ولكن...

قالها العجوز على نحو عابر كأنما هو ينهي دردشة، وأضاف:

- إصنع ما يبدو لك على أية حال، ولسوف نبذل ما في وسعنا لمساعدتك.

- انتظر، لا تهزأ أنت، يا من هناك، انتظر لحظة، لسوف تندم، إنك لا تفهم الأمر على الاطلاق، لو أنك انتظرت للحظة، رجاء!

لكن العجوز لم يلتفت مرة أخرى، وإنما انتصب واقفاً، وقد انحنت كتفاه، كأنما يحمل على كاهله حملاً ثقيلاً، ومضى مبتعداً. بعد ثلاث خطوات لم تعد كتفاه ظاهرتين، ومع الخطوة الرابعة اختفى عن العيان تماماً. دنا الرجل في إعياء من الصخرة الرملية، وغاص بذراعيه في الرمل. فلدى تدفق إلى ياقته، مشكلاً وسادة لينة في موضع التقاء قميصه بسرواله، وفجأة بدأ العرق في التدفق غزيراً من صدره وعنقه وجبينه وعلى امتداد باطني فخذيه، كان ذلك هو الماء الذي شربه لتوه! واتحد الرمل مع العرق ليشكلا لصقة خردل جعلت جلده يؤلمه إيلاماً شديداً ويخزه ويتورم متحولاً إلى ما يشبه معطف مطر مطاطياً

كانت المرأة قد شرعت في العمل، وتملكه فجأة شك عميق في أنها قد انتهت من شرب ما بقي من الماء، فأسرع في العودة الى الدار.

كان الماء كله لا يزال هناك، ومرة أخرى نهل ثلاث أو أربع جرعات منه، ومرة أخرى أدهشه الطعم المعدني الواضح، فلم يستطع إخفاء عدم ارتياحه. وما كان بوسعه الانتظار حتى المساء، سيكون من المستحيل بالطبع إعداد طعام العشاء إذا شرب الماء كله الآن. وقد اعتمد القرويون على هذا بالتحديد، إذ كانوا ينتوون الالتفاف حوله بإخضاعه للخوف من الظمأ.

أمال قبعة القش الواقية من الشمس على عينيه بشدة، وسارع بالخروج. لم يكن تقديره ومقدرته على التفكير يتجاوزان قشرة اللحية على جبينه المحموم عندما واجه تهديد معاناة الظمأ. فمن شأن عشرة دلاء أن تكون شيئاً طيباً أما دلو واحد فهو مجرد جهاز يتنفس به.

ـ أين الجاروف؟

ابتسمت المرأة في إعياء، مشيرة إلى بقعة تحت طنف الدار، فيما هي تمسح العرق عن جبينها بكمها، وعلى الرغم من أنها غلبت على أمرها إلا أنها لم يبد للحظة أنها نسيت موضع أدوات العمل، لا بد أن هذا وضع ذهني يتعلمه المقيمون وسط الرمال بشكل طبيعي.

لم يكد يمسك بالجاروف حتى تهاوت أطرافه المنهكة، مثلما يتهاوى حامل ثلاثي مطوي. لم يكن، في حقيقة الأمر، قد غمض له جفن منذ البارحة، وسيكون من الضروري مهما كانت الظروف أن ينسق مع المرأة مسبقاً الحد الأدنى من كم العمل الذي ينبغي إنجازه. لكنه كان أكثر إعياء من أن يحادثها في الأمر، إذ كانت حباله الصوتية متمزقة كأنها أطراف المنادر ـ ربما لأنه أجهدها أكثر مما ينبغي

بالحديث مع العجوز. فأخذ مكانه على نحو آلي إلى جوار المرأة وشرع في رفع الرمال بالجاروف.

راح الاثنان يتحركان، وكأنما قيدا أحدهما إلى الآخر، في غار حفرها بين الصخرة والبناء. كان الجدار الخشبي للمنزل لينا كأنه فطيرة أرز لم تجف تماماً، بدا كأنه مبترة للقطر. راكماً، في النهاية، الرمال في بقعة واحدة. ووضعاها في صفائح الكيروسين ونقلاها إلى نقطة الاخلاء، وعندما فرغا من ذلك استأنفا الحفر.

كانت حركات الرجل آلية ودونما اختيار على وجه التقريب. ملأ فمه لعاب قريب يشبه طعم بياض البيض، وسال فوق ذقنه امتداداً إلى صدره، لكنه لم يبد اكتراثاً به.

قالت المرأة مبدية ملاحظة في هدوء:

ـ يحسن بك أن تمسك الجاروف بيدك اليسرى بعد أن تنزل بها قليلاً... هكذا، ولو أنك جعلت يدك اليسرى ثابتة واستخدمت اليمنى كرافعة لوفرت على نفسك نصف هذا العناء.

نعق غراب، تغير الضوء، فجأة، من الأصفر إلى الأزرق، وانسحب الألم الذي غدا متماثلاً إلى معالم الطبيعة المحيطة بها في نعومة. حلقت أربعة غربان على ارتفاع منخفض، موازية للساحل، وتألقت أطراف أجنحتها المفرودة بلون أخضر قاتم، فتذكر الرجل، لسبب ما، سيانيد البوتاسيوم في زجاجات حشراته. آه، نعم، قبل أن ينسى، لا بد له من أن ينقل جثث حشراته إلى وعاء آخر وأن يلفّها بالبلاستيك. فلو أن الرطوبة، أدركتها لتحللت وغدت كتلة بائسة لدنة.

- هل تقول إن برماً قد انتهى الآن؟

تطلّعت المرأة إلى الحائط، فيما هي تتحدث، فأدرك أن وجهها كان جافاً بدوره، وبدا أنها شاحبة من خلال طبقة الرمل التي علتها. قاتم كل شيء حوله، وقد اكتسى بلون صدئ، وأدرك أن دمه قد فَقَدَ قوته الحيوية. مد يديه متلمساً من خلال قناة وعيه المكتسية بالظلام، وأفلح بالكاد في المجالدة لشق طريقه إلى فراشه المضطرب الملطخ بالشحم. ولم يدرك متى دلفت المرأة إلى الدار.

- ٢٢ -

كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما، وراح يتساءل: لِمَ يضرب هذا الظلام الحالك أطنابه؟ في مكان ما راح فأر يجرجر مواد صنع جحر له فيما بدا. آلمه حلقه ألماً مبرحاً، كأنما مرّر أحدهم مبرداً خلاله. تصاعد غاز في اندفاعات قوية من أمعائه كأنه ينبعث من مجرور. استشعر رغبة في التدخين. لا، أحسّ قبل ذلك بأنه يريد جرعة ماء. ماء! اجتذب، في الحال إلى الواقع. إذن فلم يكن ذلك فأراً، وإنما المرأة، التي شرعت في العمل. يا إلهي! كم طال به الرقاد؟ حاول النهوض، لكن ثقلاً رهيباً أعاده عبرة إلى الحشية، اجتذب المنشفة عن وجهه بعد أن تذكرها. ومن الباب المفتوح تسلّل إلى الداخل ستار قمري، كأنما هو ينفذ من خلال مادة هلامية. لقد أرخى الليل سدوله من جديد فجأة.

إلى جوار وسادته كان هناك القلاّية والمصباح وزجاجة الساكي. نهض في الحال، مستنداً إلى أحد كوعيه، تمضمض، وبصق الماء إلى الدفأة الفائرة، وبتهجاً بمذاقه راح يرطّب حلقه بالماء. تلمّس ما حول المصباح، فمسّت يده لفافة لدنة وبعض السجائر وأعواد الثقاب. فأوقد المصباح، وأشعل سيجارة بعود ثقاب، ثم جرب في حذر جرعة من الساكي، فشرعت حواسه المخدرة تنتظم.

تألّفت محتويات اللفافة من طعام موضوع في علبة: ثلاث كرات من الأرز المخلوط بالدقيق، كانت لا تزال دافئة. سيخين من السردين المجفف، بعض مخلل الفجل الجافّ، وبعض الخضر المسلوقة ذات الطعم المرّ. وبدا أن الخضر لا تعدو أن تكون أوراق الفجل المجففة. لم يستطع ان يتناول إلا سيخ سردين وكرة من كرات الأرز. وأحسّ بمعدته كما لو كانت قفازاً مطاطياً بارداً.

عندما انتصب واقفاً، قرقعت مفاصله، كأنها زفيف الريح فوق السقف القصديري. راح يتطلّع بعصبية إلى جرة الماء، فألقاها قد ملئت حتى حافتها بِلُلِ المنشفة، ومسح بها وجهه، فأخذت الرعدة جسمه كله مثلما ضوء الفلورسنت، غسل عنقه وجانبيه، ونزع الرمل من بين أصابعه، لربما كان عليه أن يرضى بما منحه الخالق وأن يدع الأمور تجري في أعنتها.

وقفت المرأة عند المدخل، قالت:

ـ هل أعدّ لك بعضاً من الشاي؟

ـ لا، شكراً، فمعدتي مصابة بغثيان، في حالتها الراهنة.

ـ هل نلت قسطاً طيباً من النوم؟

ـ كان ينبغي أن توقظيني لدى نهوضك.

أحنت المرأة رأسها ضاحكة، قالت:

ـ لقد نهضت ثلاث مرات خلال الليل، وقمت بتثبيت المنشفة فوق وجهك.

كان لها حبث طفلة في الثالثة من عمرها، تعلمت لتوّها كيف تضحك كالكبار، وبدا واضحاً أنها لا تعرف كيف تعبر عن أفضل وجه عن مشاعرها المرحة أو عن حرجها، وساوره شعور بالقنوط، فأشاح بعينيه بعيداً.

ـ هل أساعدك في الحفر؟ أم من الأفضل أن أقوم بالنقل؟

ـ طيب... لقد حان وقت رفع السلة التالية.

عندما شرع في العمل بالفعل، لم يقاوم الأمر بالقدر الذي حسب أنه سيقاوم به، راح يتساءل- ترى ما سبب هذا التغيير؟ أكان الخوف من انقطاع الماء؟ أم هو شعوره بأنه مدين للمرأة، أم هو شيء ما متعلق بطبيعة العمل ذاته؟ فالعمل يبدو شيئاً جوهرياً بالنسبة للانسان، شيء يمكنه من تحمل المرور السريع والمبطئ للزمن.

ذات مرة اصطحبه رجل الـ « موبيوس » ـ ترى متى كان ذلك ـ لحضور ندوة، وكان مكان اللقاء محاطاً من كل الجهات بسور صدئ منخفض، وفي داخل المنطقة المسيجة كان سطح الأرض مختفياً على وجه التقريب تحت نفايات ورقية وصناديق فاوفة وخرق مجهولة الأصل. ترى ما الذي حدا بالمصمّم الى وضع مثل هذا السور حول المكان؟ عندئذ، وكأنما في تجسيد لخواطره، ظهر رجل يرتدي حلة محمدة، يستند إلى السور، محاولاً بجدّ زحزحته بأصابعه. وأخبره

صديقه الـ «موبيوس» أن هذا الرجل مرشد للشرطة، وكانت على سقف مكان الاجتماع لطخة ناتجة من تسرّب الماء اكتست بلون القهوة لم يسبق له أن رأى مثيلاً لها. ووسط هذه كله راح محاضر يتحدث: «إن الطريقة الوحيدة لتجاوز العمل هي بالعمل، ولا يرجع الأمر إلى أن العمل ذاته ثمين وله قيمته، ونحن نتجاوز العمل بالعمل. فالقيمة الحقيقية للعمل تكمن في قوة نكران الذات».

سمع الإشارة الحادة الصادرة عن شخص يصفّر بوضع إصبعه في فمه، ثم سمع صيحات خالية من الهم وأناساً يعدون، وهم يجرّون سلالاً. وكالمعتاد، لزموا الهدوء، فها هم يقتربون، وأدليت السلة في صمت. كان بمقدوره الإحساس بأنه تحت مراقبة دقيقة، ولكن الصراخ فيمن يقفون فوق الصخرة سيكون الآن عملاً بلا طائل، انجاب التوتر عندما تم رفع كمية الرمال المحددة بأمان، بل وبدا كأن لمسة الهواء نفسها للجلد قد تغيّرت. لم ينبس أحد ببنت شفة، ولكن بدا أنهم قد توصلوا في الوقت الراهن إلى اتفاق فيما بينهم.

وكان بمقدوره كذلك أن يرى تغييراً قاطعاً في موقف المرأة بدورها.

ـ دعنا نسترح قليلاً! سأحضر بعض الشاي.

رنّ صوتها أكثر مرحاً، وبدا سلوكها مرحاً كذلك. بل كانت تتدفّق ببهجة لا تملك كبح جماحها. وأحسّ الرجل بتخمة، كأنه تناول أكثر مما ينبغي من السكر. وفيما هي تمرّ به، أجبر نفسه على التربيت على ردفيها. إذا كان الجهد الكهربائي عالياً فإن الشعيرة ستحترق. لم يحدث قط أن انتوى خداعها على هذا النحو سيحكي لها يوماً ما حكاية الحارس الذي كان يحمي القلعة المهددة.

كانت هناك قلعة. لا، لم تكن بالضرورة قلعة، وإنما كان يمكن أن تكون أي شيء آخر. كان يمكن أن تكون مصنعاً أو مصرفاً، أو داراً للمقامرة. وكذلك كان يمكن أن يكون الحارس خفيراً أو حارساً شخصياً. ولم يحدث قط أن تراخى الحارس، الذي كان متأهباً على الدوام لمواجهة هجمة العدو، في حراسته. وذات يوم أقبل العدو الذي طال انتظاره. تلك كانت اللحظة، فأعطى إشارة الخطر، غير أنه من الغريب أنه لم تحدث استجابة من القوات. وغني عن البيان أن العدوّ قد تغلّب بسهولة على الحارس بالمضاضة واحدة. وعبر وعيه المتخافت رأى العدو يندفع كاسحاً كالريح عبر البوابات ومن فوق الأسوار ويقتحم المباني دون أن يتصدى له أحد. لا، لقد كانت القلعة، وليس العدوّ هي التي تشبه الريح حقاً. كان الحارس الوحيد، الذي يحاكي شجرة ذاوية في البرية، يقف في حراسة وهم.

جلسا فوق الجاروف الممتد على الرمل، وأشعل سيجارة، أخيراً انتشر اللهب سارياً مع عود الثقاب الثالث. انتشر تعبه، متداحاً في دائرة راكدة، مثل حبر هندي سقط في الماء... كان قنديل ماء، قارورة عطر، رسماً بيانياً لنواة ذرّة. كان طائر ليلي قد عثر على فأر حقل فراح ينادي رفيقه بصيحة غريبة. نبح كلب قلق بحدّة، وعالياً في سماء الليل تواصل زفيف الريح المضطربة والمتزاحمة في قوته. وعلى الأرض كانت الريح سكيناً تكشط باستمرار طبقات من الرمال. مسح العرق، ولمخط مستخدماً اصبعه، وأزاح الرمال عن رأسه. فجأة بدت تموجات الرمال عند قدميه كأنها تحاكي ذرى أمواج لا تغير حراكاً.

نفترض أنها أمواج مصطنعة، فأي لون من الموسيقى يصدر عنها؟

هكذا راح يسائل نفسه، بل لربما كان بمقدور إنسان أن يعزف هذه الأنشودة... لو أن ملاقط غرست في أنفه، وسدّ دم لزج أذنيه... ولو أن ضربات مطرقة حطمت أسنانه واحدة إثر الأخرى، وانحشرت شظايا في قناة مجرى بوله... لو أن فرجاً بتر وتمت خياطته ليلصق بجفنيه. لربما حاكي ذلك القسوة، ثم مرة أخرى قد يبدو مختلفاً قليلاً. وفجأة حلقت عيناه عالياً كأنهما طائر، وأحس كما لو كان يطل على نفسه من عل. من المؤكد أنه أغرب الناس... ذلك الذي يتأمل غرابة الاشياء ها هنا.

- ٢٣ -

ابتعت بطاقة سفر بلا عودة، دو، دو...

إذا أردت أن تغنيها، فغنها، الناس الواقعون في براثن بطاقة السفر بلا عودة لا يغنونها هكذا على الإطلاق، ونعال أولئك الذين لا يحوزون إلا بطاقة سفر بلا عودة رقيعة إلى الحد الذي يصرخون معه حيثما يدوسون حصاة، فقد ساروا حتى ضجروا من السير. و «الأغنيات الحزينة للرحلات الدائرية» هي ما يريدون أن يغنوه. وما بطاقة السفر بلا عودة إلا حياة مفككة الأوصال، تفتقد الروابط بين الأمس واليوم، وبين اليوم والغد. والإنسان الذي يتشبث في عناد ببطاقة الرحلة الدائرية هو وحده الذي يستطيع أن يدندن بأسى حقيقي أغنية بطاقة الرحلة الدائرية. ولهذا السبب فإنه يغدو يائساً

خوفاً من ضياع أو سرقة نصف البطاقة الخاص بالعودة، وهو يشتري أسهم الشركات، ويوقع وثائق التأمين على الحياة، ويتحدث بشكلين مختلفين إلى الأصدقاء، إلى نقابته من ناحية وإلى رؤسائه من ناحية أخرى. إنه يدندن «الاغنيات الحزينة لبطاقة السفر بلا عودة» بكل قوته، ويختار قناة في جهاز التلفزيون بشكل عشوائي، ويرفع الصوت إلى أقصى طاقته في محاولة لإغراق الأصوات المتبرمة الصادرة عن أولئك الذين لا يحملون إلا بطاقة سفر بلا عودة ولا يكفون عن طلب الموت، الاصوات التي تتصاعد من خلال فتحة صرف مياه الحمام أو فتحة المرحاض. ولن يكون أمراً غريباً على الإطلاق إذا تبين أن «الاغنيات الحزينة للرحلة الدائرية» هي أغنية البشرية التي ترسف في الأغلال.

دوج على العمل خلسة، حينما يتاح له ذلك، في جدل حبل، فمزّق قميصه الإضافي إلى قطع، وفتلها معاً، ثم وصلها بحزام كيمونو زوج المرأة المتوفى، ولم يبلغ حبله في إجماليته إلا حوالي خمسة ياردات طولاً. وعندما يحين الأوان سيثبت أحد طرفيه في جزّ صديّ، سيدعمه وهو نصف مفتوح بقطعة من الخشب، لم يكن الحبل، بالطبع، طويلاً بما فيه الكفاية، وباستطاعته أن يبلغ الطول المطلوب على وجه التقريب إذا ما أضاف حبل الغسيل المجدول من القنب وحبل القش الخشن الممتد فوق الأرضية المتربة والذي علقت المرأة عليه بعض السمك والذرة ليجف.

طرأت الفكرة على باله بغتة، ولكن ليس صحيحاً بالضرورة أن خطة مجربة هي وحدها التي من شأنها أن تكلل بالنجاح، فمثل هذا الالهام المفاجئ له أساس كافٍ في حدّ ذاته، على الرغم من أن عملية

ظهوره كانت غير واضحة، وفرص النجاح أفضل في الحالات الحضرية منها في حالة وجود خطط قتلت بحثاً.

أما الآن فالسؤال المطروح هو: متى ينبغي أن يضع خطته موضع التنفيذ؟ لقد وصل إلى أن أفضل وقت للهرب سيكون خلال النهار، فيما المرأة تغط في نومها، ولكنه سيكون من قبيل المخاطرة عبور القرية ما لم يكن الظلام قد أرخى سدوله، لسوف يبدأ تحركاته بشكل منهاجي، تاركاً المكان بحيث يتيح لنفسه أطول وقت ممكن قبل أن تستيقظ المرأة، حيث يختفي في مكان مناسب، وينتظر هناك إلى أن تغرب الشمس، ويستفيد فرصة حلول الظلام والوقت قبل بزوغ القمر، وربما لن يكون من المتعذر الوصول إلى الطريق الرئيسي الذي تنطلق عليه الحافلات.

وفي الوقت نفسه فإنه سيستغل كل مهارته لدفع المرأة إلى أن تحدثه حول طوبوغرافية القرية وتنظيمها. ترى ما هي أسس الحياة الاقتصادية لمكان كهذا ليس فيه زورق صيد واحد على الرغم من أنه يطل على البحر؟ منذ متى وهو على هذه الحال؟ ما هو التركيب السكاني؟ من الذي يزرع أزهار الخزامى وأين؟ ماذا يفعل الأطفال؟ هل يذهبون إلى المدرسة؟ ولئن كان بمقدوره تجميع ذكرياته القاصية عن ذلك اليوم الأول الذي وصل فيه إلى القرية لغدا بمقدوره وضع خارطة تقريبية، حتى ولو قامت على أساس معلومات غير مباشرة.

على صعيد مثالي، ما من شيء يمكن أن يكون أفضل من الهرب بالالتفاف حول القرية وعدم اختراقها على الاطلاق، ولكن الحائط الغربي كان موصداً ببروز حافة الانحدار، بدا على الرغم من ارتفاعه

الطالع أنه أصبح صخرة عمودية، بعد أن تآكلتها الأمواج منذ عهود بعيدة. وعلى الرغم من وجود سواطئ للأقدام كان القرويون يستخدمونها حيناً يمضون لجمع الأحطاب إلا أنها سدتها أجمات الأشجار وكان من العسير رصد أماكنها، ثم إنه سيكون من سوء الطالع إثارة شكوك المرأة بالمبالغة في طرح الاسئلة والاستفسارات.

وعلى الجانب المقابل، إلى الشرق يمتد صدع بالغ الضيق تحيط به تمام الإحاطة كثبان رملية غير مأهولة، تعلو، وتهبط، على امتداد ما يزيد على خمسة أميال، وتؤدي في نهاية المطاف من جديد إلى مدخل القرية. وبتعبير آخر كانت القرية كيس رمال مقطوعاً عند العنق من خلال الصدع والصخور العمودية، ويبدو أن هامش الأمان أكبر في حالة اقتحامه للمركز بدلاً من إصدار لحظات ثمينة في الالتفاف، مما يعطي القرويين المزيد من الوقت لم شملهم والامساك به.

ولكن ذلك لم يعن أن المشكلة قد تم حلُّها، فهناك، على سبيل المثال، المرقب الموجود في برج رصد الحرائق، وكذلك أقلقه أن المرأة لدى ملاحظتها لغيابه ستطلق صرخات المطاردة وأن أبواب القرية ستوصد قبل أن يستطيع الخروج. ربما كان بمقدوره أن يكتشف المشكلتين ليجعلهما مشكلة واحدة، فمجموعة رفع السلال الأولى تأتي حاملة الماء والمواد التي توزعها قبل الغروب بوقت لا بأس به، وإذا حاولت المرأة الإبلاغ عن اختفائه قبل ذلك الموعد فمن المؤكد أنها لن تستطيع الاتصال إلا بمرقب الحريق، وأصبحت المسألة مقتصرة على ما ينبغي القيام به، فيما يتعلق بحارس المرقب.

من حسن الطالع أنه بسبب تقلّبات درجة الحرارة المفاجئة في المنطقة فإن سطح الأرض يلفّه سديم، قبل الغروب بوقت يتراوح بين

ساعة ونصف الساعة، وكان السبب هو، فيما يبدو، أن الغامض السليكي الموجود في الرمل الذي لا يتمتع إلا بطاقة محدودة على الاحتفاظ بالحرارة قد أفلت الدفء الذي امتصه خلال النهار. ومن مرقب النار تقع المنطقة على وجه الدقة عند زاوية انعكاس الضوء، وحتى في وجود سديم خفيف فإن ستارة غليظة حليبية تعوق النظر تماماً، وقد تأكد من هذا بالأمس، لمجرد الاطمئنان، فعند سفح الصخرة المطلة على البحر حاول إرسال إشارة بالتلويح بمنشفته عدة مرات، ولكن كما توقع تماماً، لم تكن هناك استجابة.

في اليوم الرابع لتفكيره في الخطة نفذها بالفعل، كان قد قرر الفرار في مساء السبت، وهو الموعد المعتاد لتسليم ماء الاستحمام، وقد عقد عزمه ليلة البارحة على الرقاد طوال الليل بالادعاء بأنه أصيب بنوبة برد، وأصر من قبيل المبالغة في الحذر على أن يجلبوا له بعض أقراص الاسبرين، فألفاها قد تغيّر لونها ربما كنتيجة لإقامتها المؤقتة في المتجر المحلي، وقد ابتلع قرصين بجرعة من الساكي الرخيص، فجاءت النتائج فورية، ولم يسمع شيئاً حتى رجوع المرأة من عملها اللهم إلا أصوات رفع وخفض السلال.

ارتسمت دلائل التعب على ملامح المرأة، التي اضطرت لبعض الوقت للعمل وحدها، وفيما انهمكت في اعداد الطعام، راح يثرثر متكاسلاً، حول موضوعات شتى... فحوض الغسيل الذي تردّت حالته منذ وقت طويل ينبغي إصلاحه... وما إلى ذلك. وكان بمقدوره أن يدرك أنها تعتقد أن أنانيته هي مؤشّر لكونه يضرب بجذوره هنا، ولم تجرؤ على إبداء ضيقها خشية الإطاحة بهذا المناخ النفسي. الآن، وبعد العمل حرية بأي امرئ أن يرغب في

الاستحمام، فالرمل الذي يعلق بالجلد مع عرق الليل يبعث على الضيق بشكل خاص، ولم يكن اليوم هو يوم تسليم ماء الاستحمام فحسب وإنما كانت المرأة تؤثر كذلك أن تحتميه، ومن المؤكد أنها لن تبدي اعتراضاً.

فيما كانت تدلكه بالصابون تظاهر بأنه مستثار، وراح يجذب أطراف الكيمونو الذي كانت ترتديه، مشيراً إلى أنه يود بدوره أن يحممها. أبدت إيماء مقاومة وقد وقعت بين شقَّي رحى الاضطراب والتلهف، ولكن لم يبد واضحاً ما الذي تقاومه. وقد صبَّ سريعاً دلوا من الماء الحار على بدنها العاري، ودون قماشة التدليك شرع في تمرير كفه المكسوين بالصابون مباشرة على جلدها، بدءاً بشحمتي الأذن، وانتقل الى الفك، ومضى فوق كتفها، فمد كفه وقبض على نهدها، صدرت عنها صيحة وانزلقت إلى ما دون مستوى صدره، لتحتج على ارتفاع ممدته، ودون شك كان هذا وضعاً يعكس تلهفاً حاراً، لكن الرجل لم يكن في عجلة من أمره، وبإيقاع محسوب مضت يداه في تدليكها الدائب موغلة من جزء في بدنها إلى جزء آخر.

أصابته استثارة المرأة بالعدوى بدوره على نحو طبيعي. وأحسَّ بحزن غريب كان مختلفاً عن المألوف. كانت المرأة تتوهج من الداخل الآن، كما لو كانت تغسلها موجة من الحباحب، ومن شأن إصابتها بخيبة الأمل الآن أن تكون كإطلاق النار فجأة من الخلف على مجروم أطلق سراحه، وهكذا استجاب باهتياج أعظم ناخساً جراحه الموغلة في العمق.

لكن هناك حداً للعاطفة الجنسية المنحرفة بدورها، والمرأة التي

كانت تتوسّل إليه في البداية أبدت خوفاً جلياً، إزاء اهتياجه، الذي وصل حدّ السعار. استولى عليه شعور بالإجهاد كأنما بلغ حدّ القذف، ومن جديد لمّ أطراف شجاعته، مرغماً نفسه على المواصلة، من خلال سلاسل متدافقة من التخيلات المترعة بالظلمة، ومستثيراً رغبته بعضّ ثدييها وضربها على جسمها، الذي كان ملمسه مع الصابون والعرق والرمل يحاكي ملمس زيت الماكينات مع البرادة. وكان قد اعتزم الاستمرار في هذا لمدة ساعتين على الأقل، ولكن المرأة، في نهاية المطاف، راحت أسنانها تصطك، وأعربت عن شكواها من الألم الذي يخترقها، وجثمت مبتعدة عنه، فاعتلاها من الخلف، كالأرنب، وأفرغ حمله خلال ثوان، ثم سكب الماء عليها لإزالة الصابون، وأرغمها على شرب ملعقة من الساكي الرخيص مع ثلاث من حبات الأسبرين، لسوف ترحل في عالم النوم، دونما يقظة حتى الليل... وإذا سارت الأمور على ما يرام، فإنها ستواصل النوم إلى أن توقظها صيحات مجموعات رافعي السلال.

راحت المرأة، في نومها، تلتقط أنفاسها كأنما اعتصرت لفافة ورق في أنفها، وكانت أنفاسها عميقة وطويلة. مضى يمسّ كعبها بقدمه بانتظام وخفة، لكنها لم يطرأ عليها تغيير على وجه التقريب، إذ كانت تشبه أنبوبة اعتصر منها كل أثر للجنس. ثبت المنشفة، التي كانت قد أنزلت تقريباً عن وجهها، في موضعها، وجذب الكيمونو ليحكم تغطية ركبتيها، بعد أن رآه وقد التوى كالحبل حول خصرها، من حسن الحظ أنه كان مشغولاً تماماً بالترتيبات النهائية لخطته، ولم يكن هناك وقت للعاطفة. وعندما انتهى من أمر الأداة التي استنبطها بالاستعانة بالمجزّ العتيق كانت اللحظة التي حددها قد حانت، وكما

توقع من قبل، فقد أحسّ بنوع من الألم الذي يمزق الأحشاء، وهو يتطلع إليها للمرة الأخيرة.

تلاعب ضوء وهن في دائرة على بعد حوالي المتر من الحافة العلوية للحفرة، لا بد أن الوقت يتراوح بين السادسة والنصف والسابعة إلا الثلث. كان الوقت مناسباً تماماً، رفع بذراعيه كليهما للخلف بكل قوته وأدار رأسه جيئة وذهاباً، متخلصاً من تشنّجات عضلات كتفيه.

في البداية، كان ينبغي عليه أن يتسلق السقف. وفي التشبّث تعدّ فرص النجاح كلما كانت زاوية الارتفاع أقرب إلى خمس وأربعين درجة، وكان يودّ لو أمكنه أن يتسلق السقف مستخدماً الحبل، ولكنه خشي أن يوقظ المرأة صوت ارتطام المجزّ بالألواح الخشبية، فقرر تجاوز مرحلة الاختبار والدوران حول مؤخر الدار والصعود إلى السقف، باستخدام بقايا مصدّ للمطر، بدا له يوماً وكأنه قد استخدم مكاناً لنشر الملابس، كموطئ قدم.

كانت الأخشاب المربعة رفيعة ونصف مهترئة، فأثارت قلقه، ولكن ما حدث بعد ذلك كان أسوأ، فالرمل المتناثر كان قد صقل الجانب الخارجي الأبيض من السقف، فجعله يبدو كالجديد، ولكنه عندما اعتلاه ألفاه ليناً مثل البسكوينة المبللة، ولو أن قدمه نفذت منه لوقع في مأزق حقيقي، فوزّع وزنه بالمضي قدماً زاحفاً. وأخيراً بلغ الرافدة الأفقية في أعلى السقف، فاعتلاها، ورفع نفسه حتى استقر على ركبتيه. كان أعلى السقف واقعاً بالفعل في الظلال، وكانت الحبيبات الرائية ذات اللون العسلي عند الحافة القريبة للحفرة بمثابة مؤشرات على أن السديم قد شرع ينسدل تدريجياً، فلم يعد بحاجة للاكتراث بمراقب البرج.

ربط الحبل ليجعل له أنشوطة ، وراح ممسكاً إياه في يده اليمنى على بعد حوالي المتر أسفل المجز يؤرجحه في دائرة حول رأسه. كان هدفه هو إحدى شكائر الرمل، التي كانت تستخدم بديلاً عن بكرة حينا يرفعون السلال أو يُدلونها، وبما أن الشكائر كان بمقدورها الإمساك بسلّم الحبال، فمن المؤكد أنها مدفونة بقوة بالغة في الأرض. وزاد تدريجياً من سرعة الدوران، وصوّب، ثم أطلق الأنشوطة، فاندفعت في اتجاه مختلف تماماً، كانت فكرته عن إلقاء الحبال مجافية للصواب، فالمجزّ ينبغي أن يطير في مماسٍ لمحيط الحفرة. ولذا فعليه أن يطلقه في اللحظة ذاتها التي يكون فيها الحبل من الزاوية المناسبة بالنسبة للهدف، أو ربما قبل ذلك بلحظة واحدة لا غير. نعم، هذا هو الوضع المطلوب! ولكن في المرة التالية إرتطم المجزّ لسوء الحظ بوسط الصخرة، وتهاوى إلى الأرض، يبدو أن سرعة الدوران وزاوية الميل ليستا مناسبتين.

أفلح بعد محاولات متكررة في تحديد المسافة والزاوية كليهما بصورة طيبة للغاية ورغم ذلك كانت هناك مسافة طويلة ينبغي له أن يقطعها قبل أن يحرز الرمية الموفقة، وكان حرياً به أن يسعد لو أنه رهن أيّ مؤشر للتقدم، ورغم ذلك فلم يكن هناك دليل على أن هامش الخطأ يضيق، بل الأمر على العكس من ذلك حقاً، فقد حفل تصويبه بالخطأ مع تفاقم تعبه وشعوره بنفاد صبره، ربما كان قد بالغ في تبسيط الأمر. ساوره شعور عارم بالغضب على نحو مفارق للمنطق، وأحسّ بأن دموعه قد توشك أن تنهمر، كأنما خدعه أحدهم بالفعل.

ومع ذلك فقد بدا أن هناك نصيباً من الحقيقة في قانون

الاحتمالات، الذي ترتبط فرصة النجاح وفقاً له طردياً بصورة مباشرة مع عدد مرات تكرار المحاولة، وفي المحاولة الثلاثين، حينما تخلّى عن الأمل، وغمره اليأس، اندفع الحبل مباشرة فوق الشكائر، أحسّ كما لو أن وخزةً يتواصل داخل فمه، وعلى الرغم من أنه واصل ابتلاع ريقه فإن اللعاب واصل التدفق، ولكن الوقت لم يمض بعد كما يمنّي نفسه: كان موقفه كمن حصل على نقود سيبتاع بها ورقة يانصيب، الآن يتعيّن عليه الانتظار ليرى ما إذا كان سيكسب أم سيخسر، توترت كل أعصابه فجذب الحبل، كأنه يجتذب النجوم بحبل مجدول من خيط عنكبوت.

قاوم الحبل جذبته، ولم ينجذب.

في البداية، لم يستطع أن يصدق ما يراه، لكن الحبل لم يتحرك بالفعل، فحاول تكريس المزيد من الضغط، وتوازن جسمه في انتظار لحظة خيبة الأمل... أيحدث ذلك الآن؟... أم الآن؟ ولكن لم يعد هناك مجال للشك، فقد أمسك الخطاف المرتجل من المجزّ بالشكائر على نحو محكم. يا للحظّ الذي يستعصي على التصديق! منذ هذه اللحظة فصاعداً ستسير الأمور لصالحه. نزل عن السقف بفؤاد يحلّق بين ضلوعه، مضى إلى حيث كان طرف الحبل الذي كان يتدلى عمودياً الآن ويمسّ برفق الصخرة الرملية. وكان مستوى الأرض مناسباً تماماً... وبدت الحافة قريبة على نحو لا يصدق. تصلّب وجهه، وارتعشت شفتاه، لقد كان جهداً شاقاً، ولا بد من استثماره قبل أن يذهب سدى.

جذب الحبل، وشرع في رفع نفسه، وفجأة بدأ الحبل في التمدد كما لو كان مصنوعاً من المطاط، فانزعج، وتدفق العرق من مسامه.

ومن حسن الحظ أن التمدّد توقف بعد حوالي القدم، فحاول حشد وزنه كله لمواجهة المهمة التي تنتظره، وبدا أنه ليس هناك ما يدفع للقلق. بصق على راحتيه، وثبت الحبل بين ساقيه وشرع في التسلّق ذراعاً فأخرى، وارتفع كأنه لعبة في صورة قرد يتسلّق شجرة جوز هندي، وربما كان الأمر راجعاً لانفعاله، لكن العرق الذي غلّل جبينه كان بارداً على نحو غريب. وفي محاولة تجنّب سقوط الرمل عليه حرص على عدم الاحتكاك به، واعتمد على الحبل وحده، ولكنه شعر بعدم الارتياح فيما جسمه يدور ويدور في الهواء. كان الوزن الصافي لجسمه أثقل مما توقّع، وتقدّمه بطيئاً. وما شأن هذه الرعدة؟ كانت ذراعاه قد شرعتا في الاهتزاز بعنف رغماً عنه، وأحسّ كما لو كان يفرقع ذاته كأنه سوط، ربما كان ذلك ردّ فعل طبيعياً في ضوء تلك الأيام الستة والأربعين الرهيبة. وعندما تسلّق لمسافة متر بدا عمق الحفرة كما لو كان مائة متر... مائتين... ثلاثمائة. بدأ في الاحساس بالدوار، مع زيادة عمق الحفرة، كان التعب يستبدّ به، ينبغي ألا ينظر إلى أسفل. ولكن هاك! صوتاً السطح! سطح الأرض، الذي يمكنه عليه الانطلاق نحو الحرية، أياً كان الاتجاه الذي يسير فيه... إلى أقاصي الأرض ذاتها. عندما يصل إلى السطح، فإن هذه اللحظة التي لا تعرف الانتهاء، ستصبح زهيرة محفوظة بين أوراق يومياته... نبتة مسمومة أو نباتاً آكلاً للحوم، لن تكون أكثر من قطعة ورق ملونة نصف شفافة، وفيما سيرتشف قدح شايه في قاعة الاستقبال سيرفعه في مواجهة الضوء، ويستمتع برواية قصته.

ليست لديه الآن نية توجيه الاتهام للمرأة. من المؤكد أن بمقدوره ضمان أنها إن لم تكن سيدة نبيلة تماماً، فهي ليست كذلك عاهرة،

ولئن احتاجت إلى أي مساعدة، فيما بعد، فإنه سيقدّمن لها هذه المساعدة بكل سرور.. بمقدار ما تريد. لقد كانت مخلوقة تفتقر للذكاء، ميزتها الوحيدة أنها تتشبث ببطاقة رحلتها الدائرية.. مثله. ولكن حتى ببطاقة الرحلة الدائرية ذاتها، فإن نقطة المغادرة إن كانت مختلفة فإن جهة الوصول ستكون مختلفة بصورة طبيعية أيضاً، وفي الحقيقة فإنه سيكون من الغريب بشكل خاص إذا ما كانت بطاقة عودته هي بطاقة خروجها.

وإذا افترضنا في الوقت الراهن انها قد أخطأت ... فإن الخطأ في نهاية المطاف يظل هو الخطأ.

لا تنظر إلى أسفل! ينبغي ألا يتطلّع إلى أسفل!

بالنسبة لمتسلّق الجبال، ولمنظّف النوافذ في ناطحة سحاب ما، والكهربائي فوق برج تليفزيون، والفنان بهلوان في سيرك، ولمنظّف مداخن على مدخنة مصنع... فإنّ لحظة الهلاك هي لحظة التطلّع إلى أسفل.

- ٢٤ -

لقد فعلها!

ارتطمت أظافره بشكائر الرمل، دونما اكتراث بما إذا كان جلد يديه قد كشط، وتسلّق إلى أعلى في اهتياج. هو ذا! إنه الآن فوق القمة، لم يعد عليه أن يستشعر القلق من الانزلاق، حتى إذا أرخى قبضته، غير أنه كان من المستحيل عليه أن يجعل ذراعيه تستكينان، فظل للحظات على ما هو عليه، متشبثاً في إحكام بالشكائر.

في يوم تحرّره هذا، اليوم السادس والأربعين لوجوده في الحفرة، كانت ريح عاصفة تهب، وفيما شرع في الزحف على امتداد الحافة لطمته حبيبات لاذعة، ولم يكن قد وضع في الحسبان مثل هذه الريح الضارية. لم يكن يخشى في الحفرة إلا بأن هدير البحر أقرب من المعتاد، وفي الوقت الراهن كان ينبغي أن تسود هدأة المساء، ولكن إذا كانت الريح تهب بمثل هذه القوة، فمن المؤكد أن ليس بمقدوره أن يأمل في أن يرخي السديم أستاره، وربما كانت السماء لا تبدو معكرة إلا من داخل الحفرة، بل وربما كان قد خلط بين الرمل الذي تذروه الرياح وبين السديم، وأياً ما كان الأمر فإن الموقف بالغ الدقة.

تطلع إلى أعلى في عصبية، فلاح برج رصد الحرائق في الضوء التلاشي، مائلاً على أحد الجوانب بشكل متقلقل، وبدا عتيقاً ومتهالكاً على نحو مدهش، وناثياً إلى حد بعيد. ولكن بما أن الرجل الجاثم فيه سيرقبه من خلال منظار ميداني مكبر، فليس بمقدوره الاعتماد على بُعد المسافة كعنصر يعمل لصالحه، وراح يتساءل عما إذا لم يكونوا قد رصدوه بالفعل. كلا، فلو أنهم رصدوه، لدوى رنين جرس الإنذار في الحال.

كانت المرأة قد حدثته بأنه في ليلة عاصفة، قبل نصف عام على وجه التقريب، انهار متراس في حفرة تقع على المشارف الغربية للقرية، فدفنت الدار الموجودة فيها حتى منتصفها، ثم أمطرت السماء، فتضاعف وزن الرمل الغارق في الماء وسحق الدار، كأنها علبة ثقاب. ومن حسن الحظ أن أحداً لم يصب، ولكن في صباح اليوم التالي حاولت الأسرة بكاملها الهرب، وفي خلال أقل من خمس دقائق من دوي جرس الإنذار، كان بمقدورهم سماع نواح المرأة العجوز، وهي تساق في

طريق العودة. أضافت المرأة، رنمة الاقتناع توشي صوتها، بأن هذه الأسرة كانت، فيا يبدو، تعاني من اضطرابات ذهنية وراثية.

لا، ليس بمقدوره إهدار الوقت. رفع رأسه في حزم، وتطلع حوله. سقطت ظلال متطاولة على امتداد مغاور ومرتفعات الكثبان الرملية. كانت معالم الطبيعة تستحم في حمرة مضببة، وحفنات الرمال التي تسفيها الريح تنساب من الظلال فتبتلعها ظلال أخرى حفنة فحفنة. ترى هل يستطيع تجنب إمكانية رصده تحت ستار الريح العاصفة؟ تطلع إلى الوراء ليتبين تأثير انعكاس الضوء فتجمدت نظرته والذهول يجتاحها. فلم تكن الرمال التي تذروها الريح هي وحدها المسئولة عن حجاب الدخان الحليبي، الذي يلف معالم الطبيعة، ويلقي على الشمس الغائرة ضربا ت من الألوان الشمعية، فعلى حين غرة راح سديم متمزق ومتنقل ينهض بانتظام من سطح الأرض، وإذا ما أبعدته الريح في موضع، نهض من موضع آخر، ينجاب هنا، ويعلو هناك، ومن خبرته في الحفرة كان يدرك أن الرمل يجتذب الرطوبة، ولكنه لم يدرك أنه يحتوي كل هذا القدر. بدا ما يراه وكأنه ساحة حريق عقب انصراف رجال الاطفاء. كان سديماً خفيفاً، لا يبدو ملموساً وجلياً للغاية في الضوء المنعكس، لكنه تمويه جيد، يكفي لإخفائه عن الأعين المتربصة في المرقب.

انتعل حذاءه، الذي كان قد دسه في حزامه، ودفع بالحبل الملتف في طيات إلى جيبه، وبالمجز المتصل به سيكون سلاحاً نافعاً، إذا ما دعت الحاجة إليه. كان اتجاه هربه هو الغرب الذي انسدل عليه الضوء المنكسر. وكان أول ما تمس حاجته إليه هو العثور على مكان يلوذ به إلى أن تغرب الشمس.

طيب، فلنمض قدماً! إنحن قليلاً، واجثُ حيثما كانت الأرض منخفضة، لا تفترّ بما أنجزت، وتَرقَّب ما حولك جيداً، وانطلق! هناك! ثمّ تجويف يمكن الاختباء فيه هنالك! ما هذه الضجة المريبة؟ مؤشر سيّئ؟ ربما لا ... ! إمضِ ! واصل الاندفاع! لا تتوغل كثيراً إلى اليمين! كانت الصخرة الموجودة إلى اليمين من الانخفاض بحيث يمكن أن تعرّضه لخطر الانكشاف.

أحدثت أطقم رفع السلال الليلية مدقّاً يمضي في خط مستقيم من حفرة إلى أخرى. وكان الجانب الأيمن من المدقّ منحدراً حيناً به عدد من الثلمات. وبدت بالكاد أسقف صف ثانٍ من الدور، وكانت تحميها بدورها الدور الملتصقة إلى جانب البحر. ولاحت جدران الحفر هنالك واطئة، وبدا السياج الخشبي المقام كحاجز للرمل على شيء من الفعالية. وكان بمقدور سكان هذه الدور فيما يبدو الخروج والدخول حسبما يريدون من جانب الحائط المواجه للقرية. وعندما رفع رأسه قليلاً استطاع أن يرى ما أمامه وصولاً إلى قلب البلدة. تناثرت أسقف من القرميد والقصدير والقش في بقع سوداء في قلب الأرض المتماوجة التي انبسطت أمامه كأنها مروحة. كانت هناك أجمة من أشجار الشربين تنتشر بلا انتظام، واستطاع مشاهدة ما بدا له بركة ماء. ولمجرد حماية هذه البقعة المثيرة للرثاء اضطرت عشر عائلات أو أكثر على شاطئ البحر للخضوع لحياة الأشنات.

كانت حفر الصيد تقع الآن في صف على يسار الطريق، وهنا وهنالك تفرّعت طرق جانبية، شقّتها أطقم السلال، وفيما وراء ذلك أفصحت شكائر رملية بالية مدفونة في الرمل عن أماكن الحفر. استشعر ألماً يخترقه لمجرد النظر إليها. وفي بعض المواضع لم تكن سلالم

الحبال تتدلى ملتفة حول الشكائر، ولكن في مواضع أكثر عدداً كانت السلال في مكانها المعهود، فحدث نفسه مفترضاً أن عدداً ليس بالقليل من العبيد قد فقدَ كل رغبة له في الهرب.

استطاع بسهولة تفهم الكيفية التي يمكن بها لمثل هذه الحياة أن تكون شيئاً ممكناً، فهناك مطابخ ثمة أفران تتقد النار فيها، هنالك صناديق تفاحية الشكل، وبدلاً من القناطير التي تتراكم فيها الكتب أكواماً، هناك المطابخ، هناك المواقد الفائشرة في الأرض، هنالك مصابيح، ثمة افران تتقد فيها النار، هناك أراجيح بالية، هنالك سقوف كساها السخام، ثمة مطابخ، هناك ساعات تعمل وأخرى لا عهد لها بالعمل، هناك أجهزة مذياع تبث براجها بأصوات مدوية، ثمة مطابخ وأفران تتقد النار فيها... ووسطها جميعها تتناثر قطع نقدية من فئة المائة بين، حيوانات مستأنسة، سدادات اذنية، زنا، مباخر، صور مهداة للذكرى و... تتواصل وتتكرر على نحو مرعب. ليس بمقدور المرء الاستغناء عن التكرار في الحياة، مثل نبض القلب، ولكن من الصحيح كذلك أن نبض القلب ليس هو كل ما في الحياة.

أدَمٌ أرضاً! هلمّ! لا، ليس في الأمر شيء، إنه مجرد غراب. ليست هناك، وآأسفاه، فرصة لاصطياده وتحنيطه، ولكن مثل هذه الأمور لم تعد ذات بال بالنسبة له، فالتوق إلى الديكورات، والنياشين، والوشم لا يأتي إلا بعد أن تتراءى للمرء أحلام تستعصي على التصديق.

بدا، في نهاية المطاف، أنه دنا من مشارف القرية، واحتل الطريق متن الكثبان الرملية، وانفسح الأفق، فغدا بمقدوره أن يرى البحر إلى يساره. وحملت الريح الرائحة الحادة المنبعثة من الأمواج المتكسِّرة،

فنشطت أذناه وخيشومه كأنها أعلى المغزل، وراحت المشفة التي لفها حول عنقه تتلاطم في الريح تستمع خده. وكما كان قد توقع بدا السديم هنا مفتقداً لقوة الارتفاع. واضحة البحر الرصاصي مرئياً كأنه لوح من الألومنيوم التي في تجعدات كأنه سطح حليب مغلي. وبدت الشمس التي اعتصرتها السحب وحاكت بيض الضفادع متجمدة كأنما فارقتها الرغبة في أن تغوص في البحر، وترقش الأفق بالصور الظلية التي لا تعبر حراكاً لسفن سوداء، لم يكن بمقدوره أن يخمن حجمها أو المسافة التي تفصلها عنه.

فيما وراء ذلك، لم يكن هنالك إلا كثبان الرمل الناعمة، المتموّجة في سلاسل لا حصر لها تمتد حتى القمة النائية. وربما كان من الخطورة بمكان المضيّ على هذا النحو. أحسّ بالقلق فتلفّت، وتطلّع وراءه، ومن حسن الطالع أن ارتفاعاً خفيفاً من الرمل كان يحول دون الرؤية من المرقب. وفيما كان ينهض على أطراف أصابعه شيئاً فشيئاً لفت نظره كوخ منخفض دفن حتى منتصفه في المنحدر الواقع إلى يمينه مباشرة، وبسبب زاوية موقعه لم يكن بادياً للعيان وسط الظلال، وباتجاه الريح كان هنالك تجويف عميق يبدو كما لو كان قد حفر بمجرفة

مكان مثالي للاختباء فيه. كان ملمس الرمل ناعماً كأنه الجانب الأسفل من قوقعة. ولم يكن هناك مؤشر لوجود أحد. ولكن ما عساه يصنع بآثار أقدامه؟ تابع بناظريه خطواته، فوجد أنه فيما وراء ثلاثين متراً كانت قد امحت بالفعل تماماً، بل وحتى حيثما كان واقفاً راحت آثار قدمه تبدو متحوّلة في شكلها أمام عينيه. كانت الريح بارعة في القيام بشيء ما على الأقل

فيما كان يوشك على الدوران، متجهاً إلى ظهر الكوخ، أقبل شيء قاتم متسللاً من الداخل، كان كلباً عجراء غليظ التركيب، كأنه خنزير. لا ينبغي أن يخيف هذا الكلب. امض، ابتعد! لكن الكلب لم يظهر ما يدل على التراجع، وانتصب في موضعه، وعيناه مثبتتان عليه. كانت إحدى أذنيه ممزقة، وعيناه الصغيرتان اللتان لا تتفقان مع تركيبه الهائل تبدو مراوغتا على نحو أكبر. راح الكلب يتشمم الهواء باهتمام، ترى أيمكن أن ينبح؟ هكذا راح يحدث نفسه متسائلاً. دعه يجرب ذلك! أحكم قبضته على المجزّ في جيبه. لو أنه أصدر صوتاً لشج رأسه بهذا المجز! حدق فيه الكلب بدوره متحدياً، ولكنه التزم الصمت، بل ولم تصدر عنه حتى زمجرة، أهو كلب مسعور؟ إن له فروة قذرة كابية، وخطمه مغطى بالندوب والبثور. إنهم يقولون إن الكلب الذي لا ينبح هو كلب خطر. يا للعنة! كان ينبغي أن يجلب معه بعض الطعام. وبمناسبة الحديث عن الطعام فقد نسي أن يحضر معه سيانيد البوتاسيوم الخاص به. آه، طيب، على أية حال ربما لن يقدر للمرأة قط أن تكتشف المكان الذي أخفى فيه السيانيد. مد يده، وأصدر صفيراً منخفضاً، ليرى إذا كان بمقدوره اجتذاب اهتمام الكلب، وعلى سبيل الإجابة جعد الكلب مقدمة خطمه التي كانت في لون الرغبة المدخنة، وكشف عن أنيابه الصفراء المرقشة بالرمل. حدث نفسه بأنه من المؤكد أن هذا الحيوان لا يمكن أن يشتهي عضه كثيراً، ومع ذلك فإن له عنقاً حيوانياً غليظاً، من الأفضل أن يدبر الأمر بحيث يتغلب عليه من المحاولة الأولى، ولكن...

أشاح الكلب بعيداً بناظريه، على حين غرة، وأحنى عنقه، وابتعد متمهلاً في تكاسل، كما لو أن شيئاً لم يحدث، وقد استسلم، فيما بدا،

لإرادته الصارمة. إذا كان بمقدوره أن يحدّق في كلب مسحور فيجعله يتراجع فذلك يعني أن قوته الذهنية في حالة طيبة. ترك نفسه ينزلق إلى التجويف وقد حينها ألفى نفسه على المنحدر. كان محمياً من الريح فندّت عنه تنهيدة ارتياح واغتباط. اختفى الكلب، مترنحاً تحت هبات الريح، وراء الرمح الذي راحت الريح تسفيه. كانت الحقيقة القائلة بأن كلباً مسحوراً قد استوطن المكان ضماناً لعدم ارتياد الناس له. وطالما أن الكلب لا يمضي ليكشف الأمر في مكتب المزرعة التعاونية فإن سلامته تبدو مضمونة. وعلى الرغم من العرق الذي راح ببطء يتحدّر منه أحسّ بأنه في حالة طيبة. ما أشد الهدوء!... هدوء يبدو معه كما لو أنه غرق في مادة هلامية. رغم أنه يتشبث بفضلة زمنية موقوتة على الدقيقة «س» فإنها تثير ضيقه على نحو يتجاوز صوت رقاص ساعته. لربما كان حرياً بصديقه «الموبيوس» أن يحدّثه على النحو التالي:

ـ ما تفعله، يا صديقي، هو تعزية نفسك بأساليب هربك، وليس وضع هدفك نصب عينيك.

وكان حرياً به أن يوافق في يسر:

ـ صحيح تماماً، لكني أتساءل عما إذا كان يتعين عليك ان تميز، على مثل هذا القدر من الدقة، بين الغاية والوسائل. ألا يستقيم الأمر إذا ما استخدمت التعريفات بحسب ما تملي الحاجة؟

ـ كلا، كلا، لن يستقيم الأمر على الاطلاق. ليس بمقدورك أن تمضي الوقت رأسياً، فمن الحقائق المقبولة أن الزمن يمضي أفقياً.

ـ وماذا يحدث إن حاولت أن تمضيه رأسياً؟

ـ لئن قمت بهذا فإنك ستتحول إلى مومياء.

ضحك مسروراً، ونزع حذاءه. يبدو أن الوقت حقاً يمضي أفقياً. ليس بمقدوره تحمل الرمل والعرق اللذين تجمّعا بين أصابع قدميه، فنزع حذاءه وجوربيه، ومد أصابع قدميه تاركاً الهواء يتخللها. آخ، لماذا تكتسب الأماكن التي تقطن فيها الحيوانات مثل هذه الرائحة الكريهة؟ ألن يكون هناك شيء جميل لو وجدت حيوانات تضوع برائحة الزهور! كلا، لقد كانت تلك رائحة قدميه، تدفق شعور عجيب بالمودة في أعماقه حينما أدرك هذا، وتذكر أن أحدهم قال إنه ما من شيء يبدو طيب الطعم مثل شمع أذن المرء، وأنه أطيب من الجبن الحقيقي، وحتى لو لم يكن الأمر بهذا السوء فهناك أنواع شتى من الأشياء الفاتنة التي لا يمل المرء تشممها... مثل رائحة سن تالفة.

كان مدخل الدار نصف مسدود بالرمل، وكان من المستحيل رؤية ما بالداخل. أكانت آثار بئر قديمة؟ لن يكون من الغريب ان يُبنى كوخ فوق بئر لحمايتها من الرمل. لا يمكنك، بالطبع، توقّع العثور على ماء في مكان كهذا... حاول أن يطلّ إلى الداخل. وفي هذه المرة لفته رائحة الكلب الحقيقية، ورائحة الحيوان أمر لا تجدي الفلسفة معه نفعاً. تذكّر أحد المنادين بالاشتراكية وهو يقول إنه يرتبط بعلاقة ودية مع شخص كروي، لكنه لا يستطيع تحمل رائحته. طيب، إذن، إذا كان الوقت يمضي أفقياً، فخير له أن يريه مدى سرعته في الانقضاء... الأمل وعدم الارتياح... شعور بالتحرّر ونفاد الصبر. وجد أنه أمر لا يطاق أن يعذّب على هذا النحو بإدناء الحرية منه ثم إبعادها عنه على نحو متواصل، أحكم لفّ المنشفة على وجهه، ورقد على ظهره. ربما كانت تلك رائحته، لكنه لن يجامل نفسه بشأنها.

زحف شيء ما على نحو متقطع غير مشط قدمه، ما كان يمكن لطريقته في المشي أن تكون على هذا النحو لو أنه كان ينتمي إلى عائلة الخنافس، لا بد أنه نوع من بق الأرض، لأنه يجر نفسه بصعوبة على قوائمه الست الضعيفة، لم تداخله رغبة في أن يتبين حقيقة الأمر، وبافتراض أن ينتمي إلى عائلة الخنافس فإنه رغم ذلك لا يزال متردداً، وهو يسائل نفسه عما إذا كان يشعر حقاً بالرغبة في مطاردته أم لا، كان فيما يبدو غير قادر على اتخاذ قرار محدد.

أحدث هبة هواء المنشفة على وجهه. كان بمقدوره أن يرى من طرف عينه مثناً للكثبان متألقاً وذهبياً. قطع منحنى مرتفعاً في نعومة خط الذهب، وانزلق قحأة إلى الظلال. كان ثمة شيء حاد على نحو غريب في التكوين المكاني، فأخذته رجفة نابعة من شعور رهيب بالوحدة. نعم، هذه بالتأكيد معالم رومانسية للطبيعة.. سيكون مثل هذا المشهد مصدر اجتذاب عظيم للسياح الشبان هذه الأيام، إنها أسهم ثمينة مذهبة الحوافي... بمقدوري أن أضمن تطويرها مستقبلاً باعتباري شخصاً مجرباً في هذه المهنة. ولكن إن كنتم ستطورونها، فعليكم بالدعاية أولاً! فحتى الذباب لن يأتي إذا لم تقوموا بالدعاية، والمكان يعدّ كأنما لا وجود له إذا لم يدر به أحد، الأمر يشبه امتلاك حجر كريم دون العثور له على استخدام عملي. طيب، إذن، الذي ينبغي أن نقوم به؟ سأضع الأمر بين يدي مصور من الدرجة الأولى وأجعله يصنع بعض الطبقات البريدية بديعة المنظر. في الأيام الخالية اعتدت أن تعثر على بقعة جميلة ثم تأمر بصنع بطاقاتك البريدية، أما الآن فإن من المعقول صنع البطاقات أولاً... وبعد ذلك التفكير في مكان جميل. وقد جلبت عينين أو ثلاثاً، فهل لكم في إلقاء نظرة

عليها؟ لقد جاء بائع البطاقات البريدية البائس وفي نيته إقناع أبناء القرية واستقطابهم ولكنه كان هو الذي تم استقطابه، وفي نهاية المطاف حل به المرض ومات. ولكن من المؤكد أن بمقدوره أن يتخيل أن رجل البطاقات البريدية كان بليغاً على نحو خاص، وربما كان مخلصاً على نحو مدهش في آماله بالنسبة للمكان، وقد راهن بكل ما يملك على هذا العمل. ما هو بحق السماء جوهر هذا الجمال؟ أكان دقة الطبيعة بقوانينها العضوية أم هو افتقار الطبيعة للرحمة ومقاومتها بلا توقف لفهم الإنسان؟

كانت فكرة معالم الطبيعة هذه ذاتها حتى الأمس قد أفعمته بشعور بالغثيان، وقد حدث نفسه بالفعل في سورة غضب بأن هذه الحفر هي المكان المناسب للمخاتلين من أمثال بائعي بطاقات البريد.

غير أنه ليس هناك سبب للنظر إلى الحياة في الثقوب وجمال معالم الطبيعة باعتبارهما أمرين يعارض أحدهما الآخر، فالمشاهد الجميلة لا يتعين بالضرورة أن تكون متعاطفة مع الإنسان. ووجهة نظره القائلة باعتبار الرمل رفضاً للحالة السكونية ليست جنوناً... وإنما هي تدفق قطره ثُمن المليمتر... عالم الوجود فيه سلسلة من الحالات. وبتعبير آخر فإن جمال الرمل ينتمي إلى الموت، لقد كان جمال الموت هو الذي يخترق روعة خرائبها وقوتها الهائلة على التدمير. لا، مهلاً، سيكون في مأزق إذا ما تعرّض للانتقاد لتشكك بطاقة رحلته الدائرية وعدم تركه لها. إنك تحب أفلام الحيوانات البريّة والحروب لأنك تجد أن اليوم العتيق ذاته في أعقاب الأمس العتيق عينه ينتظرك بمجرد خروجك من دار السينما. بل إنك تحب الأفلام المرتبطة عن كثب بالواقع إلى حد

أنها تسبب لك أزمة قلبية. هل حسبي من الحماقة حقاً بحيث يمضي إلى أفلام بها بندقية حقيقية محشوة بطلقات حقيقية؟ إن بمقدور أنواع معينة من الفئران التي يقال إنها تشرب ما تبوله بدلاً من الماء، أو الحشرات التي تقتات على اللحم الفاسد، أو قبائل البدو التي لا تعرف في أفضل الأحوال إلا بطاقة السفر ذات الاتجاه الواحد، أن تجعل حياتها تتأقلم مع الصحراء. وإذا ما كنت تعتقد منذ البداية على الدوام أن بطاقة السفر ذات اتجاه واحد فحسب، فإنك لن تضطر لأن تحاول عبثاً على هذا النحو التشبّث بالرمل مثلما تتشبث محارة بصخرة. لكن البدو مضوا بعيداً إلى حد تغيير اسمهم إلى «مربّي القطعان» ولذا...

نعم، ربما كان يتعين عليه أن يتحدث مع المرأة حول هذه المشاهد، ربما كان عليه أن ينشدها أنشودة الرمال، التي لا مجال فيها على الإطلاق لبطاقة الرحلة الدائرية، رغم أنه كان سينشدها على نحو سيء. وما قام به هو في أفضل الأحوال تقليد بائس لراقص النساء المحترف الذي يحاول اصطياد امرأة بالتلويح بطعم متمثل في نمط حياة مختلف، ولكنه مع ضغط وجهه في الرمال كان يشبه قطاً في كيس ورقي.

اختفى الضوء، فجأة، فوق متن الكثبان، وغاصت معالم الطبيعة بكاملها في الظلمة أمام عينيه. كانت الريح قد همدت، دون أن يلحظها، الآن ها هو السديم يقبل عائداً بقوة، ربما كان هذا هو السبب في أن الشمس قد غربت فجأة على هذا النحو.

طيب، إذن، هلمّ بنا!

سيتعيّن عليه الهرب، بالمرور عبر القرية، قبل أن تبدأ مجموعات رفع السلال عملها، وبالتقدير انطلاقاً من التجربة فلا يزال هناك حوالى الساعة أو خمس وأربعين دقيقة، إذا ما أراد التزام الحدود الآمنة. كان لسان القمة، كأنه يحتضن القرية، ينحني تدريجياً نحو الأرض، ممتداً حتى الخليج الصغير على الجانب الشرقي، مختصراً طريق القرية، ليحيله إلى ممر ضيق واحد. وهناك كانت صخور القمة الحادة تنتهي، منصبة إلى ما بدا أنه كثبان رملية مرتفعة قليلاً، تعصف بها الرياح. ولو أنه مضى قدماً، ذاهباً انعطاف، مبقياً على أضواء القرية اللقفة بالسدم إلى يمينه، لكان بمقدوره أن يتوقع الوصول إلى حيث تنتصب الصخور. إنها مسافة تمتد إلى ما يزيد قليلاً عن الميل، وفيما وراء ذلك امتدت مشارف القرية، لم يستطع تذكّر وجود أيّ من الدور. فلم تكن هناك إلا مساحات محدودة بين الفينة والفينة مزروعة بالفول السوداني هنا وهناك. ولو أنه كان بمقدوره عبور الكثبان فحسب فربما يكون أمراً مأموناً أن يمضي على الطريق، فعلى الأقل مُهّد باطن هذا الطريق بالطين الأحمر، وإذا ما اضطر للعدو بكل قوته فلن يستغرق الأمر منه إلا خمس عشرة دقيقة للوصول إلى الطريق السريع، وإذا ما وصل إلى هذا البعد فإنه يكون قد فاز بهذه المباراة. فالحافلات تسير على هذا الطريق والناس هناك لم يدركهم الجنون.

هكذا، فإن أمامه، بحسب تقديراته، ثلاثين دقيقة لاختراق القرية. وأسوأ ما في الرمل هو أن المرء يهدر طاقته، ليس لأن قدميه

تغوصان فيه، وإنما لعدم وجود مقاومة، والعَدْو هو أكبر إهدار للطاقة. أما السير بخطوات واسعة حذرة فربما كان شيئاً أكثر فعالية. ومع ذلك فإن الرمل يعوض امتصاص قوة المرء بإخفاء وقع الأقدام، فهو أمر طيب، على الأقل، إنه لا يتعين عليه أن يحس بالقلق فيما يتعلق بإمكانية سماع وقع قدميه.

طيب، تنبه لوضع قدميك! ليس هناك أي فارق حقاً بين وقوعه وعدمه، وغالباً ما كان يرتطم بمرتفعات صغيرة وتجاويف ويغوص في الرمل حتى ركبتيه، لا بأس بذلك، ولكن لو أنه سقط بالمصادفة في حفرة أخرى فماذا سيفعل عندئذ بحق السماء؟

حلّ الظلام. وامتدّ الرمل بلا انتهاء في تموّجات غير منتظمة، كانت هناك أمواج داخل أمواج، وفي المرتفعات الصغيرة كانت هناك مرتفعات وتجاويف أصغر. أما أضواء القرية التي جعلها نقطته الإشارية فنادراً ما كانت تلوح له، إذ حجبتها قمم التموّجات الممتدّة بلا انتهاء. وعندما كانت الأضواء تحتجب عن ناظريه كان يستعين بغريزته، وبدت أخطاؤه مائلة على نحو مروع دائماً، وربما كان ذلك راجعاً إلى أن قدميه تتجهان بشكل لا يقاوم نحو الأماكن المرتفعة سعياً وراء الأضواء بصورة غير واعية.

آه! ها هو ذا قد ارتكب خطأ مرة أخرى! كانت القرية أكثر انحرافاً إلى اليسار. ولو أنه مضى على هذا النحو لانتهى به الأمر للوصول إلى القرية مباشرة، وعلى الرغم من أنه عبَرَ ثلاثة كثبان تشبه التلال إلا أن الأضواء لم يبدُ أنها أكثر اقتراباً. لاح الأمر وكأنه يسير في دائرة في المكان ذاته. تحدّر العرق على عينيه، فتوقّف، والتقط نفساً عميقاً.

تسائل عما إذا كانت المرأة قد استيقظت الآن، وحار كذلك فيما يمكن أن يكون عليه ردّ فعلها، حينما تستيقظ، وتدرك أنه ليس موجوداً هناك. لا، ربما لن تدرك الأمر في التوّ، فمن المؤكد أنها ستفترض أنه يتريّض أمامه وراء الدار، ستكون متعبة الليلة، وسيدهشها أنها قد نامت إلى أن حلّ الظلام، وربما لن يكون بوسعها أن تحمل نفسها على التنويض اللهم إلا بمشقة، ثم ستتذكر فجأة ما وقع بينهما في الصباح من الدفء المراوح بين فخذيها اللذين لا يزالان على جفافهما وأمّ خفيف يغامرها، ستبتسم على استحياء فيما هي تمسك بالمصباح.

ولكن لم يكن هناك، على أية حال، سبب يدعوه للشعور بأي التزام أو مسئولية عن ابتسامتها، فهي لن تخسر باختفائه الا جانباً من حياتها، يمكن تعويضه بسهولة بمذياع أو مرآة.

كانت قد قالت له:

- إنك خير عون لي، فالوضع مختلف كثيراً عنه حينما كنت وحدي، بمقدوري التسكّع في الصباح، والعمل ينتهي قبل ساعتين على الأقل من موعده السابق، وأحسب أنني سأطلب من رابطة القرية أن تسند إليّ عملاً إضافياً أقوم به في الدار، سأدخر نقوداً، ويوماً ما ربما يكون بمقدوري ابتياع مذياع أو مرآة أو شيء من هذا القبيل.

(مذياع ومرآة... مذياع ومرآة...) كأنما الحياة البشرية بأسرها يمكن التعبير عنها في هذين الشيئين وحدهما. وترتبط أجهزة المذياع والمرايا برابطة مشتركة، فكل منهما يمكن ان يوصل شخصاً ما بآخر. وربما كانا يمكنان أشواقاً تمسّ جوهر وجودنا. ليكن، حينما يعود إلى مأمنه سيبتاع مذياعاً على الفور ويرسله إليها، سينفق كل ما لديه في شراء أفضل مذياع نقّال في السوق.

لكنه لا يستطيع أن يعد بالمرآة بمثل هذه السهولة، فالمرآة ستفسد هنا، فالزئبق الموجود في ظهر المرآة سينقشر في خلال ستة أشهر، وحتى سطح المرآة سيتضبب بالانتشار الدائم للرمل في الهواء. وشأن المرآة التي لديها الآن، تتطلع إليها بعين واحدة فتعجز عن رؤية أنفك... وإذا استطعت رؤية أنفك فإنك لن تتمكن من رؤية فمك، لا، إنه لا ينبغي لي سطول عمر المرآة، والمرآة مختلفة عن المذياع، فلكي تغدو وسيلة اتصال ينبغي ان يكون هناك شخص آخر لكي يرى المرآة. فما جدوى المرآة بالنسبة لإنسان ما عاد يمكن أن يراه أحد؟

ستحمر بالدهشة الآن، سترهف السمع. ألا يستغرق وقتاً طويلاً فيما هو عاكف عليه؟ من المؤكد أنه قد أطال الأمر... كان الوغد من المهارة بحيث أفلح في الهرب! أتراها ستصرخ طالبة النجدة؟ أتراها ستنهار؟ أم أن عينيها ستفيضان بالدمع فحسب؟ أياً كان ما ستفعله فلم يعد ذلك من مسؤوليته لقد كان هو الذي رفض الاعتراف بضرورة وجود مرآة.

- إنها قصة قرأتها في موضع ما... إن هجرة الدار هي الصرعة السائدة الآن. وقد اعتقدت أن ذلك يرجع إلى ظروف الحياة السيئة، لكن ذلك، فيما يبدو، ليس السبب الوحيد، وقد تحدثوا عن عائلة تنتمي للطبقة المتوسطة تعمل بالزراعة، أضافت مؤخراً المزيد من الأرض لما تملكه وجلبت الآلات، وسارت شؤونها على نحو طيب للغاية. وفجأة هجر الابن الأكبر الدار، وكان شاباً عادياً مجتهداً، وقد أدهش تصرفه أبويه، وحاروا في السر وراء هجره الدار، فأنت في القرى الريفية يتعين عليك أن تضع التزاماتك الاجتماعية وسمعتك

نصب عينيك، لذا فلا بد أن هناك سبباً يدفع وريث العائلة لهجر الدار.

ـ نعم، بالتأكيد. فالالتزام هو الالتزام.

ـ إذن، يبدو أن أحد الأقارب تجشم عناء البحث عن الفتى والإصغاء لروايته. لم يكن يعاشر امرأة، ولم يبد أن الديون أو الملذات هي التي تبرره. لم يكن هناك دافع محدد واحد. إذن فماذا كان السبب؟ إن ما قاله الفتى لم يكن له معنى على الإطلاق، وبدا عاجزاً عن إيضاح الأمر بنفسه على نحو جليّ باستثناء القول بأنه لم يعد يطيق صبراً.

ـ هناك حمقى في العالم حقاً. أليس كذلك!

ـ ولكن حينما نفكر في الأمر يمكنك أن نتفهم مشاعره. فالفلاحون عندما يزيدون أرضهم المزروعة تزيد أعباؤهم بالقدر ذاته. وفي نهاية المطاف فإن قوة عملهم لها نهاية، والأمر لا ينتهي إلا وقد وقع على كاهلهم المزيد مما يتعين عليهم القيام به. ومع ذلك فالفلاح لديه على الأقل عائد يضاف إلى محاصيله من البطاطس والأرز، وإذا ما قورن نقل الرمال بعمل الفلاحين لبدا مثل محاولة مراكمة الصخور في نهر هاديس[1]، حيث تحملها الشياطين بعيداً بالسرعة التي نلقيها بها.

ـ طيب، ماذا حدث لنهر هاديس في النهاية؟

---

(١) كلمة «هاديس» في اللغة الاغريقية تعني «المحجوب» أو «الخفي»، والمقصود بها أصلاً هاديس، أو بلوتو، رب العالم الأرضي، في

ـ لا شيء، فذلك عقاب جهنمي، لا لشيء إلا لأنه لا شيء على وجه الدقة يحدث.

ـ طيب، إذن، ماذا حدث للابن بعد ذلك؟

ـ كان قد خطط الأمر كله مسبقاً، بل وربما حصل على عمل قبل أن يتحرك من موضعه.

ـ ثم ماذا فعل؟

ـ بعد ذلك ربما حصل على أجره في يوم دفع الأجور، وأحسب أنه في أيام الآحاد كان يرتدي قميصاً نظيفاً ويرتاد دور السينما...

ـ ثم...

ـ لن يقدر لنا أبداً أن نعرف، ما لم نطرح عليه هذا السؤال مباشرة. أليس كذلك؟

ـ وعندما يدخر بعض النقود، ربما سيبتاع لنفسه مذياعاً. أليس كذلك؟...

حدث نفسه بأنه قد انتهى، في نهاية المطاف، من التسلق، لكنه لم يقطع إلا نصف الطريق فحسب. لا، هذا خطأ، فالأرض مسطحة

---

* الميثولوجيا الاغريقية، لكنها أيضاً يقصد بها، وهو المعنى المراد في المتن، أحد أنهار ثلاثة، تقول الميثولوجيا الاغريقية إنها تفصل بين عالمي الأحياء والموتى، وهي أنهار هاديس وستيكس وأخيرون، وتتقاطع مع هاديس لثلاثة أنهار، على حين يعددها ميلتون في ٤ أنهار، ويقع آبي في مفارقة طريفة يعدد هنا من الشياطين لأن المعروف أن الاغريق لم تضم رؤيتهم الميثولوجية تصوراً للشيطان (هـ.م)

ها هنا. أين ذهبت الأضواء التي اتخذها نقطة إشارية؟ واصل المسير وهو لا يصدق ما تراه عيناه. كان المكان الذي يقف فيه، على ما يبدو، قمة كثيب سامق. لم يعجز عن رؤية الأضواء من هنا؟ أصابه شعور بالخوف من شر مرتقب ساقه بالشلل، ربما كان كسله السابق هو السبب في فشله، انزلق هابطاً مع المنحدر الحاد، دونما مبالاة بالاتجاه، فألفاه وهداً طويلاً على غور غير متوقع، ليس عميقاً فحسب، وإنما هو متسع كذلك، وتشابكت خطوط منسابة من الرمل في القاع، فجعلته يعجز عن إصدار حكم دقيق، ومع ذلك لم يستطع على الإطلاق فهم السرّ في أن أضواء القرية قد احتجبت من النظر، لم يكن هامش الخطأ الذي يقع فيه يتجاوز نصف الميل على أي من جانبي خط تقدمه، وربما أخطأ الطريق، لكن الأمر لا يمكن أن يكون خطيراً. كان يريد المضيّ يساراً، ولكن ربما بسبب خوفه من القرية أحسّ كذلك بأنه ينبغي أن يضرب بجرأة إلى اليمين لكي يدنو من الأضواء، ذلك أن الطريقة الأسرع هي تسلّق أي موضع مرتفع بغض النظر عن موقعه وتحقيق أفضل إطلالة يمكنه تحقيقها على ما حوله.

مع ذلك، فلم يستطع فهم الأمر، لم يفهم على الاطلاق السر في أن المرأة مضطرة إلى الارتباط على هذا النحو بنهر هاديس ذاك... حب الدار والالتزام لا يكون لها معنى إلا إذا كان المرء سيخسر شيئاً ما بالتخلّي عنها. فما الذي يمكن أن تخسره بهذا الجحيم؟

(مذياع ومرآة... مذياع ومرآة...)

سيرسل إليها مذياعاً، بالطبع. ولكن ألا يمكن أن يتضح أن الأمر على العكس من ذلك، وأنها ستخسر أكثر مما ستكسب؟ فلن يكون هناك، على سبيل المثال، ذلك الاحتفال بتحميمه، الذي كانت تجبه

كثيراً، وقد اعتادت على الدوام أن تدخّر الماء لتحممه به، حتى ولو كان ذلك على حساب غسل الملابس. كانت تنثر الماء ما بين فخذيه، وتنحني، تماماً كما لو كانت تفعل ذلك لنفسها، موغلة في الضحك حدّ الصراخ. لن تكون أمامها فرصة أخرى للضحك على هذا النحو مرة أخرى.

لا، لا ينبغي أن يكون هناك لبس أمامها. منذ البداية لم يكن هناك عقد بينه وبينها، وبما أنه ليس هناك عقد فلا يمكن أن يكون هناك انتهاك لعقد، فضلاً عن ذلك فإنه بدوره لم يخلُ من التأثر، فهناك الرائحة الفاغمة المنبعثة من الساكي الرخيص الذي يوزّعونه مرة كل أسبوع، والذي يبدو كما لو كان قد عصر من كومة روث... انثناء اللحم على الجانب الداخلي من فخذيها، حيث كان بمقدوره أن يرى العضلات بارزة في سلاسل مرتفعة... الإحساس بالخجل وهو يكشط بإصبع مبلّله في فمه المطاط المحترق الشبيه بالرمال الذي يجتمع على الطيات القاتمة لفرجها... وبسمتها الخبيئة التي تجعل هذه الأمور أشد بذاءة، ولو أنه أضافها بعضها إلى البعض الآخر ليبلغ مجموعها الكثير. وحتى لو أن تورّطه بدا عصياً على التصديق فإنه حقيقة قائمة مع ذلك، فالرجل، على نحو يخرق المرأة، يميل إلى التخلّي عن ذاته لجزئيات الأمور.

عندما فكر فيما أقدم القرويون عليه، أدرك أنه سيكون من المستحيل تقريباً تقدير الأذى الذي لحق به على أيديهم. لم يكن للعلاقة بينه وبين المرأة كبير أهمية. وفي وقت من الأوقات عقد العزم على القيام بإجراء انتقامي ضدهم، ولم يكن قد قرّر بعد ما هو الإجراء الذي يمكن أن يكون الأسوأ بالنسبة لهم، وفي البداية فكّر في إشعال النار في القرية بكاملها، أو تسميم الآبار، أو نصب شرك يكفل

اجتذابهم واحداً إثر الآخر إلى حفرة في الرمال، وقد استحثَّ نفسه في هذا المجال، دافعاً خياله قدماً بالتفكير في مثل هذه الاجراءات المباشرة. أما الآن وقد غدا في متناوله أشخاص مثل هذه الفرصة فليس بمقدوره مواصلة التفكير في مثل هذه الأمور الصبيانية، وفي نهاية المطاف فإن عنف فرد واحد لن يصل إلى الكثير. والسبيل الوحيد هو تقديم شكواه إلى السلطات، وحتى لو أنه قام بذلك فإنه يخشى أنها لن تدرك بالقدر الكافي مدى ضراوة التجربة التي تعرض لها ومغزاها. طيب، لسوف يبلغ شرطة المقاطعة، مؤقتاً، بالأمر.

آه، نعم، ثمة شيء آخر...

انتظر! ما هذه الضجة؟ لم يعد بمقدوره سماعها. ربما كان الأمر من صنع خياله. وبالمناسبة أين اختفت أضواء القرية؟ فعلى الرغم من أن الأرض ليست مستوية إلا أنه من العبث البالغ ألا تظهر في أيّ مكان للعيان. كان بمقدوره بسهولة أن يتصوّر أنه قد مال إلى الانحراف يميناً، وبعد أن أوغل كثيراً في اتجاه القمة حجبته بعض المرتفعات عن القرية، ليس بمقدوره أن يهدر الوقت، لسوف يضرب بجرأة إلى اليمين.

... هناك، في النهاية، شيء آخر لا يريد أن يتساءل... فهي لم تستطع الرد على سؤاله قط. كان المطر قد ظلّ يهمي طوال يومين، وحينما تقطر السماء فإن قوة الانهيارات الرملية تزداد، وإن كان الرمل المتطاير يقلّ كثيراً، ولما كانا قد أنجزا عملاً إضافياً في اليوم الأول لهطول المطر فإنه كان بوسعهما العمل على مهل في اليوم التالي. وقد عقد العزم، منتهزاً فرصة أول وقت فراغ يتاح لها منذ مدة، لكي

يمضي قدماً في عناد بمشروعه، إذ كان قد قرر أن يحاول الوصول إلى السبب الذي يخفيها في الحفرة، ولسوف يمضي في الأمر بالصبر ذاته الذي يعتصم به المرء وهو يجز القشور الباقية من مرض جلدي. وقد دهش هو نفسه لما أبداه من جلد وإصرار. كانت قد تركت المطر في البداية يلطم جسمها العاري في مرح، لكنها في النهاية دُفعت إلى حافة البكاء. وأخيراً شرحت تقول ما معناه أنها لم تستطع المغادرة بسبب جثماني طفلتها وزوجها، المدفونين مع أختان الدجاج تحت رمال الإعصار. طيب هذا أمر يمكن تفهُّمه، وهو شيء منطقي تماماً بالنسبة لها، بل إن بوسعه أن يدرك كذلك كنه تكتُّمها وعدم تبادلها للحديث معه حول هذا الأمر حتى ذلك الوقت. لكنه قرر أن يصدقها على أية حال، وعقد عزمه في الحال على أن يقوم في اليوم التالي بتكريس جانب من الوقت المخصص للنوم للبحث عن الرفات.

وواصل الحفر على مدار يومين في المكان الذي أشارت إليه، لكنه لم يعثر على أثر أختان الدجاج، دع جانباً الرفات، ثم أشارت إلى مكان آخر، فلم يجد فيه شيئاً بدوره، ثم أومأت إلى موضع ثالث، وعلى هذا النحو راح يحفر دونما طائل. على امتداد تسعة أيام في خمسة مواضع مختلفة. وعندئذ بدأت في انتحال الأعذار، وقد بدا عليها أنها توشك على الانخراط في البكاء من جديد. وكانت قد قالت إن موضع الدار قد تبدل بالفعل، إذ غيّره الضغط المتواصل من جانب الرمال، كما قالت إن أختان الدجاج، وكذلك رفات زوجها وطفلتها، ربما دفنت تحت حائط الرمال الغليظ، الذي يفصل دارها عن دار جارها، وأنها ربما تحركت إلى حديقة الجار. ومن المؤكد أن ذلك كان ممكناً من الناحية النظرية، وأفصح التعبير التعس والمتكسر المرتسم على محياها

من أنها لم تقصد أن تكذب، ولكنها لم تكن لديها النية في إبلاغه بجلية الأمر، منذ البداية. وفي نهاية المطاف فإن الرفقات لم تكن إلا عذراً تعلّل به، ولم تكن لديه القوة لكي يجتاحه الغضب، ثم قرّر مغادرة المكان، وهو يحاول تخمين أيها مدين للآخر، ومن المؤكد، فيما حدث به نفسه، أنها ستتفهم هذا، ولكن...

ما هذا؟ ارتمى أرضاً. حدث كل شيء بسرعة بالغة، فلم يستطع استيعاب الموقف، إذ على حين غرة امتدت القرية أمامه. كان قد سار، فيما يبدو، على خط مستقيم نحو القمة الرملية القريبة منها، وفي اللحظة التي انفتح فيها المجال أمامه ألفى نفسه في مركز القرية ذاته، وقبل أن يستطيع استجماع شتات أفكاره، انبعث نباح عدائي من سياج مصنوع من الأغصان المجتثة، وأطبق عليه كلب تأخر، وفي الظلام أحدقت به حلقة من الأنياب البيضاء، فجذب الحبل ومعه المجرّة، ووثب، وانطلق عدواً، لم يكن لهُ خيار، فالشيء الوحيد الذي كان من الممكن القيام به هو الاندفاع مباشرة إلى بوابات القرية.

- ٢٦ -

انطلق يعدو.

شكّلت الدور، التي راحت تسبح في الضوء المعتم المنبعث من المصابيح الموقدة، متاهة من العقبات والممرات، على امتداد الطريق الوحيد الذي سلكه في هربه. كان بمقدوره أن يحسّ بمذاق الريح، وهي تندفع صافرة من خلال حلقه المنقبض، كأنها صدأ فائر. وكان يانس على لوح رقيع من الزجاج المغبى بالفعل حتى درجة الانكسار.

فمن المؤكد أن مجموعات رفع السلال قد غادرت دورها بالفعل، لكن الوقت كان مبكراً على توقّع قطعها للمسافة الممتدة إلى شاطئ البحر. وفي الحقيقة، فإنه لا يتذكر أنه سمع الأصوات التي تصدر عن الشاحنة ذات العجلات الثلاث، وليس من المحتمل أنه غابت عنه الضجة المميزة «بوت ـ بوت» التي تصدر عن المحرك ذي الأسطوانتين، وتُسمع على بعد نصف الميل على الأقل. كان الموقف خطراً على نحو بالغ.

وثبت كتلة قاتمة، على حين غرة، من قلب الظلال، كانت كلباً ضخماً إلى حد كبير، إذا ما شاء المرء أن يحكم استناداً إلى هائه. غير أنه بدا جلياً أنه لم يتلق تدريباً على المهاجمة، وكرس المجهوم بالنباح، قبل أن يوشك على غرس أنيابه في جسمه. ساط الهواء بحبله، فلطم المجز شيئاً، وانبعث نباح مشؤوم من الكلب، وذاب من جديد في الظلال. ومن حسن الطالع أنه لم يطبق بخطمه إلا على ثنية سرواله، انزلقت ساقاه تحته فيا هو ينحجز. فقفز في الهواء، فيا هو يتهاوى، وفي الحال وقف على قدميه من جديد، ومضى يركض.

غير أنه لم يكن هناك كلب واحد، وإنما خمسة كلاب أو ستة، فيا يبدو، وراحت الكلاب الأخرى، وقد ثبط عزيمتها الإخفاق الذي مني به الكلب الأول، تنتظر فرصتها فيا هي تدور حوله ناعجة. ربما كان الكلب القصير والثخين الأحمر الذي صادفه قبلاً في الكوخ يستحثّها من الخلف. عندئذ قفز فوق ركام من القواقع في بقعة خاوية، وانطلق يعدو بين بعض الأسوار الضيقة المصنوعة من الأغصان المقطوعة، شاقاً طريقه عبر حديقة تشر فيها القش ليجف، وأخيراً خرج إلى طريق عريض، لم يبق إلا القليل ويخرج من القرية.

إلى جوار الطريق مباشرة كان هناك مسال صغير للمياه، اندفع طفلان، بدا أنهما أخ وأخته، خارجين منه، لم يلحظهما إلا بعد فوات الأوان، بذل ما في وسعه لتنحية الحبل جانباً، لكنه صدمهما، وسقط الثلاثة معاً في المسال. كان في القاع شيء يبدو كأنه أنبوب خشبي، وصاحب سقوطهم الصوت المكتب المنبعث من تشظي الخشب، وصرخ الطفلان. اللعنة! لِمَ يتعين عليهما أن يصرخا بهذا الصوت العالي؟ قاما بكل قوته وتسلق الحافة بجهد جهيد، وفي هذه اللحظة عينها تراءت أشعة ثلاثة مصابيح نقالة لسدة الطريق عليه.

في الوقت نفسه، دوى رنين جرس الإنذار. راح الطفلان يبكيان.. والكلاب تنبح... ومع كل رنين للجرس كان قلبه يتواثب خافقاً. تفتحت مسامه، وتدفقت خارجة ألف حشرة مستدقة الطرف كحبات الأرز. بدا أحد المصابيح النقالة من النوع الذي زوّد بيؤرة قابلة للضبط والتعديل، وفي اللحظة التي حدث نفسه فيها بأن الضوء يتقلص اخترقه فجأة من جديد كأنه إبرة محّاة حد الابيضاض.

ترى هل يتعين عليه أن يرتب هجوماً بالمواجهة متهالاً عليهم بأقوى ما يستطيع؟ لو أنه استطاع العبور إلى هنالك لغدا خارج القرية، لربما قد يندم على هذا الأسلوب، فيما بعد، لكنه بالدرجة ذاتها قد لا يندم عليه، وإن كان كل شيء يتوقف على هذه اللحظة. هلم! لا تتردد! لئن لم ينتهز الفرصة الآن لفات الأوان، وليس بمقدوره أن يتطلع إلى فرصة أخرى.

وفيما كان يفكر في هذا، قامت المصابيح النقالة المتربصة به في شكل نصف دائرة حوله بالانتشار إلى اليمين واليسار، ودنت منه على مهل. فقبض على الحبل بمزيد من الإحكام، وأدرك أنه يتحتم عليه أن

يتحرك، لكنه لم يعر إلا الوقوف هنالك وأصابع قدميه تقضم الأرض اللدنة، عاجزاً عن الوصول إلى أي قرار. كانت المواضع الواقعة بين أضواء المصابيح مليئة بالظلال المعتمة لرجال يترنصون، وذلك الجسم الغامض إلى جانب الطريق والذي بدا كما لو كان حفرة للوهلة الأولى هو يقيناً الشاحنة ذات المجلات الثلاث، وحتى إذا كان أفلح في الاختراق، لكانوا أدركوه من خلفه، وكان بمقدوره أن يسمع وراءه خطى الطفلين اللذين كفّا عن البكاء وانطلقا يعدوان، وفجأة واتته فكرة بديعة، لسوف يسترد الطفلين ويجعلها بمثابة درع حيّة له، وباتخاذهما رهينتين بمقدوره وقف الرجال عن الإطباق عليه. ولكنه عندما التفت للحاق بهما كان بمقدوره أن يرى أنواراً أخرى في انتظاره. كان الطريق الواقع وراءه قد قطع بدوره.

نكص على عقبيه، وانطلق يعدو مستجمعاً قواه على امتداد الطريق الذي أقبل منه لتوّه، كان قراره نوعاً من الفعل المنعكس، وقد علق الآمال على العثور على موضع يخترق عبره الكثيب الواقع قرب القمة. صرخ رجال القرية وهم ينطلقون خلفه، أحسّ بالضعف يعتري ركبتيه، كأنما تخلخلت أطرافه، ربما كان قد أسرع أكثر مما ينبغي، ولكنه بدا، في الوقت الحالي على الأقل، وكأنه قد أخذهم على غرة، واستطاع الحفاظ على مسافة بينه وبينهم تكفي لكي يلتفت بين الفينة والفينة ليتبيّن مكانهم.

راح يتساءل: ما طول المسافة التي قطعها؟ كان قد قطع عدة كثبان هبوطاً وصعوداً، ولكن كلما بذل المزيد من الجهد بدا له أنه يجري عبثاً، وكأنما في حلم، في موضع واحد. ولكن هذا ليس وقت التفكير في الكفاءة. أحسّ بمذاق كمذاق العسل ممزوجاً بالدم على ظهر لسانه،

فحاول أن يصفه، لكن المادة كانت أكثر لزوجة، فدسّ إصبعه في فمه، وأزالها.

كان جرس الإنذار لا يزال يقرع، لكن صوته كان بعيداً ومتقطعاً، وأصبح نباح الكلاب كذلك لغواً بعيداً شكــاً. كان تنفّسه، الذي يحاكي مبرداً يقضم معدن، هو مصدر الاضطراب الذي يستقطبه الآن. كانت الأضواء الثلاثة المطاردة لا تزال منتظمة في صورة صفّ، تتذبذب هبوطاً وصعوداً، وفيها لم تبد مقتربة منه فإن أيّاً منها لم يبد مبتعداً كذلك. من الآن فصاعداً استحال الأمر إلى مسألة تحمّل، لكنه ما كان بوسعه أن يتفاءل للغاية فيما يتعلق بهذا الأمر، فربما دام الضغط وقتاً أطول مما ينبغي. وفجأة بدا ذهنه وكأنه ينحني تحت وقر ما يعاني، وفي لحظة الضعف هذه علق أمله على أن قوته ستنفد وأنه سينتهي من الأمر بأسره. كان هذا العرض خطيراً، لكنه كان شيئاً طيباً أن يدرك مدى خطورته على وجه الدقة.

امتلأ حذاؤه بالرمل، وشرعت أصابع قدمه تؤلمه، تطلّع خلفه فأدرك أن مطارديه قد انحرفوا وراءه إلى اليمين بمقدار سبعة أو ثمانية أمتار. لماذا خرجوا عن المسار على ذلك النحو؟ لأنهم حاولوا تجنّب أن يتجنبوا المنحدرات فانتهى الحال بهم إلى القيام بمطاردة بعيدة عن البراعة، كانوا فيما ظهر جلياً متعبين للغاية بدورهم. وغالباً ما يقال إن القائم بالمطاردة يدركه الإعياء على نحو أسرع من المطارد. توقف، وانتزع حذاءه مسرعاً، ليعدو حافي القدمين، ودسّ حــذاءه في حزامه، حيث أنه سيكون مصدر ضيق إذا وضعه في جيبه. ارتفعت معنوياته قليلاً، فلئن سارت الأمور على هذا النحو وواتاه قليل من الحظ لأفلت منهم.

ورغم أن القمر لم يطلع إلا أن المنطقة بدت مرقشة ببقع واهنة من ضياء النجوم، وكان بمقدوره أن يميز الظلال البعيدة، وبدا أنه يتجه نحو نهاية القمة. ومرة أخرى أحسّ بدافع إلى الاتجاه يساراً، وفيما كان يوشك على تغيير الاتجاه أقلع عن ذلك توّاً، فلو أنه غيّر اتجاهه لضيّق في الحال المسافة التي تفصله عن مطارديه، فصمم وقد أدرك للمرة الأولى خطتهم.

كانت مطاردتهم التي بدت للوهلة الأولى غير محكمة كانت في الحقيقة محكمة التخطيط، فقد كانوا يحاولون دفعه باتجاه البحر، ودون أن يعرف كانوا يقومون بتوجيهه. وأدرك وهو يفكر في الأمر الآن أن أضواء المصابيح قصد بها على وجه الدقة أن تتركه يعرف مواضعهم، وكانت الطريقة التي حافظوا بها على مسافتهم دون الاقتراب منه شيئاً مقصوداً.

لكن الوقت كان لا يزال مبكراً على الاستسلام. وكان قد سمع أن هناك طريقاً يمكن عبره تسلق الصخور في موضع ما، وإذا ما اقتضى الأمر فلن يكون من المستحيل أن يسبح إلى ظهر القمة النائئة في البحر. فكر في إلقاء القبض عليه وإعادته فلم يعد مجالاً للتردد. ثمة منخفضات حادة ارتفاعات طويلة هينة، ارتفاعات حادة ثم منخفضات طويلة هينة، قدم بعد الأخرى... خطوة تضاف إلى أخرى، كأنها حبات مسبحة تكرّ... بصبر... بصبر. كان جرس الإنذار قد توقف، دون أن يلحظه، ولم يعد بمقدوره أن يميّز بين وقيف الريح وهدير البحر وطنين أذنيه. ارتقى رابية، وتطلّع حوله، فألفى أضواء المطاردين وقد اختفت، فانتظر لحظة، لكنها لم تعاود الظهور.

راح يسائل نفسه: هل ابتعد حقاً؟

جعلت آماله المحلقة دقات قلبه تتوالى مسرعة، ولئن صدق ما يحسّ به لكان ذلك مدعاة إلى عدم التراخي، في الوقت الحالي... اندفاعة أخرى... هلم إلى المرتفع التالي!

فجأة، وجد العدو متعذراً. أحسّ بساقيه ثقيلتين على نحو غريب، لم يكن الأمر مجرد شعور بالثقل فحسب. لقد شرعت ساقاه تغوصان في الرمل بالفعل، حدث نفسه بأن الأمر يحاكي السير على الثلج، وعندئذ غاص حتى ركبتيه، فانتزع إحدى قدميه من الرمل مندهشاً، وغاصت الأخرى مسرعة حتى ركبته. ما الذي يجري؟ لقد سمع بأن الرمل يبتلع الناس، قاوم بدأب، محاولاً انتزاع نفسه من الرمل، ولكن كلما اشتدت مقاومته غاص بصورة أعمق، كانت ساقاه مدفونتين بالفعل في الرمل حتى الفخذين.

آه! هذا هو الفخ إذن! لم يكن هدفهم البحر على الإطلاق، وإنما الوصول إلى هنا! كانوا يعتزمون القضاء عليه، حتى دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الإمساك به. القضاء عليه حقاً! حتى أمهر الحواة ما كان ليفعل بمنديله ما هو أكثر حذقاً من هذا. هبة أخرى من الريح ويختفي كلية، وحتى أفضل كلاب الشرطة سيجد نفسه عاجزاً عن تعقب آثاره. ليس على الأوغاد حتى أن يظهروا أنفسهم، فهم لم يروا شيئاً، ولم يسمعوا شيئاً، لقد ضل غريب أخرق طريقه، وانقطعت آثاره. لقد دبروا الأمر برمته دون أن يلطخوا أيديهم بأدنى أثر.

مضى في الغوص... أوغل فيه... سرعان ما يغوص حتى خصره. ما الذي يستطيع القيام به بحق الله؟ لو أنه استطاع توسيع

مساحة اتصاله بالوحل لأصبح وزن كل بوصة مربعة من جسمه أخف، ولربما أمكنه كبح جماح الغوص هوناً ما. تخبّط غائصاً في الرمل، وقد نشر ذراعيه جانباً، غير أن الأوان قد فات بالفعل، وكان يعتزم الرقود على بطنه، لكن النصف الأسفل من جسمه أصبح الآن مثبتاً في الرمل بشكل عمودي، وكان من المستحيل إبقاء ردفيه المجهدين في الزاوية الصحيحة لمزيد من الوقت، وما لم يكن المرء فنان ألعاب أكروبات مدرباً، فإنه عاجلاً أو آجلاً سيعجز عن الاستمرار في هذا الوضع.

ما أشدّ الظلمة! لقد أغمض العالم عينيه، وأصمّ أذنيه، لن يلتفت أحد إلى الوراء ليلقي نظرة على تشنّجات احتضاره، فقد جعل الخوف حلقه يتشنّج، وفجأة انطلق، انفتح حلقه، وصدرت عنه صرخة كأنها صادرة عن حيوان جريح:

ـ النجدة!

يا للتعبير المبتذل! طيب، فليكن تعبيراً مبتذلاً، لما جدوى الشخصية المتميزة حينما يكون المرء في النزع الأخير؟ تمنّى أن يواصل الحياة تحت أي ظرف، حتى ولو لم تكن لحياته شخصية فردية تفوق ما لحبّة البازلاء في قرنتها. سرعان ما يغوص حتى صدره، ذقنه، أنفه ... كفى، في هذا الكفاية!

ـ النجدة! أرجوكم! أعدكم بأي شيء! أرجوكم النجدة! أرجوكم!

انخرط في البكاء في نهاية الأمر، وفي البداية كان يتملّك ناصيته نشيجه، لكنه سرعان ما انقلب إلى صراخ زاعق. استسلم لخوفه، مستشعراً ذلك الإحساس الرهيب بأن كل شيء قد ضاع، لم يكن

هناك من يراه، لكن ذلك لم يعن له شيئاً. كان غلياً بيناً أن يحدث هذا كله دون أي مراعاة للشكليات. إذ عندما يلفظ مجرم مدان أنفاسه الأخيرة فإنه يترك وراءه، تسجيلاً صوتياً على الأقل، يصرخ بقدر ما يطيب له. وبما أنه ليس هناك من يراه... فبمقدوره بدوره أن يفعل ذلك.

هكذا، فإنه عندما ناوشه أصوات من ورائه كانت دهشته بالغة، لقد حاقت به الهزيمة تماماً، بل وحتى شعوره بالخجل تبدد كأنه الرماد الذاوي لجناح يصرصور.

ـ إيه، أنت يا من هناك! أمسك بهذا!

انزلق لوح خشبي طويل نحوه، وأصاب جانبه، وشقت دائرة ضوء ضباب الظلام، وسقطت على اللوح الخشبي، لمس الجزء المصاب من جذعه، مبتهلاً إلى الرجال الذين أحس بأنهم وراءه.

ـ أخرجوني بهذا الحبل! هل لكم في ذلك؟...

ـ لا، لا، ليس بمقدورنا انتزاعك، كأنك جذر في الأرض.

قالها صوت ضاحك، ولم يكن بمقدوره التأكد من الأمر، لكنه بدا له أن هناك أربعة أو خمسة أشخاص.

ـ ما عليك إلا الانتظار قليلاً، فقد أرسلنا في طلب جاروف، ضع كوعيك على تلك القطعة من الخشب، وستكون على ما يرام.

وضع كوعيه، على نحو ما قيل له، وأسند رأسه إلى ذراعيه، كان العرق يبلل شعره، ولم يحسّ بأي انفعال بعينه اللهم إلا بالرغبة في التخلص من هذا الموقف المخزي بأسرع ما يمكن.

ـ هاك!... من حسن حظك أننا تبعناك، فهناك مناطق منبسطة من الرمال المتحركة ها هنا، وحتى الكلاب تحجم عن الاقتراب منها، كنت في خطر داهم حقاً... ضل كثيرون طريقهم إلى هنا دون أن يدركوا، ولم تقدر لهم العودة قط. هذا المكان سطح جبلي مقعر، وهناك الكثير من التقلقل والحراك، في الشتاء يهمي الثلج، ويتراكم الرمل فوقه، ثم يأتي الثلج مرة أخرى. وقد استمر هذا لزهاء القرن إلى أن أصبحت المنطقة مثل كومة من البسكويت الرفيع. هذا على الأقل ما قاله الابن الثاني لرئيس النقابة العجوز، الفتى الذي يتعلم في المدرسة بالمدينة. أمر مثير للاهتمام. أليس كذلك؟ وإذا حفرت حتى القاع فقد تجد شيئاً ثميناً...

لمَ يحدثه بهذا؟ بمقدوره التوقف عن الحديث بمثل هذه الوقاحة، كأنما لم يكن على علم بالحقيقة! سيكون من الأفضل أن يكشف النقاب عن وجهه، أم لعله يؤثر على الأقل أن يترك، شأنه مع استسلامه البائس.

أخيراً أحس بحركة مهتاجة وراءه، فقد وصل الجاروف بالفعل، وشرع ثلاثة رجال يتحملون ألواحاً شُدّت إلى نعال أحذيتهم يرفعون الرمال من حوله في حلقة واسعة، أزاحوها في شكل طبقات، وتحتها دفنت أحلامه ويأسه وخجله واهتمامه بالمظاهر. وهكذا فإنه لم يتأثر على الإطلاق حينما سحبته أيديهم كتفيه، ولو أنهم أمروه بأن يفعل ذلك لأسقط سرواله وأفرغ أمعاءه تحت سمعهم وبصرهم. وشى الضوء السماء، وبدا كما لو أن القمر قد طلع، ترى كيف تستقبله المرأة لدى عودته؟ لم يعد الأمر يعنيه حقاً. فلم يعد الآن أكثر من كيس تدريب على الملاكمة ينبغي لطمه.

ثمّ تمرير حبل تحت ذراعيه، ومثل سقط المتاع جرت تدليته مجدّداً إلى الحفرة. لم ينبس أحد ببنت شفة، بدا الأمر كما لو كانوا يشهدون دفن جثّة. كانت الحفرة عميقة ومظلمة، ورغم ضوء القمر معالم الطبيعة الرملية بسنا فضيّ، فجعل آثار الأقدام وتموّجات الرمال تبدو كأنّها زجاج مموّج. لكن الحفرة، في غمار رغبتها للقيام بدور من المشهد كانت غارقة في الظلمة، ولم يثر ذلك ضيقه بشكل خاص، فقد أفضى به إلى الاعياء إلى حدّ أن رفع رأسه للتطلّع إلى القمر جعله يشعر بالدوار والغثيان.

بدت المرأة كأنّها بقعة سوداء وسط الظلام، صحبته وهو يمضي نحو الفراش، ولكن لسبب ما لم يكن بمقدوره أن يراها على الإطلاق. لا لم يكن الأمر قاصراً على المرأة وحدها، وإنّما كان كل شيء حوله ضبابياً لا يكاد يبين. وحتى بعد أن تهاوى على فراشه، كان لا يزال، حسب خياله، يعدو بكل قوته على الرمال. وحتى خلال أحلامه كان لا يزال يواصل العدو، لكن نومه كان خفيفاً، وبقيت ذكرى نباح الكلاب في البعيد، واستطاع سماع ذهاب ومجيء السلال. أحسّ برجوع المرأة من عملها مرة خلال الليل بحثاً عن شيء تأكله. وأنها أوقدت المصباح بجانب وسادته لتأكل مستضيئة به، واستيقظ كلية حينما انبعث من مرقده باحثاً عن جرعة ماء، ولكنه لم تكن لديه طاقة كافية لكي يخرج لمساعدتها.

لم يجد لديه ما يفعله، فأوقد المصباح مرة أخرى وراح، شارداً،

يدخن سيجارة. شرع عنكبوت سمين، وإن كان يفتقد الحركة سريعها، يدور في حلقة حول المصباح. من شأن هذه الحركة أن تكون طبيعية بالنسبة لفراشة، ولكنه بدا من الغريب أن يجتذب الضوء عنكبوتاً. كان على وشك أن يحرقه بالسيجارة. لكنه أحجم عن ذلك فجأة، وراح العنكبوت يدور في دقة بالغة في محيط يبلغ ما يتراوح بين سبع إلى عشر بوصات، مثل عقرب الثواني في ساعة. أو ربما لم يكن عنكبوتاً من النوع الذي ينتحي للضوء في بساطة. كان يراقبه في توقع حينما دنت مرفرفة فراشة ذات أجنحة رمادية قاتمة مرقشة بزخارف بيضاء وسوداء. ومرات عديدة سقط ظلها الهائل على السقف فيما هي ترتطم بزجاجة المصباح، ثم تجثم على المحراك المعدني في سكون. كانت فراشة غريبة رغم مظهرها الفج المبتذل. مس بالسيجارة جسمها، فأصاب الدمار مراكزها العصبية، ودفع الحشرة المتهالكة في طريق العنكبوت، وفي الحال بدأت الدراما المتوقعة، فقد وثب العنكبوت توّاً، مثبتاً نفسه على الضحية التي لا تزال الحياة تدب فيها، ثم شرع يدور من جديد، جاراً ضحيته التي غدت هامدة الآن معه، وبدا أنه يلتقط تلهفاً على وجبته البقية.

لم يكن يعلم أن هناك عناكب من هذا النوع، ما أبرع أن يستخدم المصباح بدلاً من نسيج شبكته! فهذا النسيج ليس بمقدوره إلا أن ينتظر على نحو سلبي، ولكن في وجود المصباح أصبح بمقدوره أن يصارع طريدته. غير أن الضوء المناسب كان هو الشرط المسبق لهذا الأسلوب، ومن المستحيل الحصول على مثل هذا الضوء بصورة طبيعية، ولن يجدي البحث عن حريق مشتعل في غابة أو التجوال تحت ضوء القمر. إذن فهل يمكن أن يكون هذا نوعاً جديداً من العناكب

طوّر غرائزه بالتطور مع الانسان؟ ليس هذا بالافتراض فهيٍ، ولكن كيف يمكن في هذه الحالة تفسير انجذاب الفراشة إلى الضوء؟ إن الفراشة مختلفة عن العنكبوت، وضوء المصباح لا يمكن اعتباره مفيداً في الحفاظ على النوع، ولكن النقطة الجوهرية كانت هي ذاتها على حد سواء: لقد رقع كل من الظاهرتين بعد أن وجدت أضواء من صنع الإنسان، وكانت الحقيقة القائلة بأن الفراشات لا تطير باتجاه القمر هي البرهان الذي لا سبيل لتفنيده على ذلك. سيكون الأمر مفهوماً لو أن ذلك كان عادة نوعاً واحداً من الفراش فحسب، ولكن بما أنه أمر شائع بالنسبة لعشرة آلاف نوع من الفراشات فليس بوسعه إلا أن يفترض أنه قانون ثابت. تخبّط الأجنحة المجنون هذا الذي سببته أضواء أحدثها الانسان.. هذا الارتباط غير العقلاني بين العناكب والفراشات والضوء. وإذا كان قانون يبدو دونما سبب، مثل هذا القانون، فما الذي يمكن للمرء أن يؤمن به؟

أغمض عينيه. بدت نقاط من الضوء وكأنها تسبح أمامه، وحينما حاول الإمساك به دوّت مسرعة وأفلتت منه، كانت مثل فلال الخنافس المتروكة في الرمل.

أيقظه نشيج المرأة.

ـ علامَ تبكين؟

نهضت المرأة مسرعة، محاولة إخفاء حرجها.

ـ آسفة... كنت على وشك المضيّ لإعداد بعض الشاي لك.

حيره صوتها الذي خنقته العبرات. وجعلها ظهرها، فها هي منحنية لإذكاء النار في الموقد، تبدو عصبية على نحو غريب، وانقضى

بعض الوقت قبل أن يدرك جلية الأمر. كان بطيئاً، كأنما يشعر طريقه عنوة خلال صفحات كتاب متحللة. بدا فجأة بائساً إلى حد أنه استشعر إشفاقاً على نفسه.

ـ قتلت!

ـ نعم.

ـ قتلت حقاً!

ـ ولكن لم يحدث أبداً أن أفلح شخص واحد في الحرب... شخص واحد.

كانت تتحدث بصوت متميز، لكن قوة معينة كانت تغالبه، كأنما كانت تدافع عن إخفاقه. يا لها من رقة جديرة بالرثاء. لسوف يكون من قبيل الظلم البيّن ألا ترد هذه الرقة بمثلها.

ـ طيب، هذا أمر سيئ للغاية. فلو أني أفلحت في الحرب لكنت قد بعثت إليك مذياع، وقد فكرت في هذا كثيراً.

ـ مذياع؟

ـ كنت أفكر في هذا منذ مدة طويلة.

ـ آه، لا... لست مضطراً لذلك...

قالتها المرأة متعثرة، كأنما كانت تنتحل عذراً، وأضافت:

ـ لو أني اجتهدت في عملي الإضافي لتمكنت من شرائه بنفسي، وإذا ابتعته بالقسط فسيكون المبلغ المقدم كافياً...

ـ طيب... هذا صحيح. بمقدورك شراؤه، إذا ابتعته بالقسط.

ـ هل أغسل لك ظهرك حينا يسخن الماء ؟

فجأة تدفق في أعماقه أسى بلون الفجر ، بمقدورهما على حدّ سواء أن يلحق أحدهما جراح الآخر ، لكنهما سيظلآن يلعقان إلى آخر الدهر ، ولن تبرأ الجراح أبداً ، وفي نهاية المطاف سيهتريء لسان كل منهما .

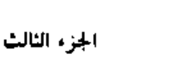
ـ لم أفهم الأمر . لكن الحياة ، فيما أظن ، ليست بالشيء الذي يستطيع المرء أن يفهمه . هناك أنماط شتى من الحياة ، وفي بعض الأحيان يبدو الجانب الآخر من التلّ أزهى خضرة، وما يصعب عليّ ليس معرفة ما يمكن أن يفضي إليه العيش على هذا النحو . ولكن من الواضح أنك قد لا تعرف قط ، مهما كان نمط الحياة الذي تحياه . وفي بعض الأحيان لا أستطيع مغالبة الشعور بأنه سيكون من الأفضل لو أن لديّ المزيد لأشغل نفسي به .

ـ هل أحسك ... ؟

تحدثت كأنما هي تشجعه . كان صوتاً رقيقاً مؤثراً ، شرع في بطء يفك أزرار قميصه وسرواله ، بدا الأمر كما لو أن الرمل قد ملأ جلده كله (راح يحدث نفسه متسائلاً ترى ما الذي تفعله المرأة الأخرى الآن)(؟) بدا ما حدث قبل الأمس وكأنه قد وقع منذ دهور .

شرعت المرأة في تدليك قطعة قماش مبللة بالصابون .





الجزء الثالث



أكتوبر.

خلال النهار، كانت بقايا الصيف، المتمهل في الرحيل، لا تزال توقد النار في الرمال، وما كانت أقدامها لتحتمله لأكثر من خمس دقائق في المرة الواحدة، ولكن عندما تغرب الشمس كانت الجدران اللبنة بالصدوع تدع رطوبة الليل البارد تتسلل إلى الداخل، وكان عليها أن يمضيا قدماً في مهمة تجفيف الرماد المبتلّ في المدفأة، وبسبب تغيّر درجة الحرارة في الصباحات والمساءات، التي تغيب عنها الريح، كان السديم يعلو، كأنه نهر عكر.

حاول ذات يوم نصب فخّ للإمساك بالغربان في الساحة الخاوية الواقعة خلف الدار، وأسمى الفخّ «أمل».

كان الفخ بسيطاً، على نحو استثنائي، واستغل الخواصّ التي تميّز الرمل، فقد حفر حفرة بالغة العمق، ودفن في قاعها دلواً خشبياً، وبثلاث عصي في حجم أعواد الثقاب دعم غطاء مفروداً، أصغر قليلاً من فتحة الدلو، وربط في كل عصا خيطاً رفيعاً، ومرّر الخيوط عن خلال ثقب من وسط الغطاء ووصلها بسلك على الجانب الخارجي، ووصل نهاية السلك بقطعة من السمك المجفّف استخدمها كطعم، وتم إخفاء هذا كله على نحو دقيق بالرمل. ومن الخارج كان الشيء الوحيد الظاهر هو الطعم الموجود في قرار وعاء من الرمل، وبمجرد التقاط

عوا ب للطعم تنزلق الحصى . ويدفن الغراب حياً في الرمل . وقد أجرى تجربتين أو ثلاثاً . فسار كل شيء على نحو ما قدر . واستطاع أن يبدي للعيان الكيان البائس للغراب . وقد ابتلعه الرمل المنهار . دون أن يتاح له حتى أن يرفرف بجناحيه .

عندئذ . سيكتب رسالة . ويثبتها بجناح الغراب . المسألة . بالطبع . هي كلها مسألة حظ . ففي المقام الأول نجد إمكانية سقوط الغراب في يد أحد احتمالاً ضعيفاً للغاية . ولن يقدر له أن يعرف قط إلى أين سينطلق . وعادة ما يكون محيط طيران الغراب محدوداً للغاية . وأسوأ مخاطرة هي أن القرويين سيلاحظون أن أحد غربان السرب تثبت قطعة ورق بيضاء إلى قائمتيه وسيعرفون كل شيء عن خطته . وسيذهب سدى صبره الذي دامت معاناته فيه طويلاً .

أصبح حذراً للغاية . منذ إخفاقه في الهرب . وأقلم نفسه مع الحياة في الحفرة . كما لو كانت نوعاً من السبات الشتوي . مركزاً جهوده على حمل القرويين يقللون من يقظتهم في مراقبته . ويقال إن تكرار الأنماط ذاتها يتيح شكلاً فعالاً من أشكال التلون الوقائي . فلو أنه ذاب في حياة قوامها التكرار البسيط فمن المحتمل تماماً أن يأتي وقت لا يحسون فيه بوجوده .

كان هناك عامل فعال آخر في التكرار . فعلى سبيل المثال كانت المرأة قد كرست نفسها طوال الشهرين الماضيين . يوماً بعد يوم . لنظم حبات الخرز في الخيوط . مركزة على عملها . في ضراوة . إلى حد أن وجهها بدا منتفخاً . ولاحت إبرتها الطويلة وكأنها تؤدي رقصة . فيما هي تلتقط بطرفها المدبب للغاية الخرز المعدني . المتناثر في قاع علبة من

الورق المقوّى، وقدّر أنّ مدّخراتها بلغت حوالي ألفي ين، أي ما يكفي لدفع مقدم شراء مذياع في غضون أسبوعين آخرين.

حظيت الإبرة المتراقصة بأهمية. جعلته يشعر بأنها مركز الدنيا، ولوّنت حركاتها المتكرّرة الحاضر والشعور بالواقع، فقرّر لكي يتجنّب الإحساس بأنها فاقته أن يركّز مثلها على عمل يدوي رتيب بشكل خاص. كنس الرمال عن السقف، تنقية الأرز، غسل الأطباق أصبح مثل هذه الأعمال بمثابة مشاغله اليومية البارزة، وراح الوقت ينقضي عاجلاً، على الأقل حينما ينحمس في العمل، وأدّى ابتكاره لخيمة صغيرة من البلاستيك لتقيهما الرمل خلال نومهما واختراعه تدخين الأسماك بدفنها في الرمل الحارّ وما إلى ذلك من أمور، إلى جعل الوقت ينقضي على نحو طيّب.

منذ عودته، ولكي لا يدخل الضيق على نفسه، حاول حقاً أن يتدبّر أموره دون قراءة أيّ صحيفة، وبعد أسبوع لم يعد يفكر في القراءة، وبعد شهر كان قد أوشك على نسيان أنّ هناك أشياء يطلقون عليها اسم الصحف. كان قد شاهد يوماً نسخة لعمل النحت القائم الموسوم « جحيم الوحدة »، وحدث نفسه بأنها عمل غريب، ففي هذا العمل راح رجل يطفو على نحو متقطع في الهواء، والخوف يملأ عينيه الواسعتين، والمجال المحيط به، والذي كان أبعد ما يكون عن الفراغ، حفل بالظلال شبه الشفافة لشخوص من الموتى حتى أنه لم يعد بوسعه أن يتحرك. وكان الموتى الذين ارتسم على محيّا كل منهم تعبير مختلف يحاولون رفع بعضهم بعضاً بعيداً، وهم يجادلون الرجل دونما توقف. ترى ماذا كان « جحيم الوحدة » هذا؟ ربما كانوا قد أساءوا اختيار

العنوان لهذا العمل، أو هكذا ظنّ وقتها، أما الآن فيمقدوره أن يتفهمه حق الفهم، فالوحدة ظمأ لا يروى للوهم.

هكذا يقضم المرء أظافره، عاجزاً عن استشعار الرضا بوجيب قلبه البسيط... يدخن فاقداً القدرة على الاكتفاء بإيقاع نَفَسه... ويهتز المرء، عاجزاً عن الشعور بالاغتباط في الجنس وحده. التنفس، التبرز، إفراغ الأمعاء، البرنامج اليومي، أيام الأحد التي تجيء مرة كل سبعة أيام، الامتحانات الختامية التي تتواتر مرة كل أربعة أشهر، كل هذه الأمور أبعد ما تكون عن إدخال الهدوء والسكينة على نفسه، بل وينقلب تأثيرها إلى دفعه نحو تكرار جديد لها، سرعان ما ارتفع معدّل تدخينه للسجائر، وداهمته كوابيس رهيبة، كان يحث فيها عن مخبأ من أعين الناس مع امرأة متسخة الأظافر، وحينما لاحظ أخيراً أن علامات التسمم بدأت في الظهور عليه، استيقظ فجأة لبواجه السماء المحكومة بدورة متطرفة في بساطتها، وكثبان الرمل التي تحكمها موجات طولها ثُمن الملليمتر.

ورغم أنه أحس بنوع هادئ من الرضا بعمله، الذي يؤديه يومياً، وبالمعركة المنكررة مع الرمال، إلا أن رد فعله لم يكن مازوكياً تماماً، ولن يحس بالاستغراب إذا ما وجد مثل هذا العلاج حقاً.

ولكن في صبيحة أحد الأيام أحضرت إليه مجلة رسوم كاريكاتيرية، مع المواد التي تقدم إليهم بصفة دورية. ولم تكن المجلة شيئاً ذا بال، في حدّ ذاتها، وكان الغلاف بالياً وملطخاً بآثار الأصابع، التي أمعنت فيه تقليباً، ومع ذلك، ورغم كونها قذرة، إلا أنها كانت بمثابة تجسيد لنوعية المخدر الذي يحتمل أن يبديه

القرويون، وكان ما أثار حيرته أنه تلوّى من فرط الضحك، وراح يلطم الأرض بقبضته، وينتفض، كأنما أصابته تشنّجات عصبية.

كانت الرسوم الكاريكاتورية شديدة البلاهة، ولا تعدو أن تكون رسوماً سريعة، خليقة، ومجردة من المعنى، دفعت إلى المطبعة على عجل، ولو أنه سئل عن السبب في أنها بدت له مسلّية للغاية، على هذا النحو، لما استطاع الإجابة قط. كان أحدها شديد الطرافة، لا لشيء إلا للتعبير المرتسم على وجه حصان كبا، وانكسرت قوائمه، تحت وطأة الرجل القط الذي كان يمتطيه. ترى كيف أمكنه أن يضحك كل هذا الضحك بينما هو في مثل هذا الوضع؟ عار عليه! هناك حد للمدى الذي ينبغي أن يذهب إليه في التألم مع محنته الحالية. لقد عزم على أن يكون هذا التألم وسيلة لا هدفاً، ويبدو ألا غبار على الحديث عن البيات الشتوي، ولكن أتراه تحول إلى خلد، وفقد كل رغبة له في إظهار وجهه لضوء الشمس من جديد طوال ما بقي من عمره؟

عندما فكر في الأمر، أدرك أنه ليست هناك فرصة على الإطلاق لمعرفة متى، وعلى أي نحو، ستتاح له فرصة للهرب. كان من الممكن تصوّر أنه قد يعتاد الانتظار، دونما هدف مضمر بعينه، وعندما ينتهي بياته الشتوي أخيراً، ينطفئ الضوء بصره، فيعجز عن الخروج، والمثل يقول: إن من عايش القوم أربعين يوماً صار منهم. ومثل هذا التحلّل الداخلي يصيب المرء سريعاً على نحو يأخذه بغتة. راح يفكر في هذا جاداً، ولكن في اللحظة التي تذكر فيها التعبير المرتسم على وجه الحصان أخذته من جديد نوبة من الضحك الأبله. وفي ضوء المصباح رفعت المرأة، التي كانت منكبة على عملها الدقيق في الخرز، رأسها

وابتسمت له ابتسامة بريئة. لم يستطع تحمل الخداع الذي يقوم به، فطوح بالمجلة، واندفع خارجاً من الدار.

اندفع سديم حلبي، ودوّم فوق الصخرة. امتدادات من الظلال ترقشها بقايا الليل... امتدادات تتألق كأنما الضوء يرتد عن سلك متوهج... امتدادات تتدفق بكتل من البخار المتشمع. امتلأ تلاحم الظلال بأخيلة غريبة حركت فيه أحلام يقظة لا حدود لها، ما كان ليشعر السأم من التطلع إلى هذا المشهد قط، وتدفقت كل لحظة باكتشافات جديدة، كان كل شيء ماثلاً هناك، الأشكال الفعلية التي تنقلها أشكال خيالية لم يقدر له قط أن يراها.

التفت إلى الكتلة المتارجة، وراح يبتهل إليها، دون أن يملك لذلك دفعاً.

ـ أطلب من سعادتكم إبلاغي بفحوى الاتهام، أطلب إطلاعي على سبب إدانتي، وكما ترون فإن المتهم الماثل أمامكم ينتظر أن يطيب لكم إبلاغه.

عندئذ رد عليه صوت من السديم، تذكر أنه سمعه من قبل، وتردد فجأة مكتوماً، كأنه يتناهى عبر الهاتف.

ـ واحد من كل مئة، في نهاية المطاف...

ـ ماذا قلت؟

ـ أقول لك إنه في اليابان يحدث الانفصام بمعدل شخص واحد من كل مئة شخص.

ـ عَمَّ يحق...

ـ يبدو أن هوس السرقة يقع كذلك بمعدل شخص في كل مئة شخص.

ـ عم يحق السماء تتحدث؟

ـ إذا كان هناك واحد في المئة من الجنسية المثلية بين الرجال، فمن الطبيعي إذن أن يكون هناك حوالي واحد في المئة من السحاق بين النساء، ويشكل هواة إشعال الحرائق واحداً في المئة، ويمثل الذين يميلون إلى تعاطي المشروبات المسكرة بضراوة واحداً في المئة والمتخلفون عقلياً واحداً في المئة، والمجرمون الجنسيون واحداً في المئة، والمصابون بجنون العظمة واحداً في المئة، ومعتادو الاحتيال واحداً في المئة، والباردات جنسياً واحدة في المئة، والإرهابيون واحداً في المئة، والمصابون بجنون الأضطهاد واحداً في المئة...

ـ أتمنى أن تكف عن هذا الهراء.

ـ طيب، أصغ إليّ في هدوء! المصابون برهاب المرتفعات والمدمنون على تعاطي الهيروين والمصابون بالهستيريا والمصابون بجنون الانتحار والمصابون بالسفلس والبلهاء ـ أفترض أن كلاً من هؤلاء يمثل واحداً في المئة فإن الاجمالي سيكون عشرين في المائة، وإذا كان بمقدورك أن تعدد ثمانين نوعاً من الشذوذ بهذا المعدل ـ وبالطبع فإنك تستطيع ذلك ـ لكان هناك دليل إحصائي على أن الإنسانية شاذة بنسبة مئة في المئة.

ـ ما هذا الهراء! ما كان يمكن للشذوذ أن يوجد إن لم يكن هناك معيار قوامه العادية!

ـ على رسلك! على رسلك! فكل ما كنت أحاول القيام به هو الدفاع عنك...

- الدفاع حتى... ؟

- أتصور أنه حتى أنت لن تصر على ذلك.

- كلا بالطبع!

- إذن فأتمنى عليك أن تتصرف على نحو يوحي بمزيد من الطاعة. أما كان الطابع الاستثنائي لحالتك فليس هناك على الاطلاق ما يدعو إلى القلق. وكما أن الناس ليسوا ملتزمين بإنقاذ طائر غريب مثلك، فإنهم بالمثل ليس لهم الحق في الحكم عليك كذلك.

- طائر غريب؟ ولِمَ تجعل مقاومة الاعتقال غير المشروع مني طائراً غريباً؟

- لاتتظاهر بأنك بريء، تمام البراءة. ففي منطقة نموذجية في اليابان ذات رطوبة وحرارة عاليتين بتسبب الماء في سبعة وثمانين بالمئة من الخسائر، أما الخسائر الناجمة عن الرمال التي تذروها الرياح، كما هو الوضع في حالتك، فلن تصل إلى واحد على الألف من واحد في المئة من إجمالي الخسائر. ياله من أمر مثير للسخرية! سيكون الحال كأنما كأنما تصدر قوانين خاصة بالخسائر الناجمة عن الماء في منطقة صحراوية.

- لست أتحدث عن القوانين الخاصة، وإنما أتحدث عن المعاناة التي خضت غمارها. فالاعتقال غير المشروع يظل هو الاعتقال غير المشروع، سواء أكان في صحراء أو في مستنقع.

- آه، اعتقال غير مشروع... ولكن ليست هناك نهاية لطمع الإنسان. ألا تدرك الأمر؟ إنك بمثابة مقتني ثمين بالنسبة لأبناء القرية...

ـ آه، بالأوغاد! حتى أنا لديّ من أسباب الوجود ما يفوق ذلك.

ـ هل أنت على تمام الثقة من أنه لا بأس بتسقط عيوب رمالك الحبيبة؟

ـ عيوب؟

ـ يترامى إلى سمعي أن هناك أناساً في هذه الدنيا قاموا، على امتداد عقد من الزمان، بحساب قيمة «الباي»[1]، وصولاً إلى عدة مئات من الكسور العشرية. لا بأس، أحسب أن لديهم هذا القدر من الأسباب التي تدعوهم إلى مواصلة الوجود. ولكنك تحملت عناء المجيء إلى مثل هذا المكان لأنك على وجه الدقة كنت ترفض مثل هذا السبب لمواصلة الوجود.

ـ لا، ليس هذا صحيحاً، فحتى الرمال لها وجهها الآخر المختلف تمام الاختلاف فبمقدورك استخدامها لعمل قوالب الصب، وهي مادة لا غنى عنها كذلك لضمان تماسك الاسمنت، ويجري بحث حول تحسين أساليب الزراعة بالاستفادة من الحقيقة القائلة بأن الرمال تقضي بسهولة على الأعشاب ونمو الفطريات، بل لقد مضوا بالتجارب إلى تغيير الرمال إلى تربة عن طريق استخدام أنزيمات تعمل على تحلل التربة. ليس بمقدورك الحديث عن الرمال بمثل هذا القدر من التعميم.

ـ على رمالك! على رمالك! يالها من موعظة! لو أنك غيرت وجهة نظرك إلى كل هذا الحد فلست أدري ما عساي أقول. أليس كذلك؟

(١) «الباي» أصلاً هو الحرف السادس عشر من الأبجدية اليونانية، ولكن المراد في المتن الرمز الذي يمثل النسبة بين طول محيط الدائرة وقطرها، أي ٣,١٤١٥٩٢٦٥.

- لست أريد أن ألقى حتفي كالشحاذ!

- طيب، إن الفرصة متساوية في الحالين. أليس كذلك؟ والسمكة التي لا تصطادها تبدو لك دائماً أكبر حجماً.

- اللعنة! من أنت؟

لكن السديم اندفع متلاطماً، فمحا الصوت الآخر، وبدلاً منه اندفعت منه حزمة ضوئية، منزلقة إلى أسفل، في استقامة لا تعرف الانحناء، فدارت به الدنيا، وكبح جماح شعور بالإعياء، اندفع في أعماقه كأنه الدخان.

نعق غراب، فتذكر الفخ فجأة، فقرر الذهاب إلى ما وراء الدار وإلقاء نظرة على «أمل». لم يكن هناك احتمال للنجاح، لكنه سيكون أفضل من مجلة الرسوم الكاريكاتيرية.

كان الطعم ممدداً على نحو ما كان عليه حينما أعد الفخ، ولطمت أنفه الرائحة الكريهة المنبعثة من السمكة المتعفنة. فقد مضى اسبوعان منذ أعد «أمل» ولم يحدث شيء قط. ترى ما عساه يكون السبب في ذلك. إنه يثق بهيكل الفخ، ولو أن الغراب التقط الطعم لأمسك به الفخ. لكنه كان بلا جدوى حيث أن الغربان لم تبد اكتراثاً به في المقام الأول.

ولكن ما الذي يمكن أن يكون قد جعل «أمل» منفراً لهم على هذا النحو؟ أياً كانت الزاوية التي ينظر منها فإنه لم يستطع العثور على ما يبدو مريباً في الفخ. لقد كانت الغربان حذرة على نحو غير مألوف لأنها كانت تقتنص الفضلات البشرية حيث يقيم الناس، فالمسألة، إذن، قوامها من الذي سيبدي قدراً أكبر من الصبر... إلى أن تمتاد

الغريان تماماً على السمكة العفنة في المقبرة. ولم يكن الصبر نفسه بالضرورة هزيمة، وإنما بالأحرى تبدأ الهزيمة حينما ينظر إلى الصبر على أنه هزيمة. لقد أسمى الفخ باسم، أمل، أصلاً وقد وضع هذا الاعتبار في ذهنه، ورأس الرجاء الصالح ليس جبل طارق وإنما هو كيشاون.

عاد إلى الدار على مهل، جاراً قدميه، فقد حل موعد الرقاد من جديد.

- ٢٩ -

عندما رأته المرأة، أطفأت المصباح، كأنما تذكرته لتوها، وغيرت موضعها الى مكان أكثر إضاءة قرب الباب. راح يتساءل: أتراها لا تزال تعتزم مواصلة العمل؟ فجأة استشعر نزوة لا تقاوم تسيطر عليه، ففي وقفته أمامها أطاح بعلبة الخرز الموضوعة على ركبتيها، وطارت حبيبات سوداء تشبه بذور الفجيل، متناثرة على الأرضية المتربة، وغاصت في الحال في الرمل. امّحت كل التعبيرات فجأة من محياها، وند تأوّه واهن من شفتيها المتهدلتين... أعقبه بعض اللعاب المصفر.

- حسناً، سيان أن تسري على هذا النحو أو تستسلمي، الأمر كله عبث، فالسم سرعان ما يسري في دمك.

ظلت على صمتها، وراحت الخرزات التي كانت نظمتها تتأرجح جيئة وذهاباً بين أصابعها، متألقة كأنها دبس السكر. انبعث رعشة خفيفة، لتجتاح بدنه كله.

ـ نعم، حقاً، سرعان ما يكون الأوان قد فات، لسوف نستطلع يوماً ونجد أن أبناء القرية قد اختفوا حتى آخر رجل، وأنه لم يبق سوانا... إنني أعرف هذا... يقيناً. مؤكد أن هذا سيحدث عما قريب، وسيكون الأوان قد فات في الوقت الذي ندرك فيه أنهم تخلوا عنا. وما فعلناه لهم حتى الآن لن يكون إلا مثار ضحك لهم.

تجمدت عينا المرأة، على الخرز، الذي أمسكته بيدها، هزت رأسها نافية، في ضعف:

ـ ليس بمقدورهم القيام بذلك. ليس الأمر راجعاً إلى أن بمقدور أي شخص أن يكسب قوته إذا خرج من هنا.

ـ الأمر سيان إذن. أليس كذلك؟ وكل من يبقى هنا لا يحيا جانباً كبيراً من الحياة كذلك.

ـ لكن هناك الرمال...

ـ الرمال؟

ثالها الرجل، وقد صرّ بأسنانه، وراح يحرك رأسه حركة دائرية، أضاف:

ـ ما جدوى الرمال؟ فبخلاف الوقت العصيب الذي تمنحه إياه، فإنها لا تجلب قلساً واحداً.

ـ نعم، إنها تجلب نقوداً، فهم يبيعونها.

ـ تبيعونها؟ لمن تبيعون مثل هذه المادة؟

ـ طيب، لشركات البناء، وأماكن على تلك الشاكلة، فهم يخلطونها بالأسمنت..

- لا تهزلي! سوف تكون فوضى بديعة إذا ما خلطتم هذه الرمال بالإسمنت - فهي تحتوي على أملاح أكثر مما ينبغي، وهذا في المقام الأول مخالف للقانون أو على الأقل فيه انتهاك للضوابط المتبعة في البناء...

- إنهم يبيعونها سراً بالطبع، ويخفضون تكاليف نقلها إلى النصف أيضاً...

- هذا أمر عبثي تماماً! فحتى مع تم تخفيض السعر للنصف، فلن يحصل هذا من الأمر صوابياً، حينما تبدأ المباني والسدود في التداعي، متفتتة إلى أجزاء. أليس كذلك؟

قاطعته المرأة، على حين غرة، بعينين مفعمتين بالاتهام، وحدقت ببرود، ناظرة إلى صدره، وقد اعترى الاختلاف موقفها على نحو كامل.

- ولم يتعين علينا الاكتراث بما يصيب الآخرين؟

أصابه الذهول، فقد كان التغير كاملاً، كما لو أن قناعاً قد سقط عن وجهها، وبدا أن وجه القرية قد انكشف له من خلالها، فحتى ذلك الوقت كان يفترض أن القرية تقف في الصف الخاص بالجلاد، أو ربما كان القرويون نباتات آكلة للحوم البشر لا عقل لها، أو شقائق نعمان بحرية نهمة، ويفترض أنه هو الضحية الجديرة بالرثاء التي تصادف أنها وقعت بين براثنهم. ولكن من منظور أبناء القرية فإنهم هم أنفسهم الذين تخلى الآخرون عنهم، ومن الطبيعي أنه لم يكن هناك ما يحدوهم إلى الشعور بأي التزام تجاه العالم الخارجي. وهكذا فإنه إذا كان هو الذي يجرحهم فإنه يتعين بناء على هذا أن يكشروا عن أنيابهم

في مواجهته. ولم يكن قد خطر له قط أن يفكر في علاقته بالقرية في ذلك الضوء، وكان من الطبيعي أن يصيبهم التخبط والضيق، ولكن حتى لو أن الأمر كان كذلك، وقد سلم بهذا، فإن الحال سيكون كما لو كان قد أُسقط مبرر موقفه.

ـ طيب، ربما لم يكن من المتعين عليكم الاكتراث بما يصيب الآخرين.

فلما حاولاً في يأس دعم موقفه عمداً، أضاف:

ـ لكن أحدهم، في نهاية المطاف، يحصل على أموال طائلة من وراء هذا العمل المريب. أليس كذلك؟ ولست مضطرة لمائدة أناس على تلك الشاكلة...

ـ آه، لا، فالنقابة هي التي تقوم بشراء وبيع الرمال.

ـ فهمت، ولكن حتى لو أن الأمر كان كذلك، وفي ضوء الاستمارات أو الإجمالي المطروح في الموضوع...

ـ كل من كان ثرياً بحيث يمتلك قوارب أو أي شيء غادر هذا المكان منذ زمان بعيد، وقد عومل كل منا معاملة طيبة.. حقاً إنهم لم يجانبوا الإنصاف معنا. وإذا كنت تعتقد أنني أكذب فدعهم يقدموا لك سجلاتهم، وستدرك الأمر توّاً...

وقف متجمداً في موضعه، وقد حلت به حيرة، وأخذه اضطراب غامض. ولسبب ما أحسّ بانحطاط معنوياته، كان يفترض أن خارطته العسكرية، التي يفترض أنه حدّد عليها القوى المعادية والمحالفة بوضوح، قد ضربها الغموض من خلال عدد من المجاهيل ذات الألوان الوسيطة، مثل نقاط حبر غير محددة. وعندما فكر في الأمر،

أدرك أنه ما من حاجة تدعوه للشعور بمثل هذا الضيق، إزاء شيء لا قيمة له، مثل دفتر رسوم كاريكاتورية، ولم يكن هنالك أحد في أي مكان حوله يكترث بما إذا كان قد ضحك في بلاهة من عدمه. تقبّض حلقه، وشرع في المضمضة، على نحو مضحك.

ـ طيب، نعم... نعم، بالطبع. الأمر صحيح بالنسبة لشأن الآخرين...

ثم ندّت عن شفتيه كلمات لم يكن يتوقع أن تفرض نفسها عليه:

ـ دعينا نبتع يوماً ما أصيصاً به نبات. هل لنا في ذلك؟

دهش هو نفسه، لكن التعبير المرتسم على وجه المرأة بدا أكثر حيرة، ولهذا لم يكن بوسعه التراجع، أضاف:

ـ أمر كئيب ألا يجد المرء شيئاً يريح عينيه عليه...

ردت بصوت متقلقل:

ـ أنشتري شجيرة صنوبر؟

ـ شجيرة صنوبر؟ إنني لا أحب أشجار الصنوبر، سيكون أي شيء أفضل من ذلك، حتى الأعشاب. هناك قليل من النخيل النامي باتجاه القمة. ماذا تسمونه؟

ـ إنه نوع من الحنطة، أو عشب الكثبان، فيما أظن، ولكن الشجيرة ستكون أفضل. أليس كذلك؟

ـ إذا كنا سنحصل على شجيرة، فلتكن شجيرة قيقب أو بولقينية، بفروع رفيعة وأوراق طويلة... شيء له أوراق تتأرجح في الريح.

أوراق تتهاوج... مجموعات من الأوراق تنثني وتتهارج، محاولة عبثاً التملص من أغصانها...

تردّد تنفّسه، الذي لا علاقة له بشعوره، سطحياً، وعلى نحو ما أحس بأنه على وشك أن ينهار باكياً، فانحنى مسرعاً حيث تناثر الخرز على الأرضية المتربة، وشرع في التلمس بحركات باحثة يلفها الارتباك في سطح الرمل.

سارعت المرأة بالوقوف.

- دعها! سأقوم بهذا بنفسي، فالأمر سيكون سهلاً باستخدام غربال.

- ٣٠ -

ذات يوم، فيما كان يتبوّل قائماً، وهو يحدّق في القمر المتّشح بلون الرماد، الذي لاح عند حافة الحفرة كأنما يرد لو ارتمى بين ذراعيه، أحسّ فجأة كأن قبضة ثلجية رهيبة تطبق عليه، فراح يتساءل: هل أصابته نوبة برد؟ لا، فهذا البرد من نوع آخر، لقد عرف مرات عديدة ذلك النوع من البرد الذي يسبق الحمى، لكن هذا شيء آخر، لم يحسّ بقشعريرة، ولم يخترمه ألم حاد، كان نخاع عظامه هو الذي يرتجف، وليس سطح جلده، وكان الأمر يحاكي تموّجات الماء، التي تنتشر وئيدة في دوائر متّسعة بعيداً عن المركز، وتردّد صدى وجع

لقبل ومستمرّ من عظمة إلى أخرى، وبدا الأمر كما لو أن علبة صفيح صدئة، تتقعقع في الريح، قد انغرست في بدنه.

خطرت بباله سلاسل مترابطة من الأفكار، فيما هو يقف هنالك، مرتجفاً، ومحدقاً في القمر. كان سطح القمر يشبه جرحاً قديماً محتباً بكسوة الدورور... صابوناً رخيصاً جافاً... صندوق طعام صدئاً من الألومنيوم، ثم حينما تركّز في بؤرة بصره اتخذ شكلاً غير متوقع: جمجمة شهباء، الرمز المطلق للسمّ... أقراص بيضاء بلونها مسحوق في قاع زجاجة حشراته... تماثل مدهش بين ألوان سطح القمر والأقراص المزهرة لسيانيد البوتاسيوم. راح يتساءل عما إذا كانت الزجاجة لا تزال مدفونة تحت الإفريز الذي يدور حول الأرضية المتربة، قرب المدخل، حيث تركها.

شرع قلبه يتقافز دونما انتظام، مثل كرة يبتج بونغ محطّمة. ترى لماذا يتعيّن عليه أن يفكّر في مثل هذه الأشياء المشؤومة؟... ارتباط حزين للقابة بين الأفكار. وحتى إن لم يكن قد فكّر فيها فإن رياح أكتوبر كانت تحمل صدى الندم القاهر وزخيمها يتداعى عبر عرانس الذرة الخاوية المجرّدة من الحبوب. فما كان يتطلّع إلى حافة الحفرة، التي ارتسمت واهنة الملامح في ضوء القمر، راح يحدّث نفسه متفكّهاً بأن إحساسه الفاجع هذا ربما كان ضرورة، ربما كان غيرة من كل الأشياء التي تتخذ شكلاً خارج الحفرة: الشوارع، عربات الترولي، إشارة المرور عند تقاطعات الطرق، الإعلانات المعلّقة على أعمدة أسلاك الهاتف، جثة قطة، متجر العقاقير الذي تباع فيه السجائر. ومثلما كانت الريح تقضم دواخل الجدران الخشبية ودعائمها العلوية راحت الغيرة تقتضم ثقوباً وحفراً بداخله، لتجعله مثل قدر خاوية

وضعت على الموقد ، لكن درجة حرارة القدر الخاوية ترتفع بسرعة ، وقد يحدث قريباً أنه ، وقد غدا عاجزاً عن احتمال الحرارة أكثر من ذلك ، سيستسلم . أولاً هناك مشكلة النجاة من الخطر في هذه اللحظة ثم عقب ذلك يمكن الحديث عن الأمل .

أراد أن يستنشق هواء أقل ثقلاً ، هواء طلقاً ، على الأقل ، لم يمتزج بأنفاسه . كم يكون رائعاً لو استطاع مرة كل يوم ، ولو لنصف ساعة ، أن يصعد إلى الصخرة ، وأن يتطلع إلى البحر ، ينبغي أن يسمح له بهذا القدر ، فتدقيقهم عليه أشد صرامة من أن يسمح له بالهرب ، ثم إنه سيبدو أيضاً مطلباً معقولاً للغاية ، في ضوء العمل الدؤوب ، الذي قام لهم به على امتداد ما يزيد على ثلاثة أشهر . إن الأسير بحد الإقامة ذاته له الحق في فترة يترَيّض فيها .

ـ ليس بمقدوري التحمّل ! ولو أنني واصلت السير على هذا النحو ، داساً أنفي في الرمل في كل يوم من أيام العام لتحولت الى نفاية بشرية . أتساءل عما إذا كان بمقدوري إقناعهم بتركي أتريّض بين الفينة والأخرى .

واصلت المرأة إطباق فمها ، كأنما أصابها الضيق ، وبدت كما لو كانت شخصاً حار في أمره أمام طفل شكس صاحت منه حلواه .

ـ لن أدعهم يقولون إن ذلك ليس بمقدوري .

قالها الرجل وقد اعتراه الغضب فجأة ، بل إنه أتى على ذكر سلّم الحبال ، الذي كان من الصعب عليه الحديث عنه بسبب الذكريات المقيتة .

ـ يومها ، رأيت بعيني فيما كنت ألوذ بالهرب ، بعض الدور في هذا الصف لها حبال مدلاة إليها .

ـ نعم... ولكن...

قالتها على استحياء، كأنما في معرض الاعتذار، وأضافت:

ـ معظم هؤلاء الناس كانوا يقطنون هناك منذ أجيال.

ـ طيب، أتعنين ألاّ أمل لنا يرجى؟

أحنت رأسها في استسلام، مثل كلب مكتئب. حتى لو أنه تناول سيانيد البوتاسيوم أمام عينيها لتركته يمضي فيما يقوم به دون أن تنبس ببنت شفة.

ـ لا بأس، سأحاول التفاوض مباشرة معهم.

غير أنه، في قرارة نفسه، لم يتوقع أن تتوج مثل هذه المفاوضات بالنجاح، فقد اعتاد تماماً على أن يخيب أمله، وهكذا لما تلقى العجوز رداً في الحال مع المجموعة الثانية من رامي السلال أخذته الدهشة، وانتابته الحيرة.

لكن دهشته لم تكن ذات بال إذا ما قورنت بمضامين الرد.

قال العجوز، ببطء، وعلى نحو متعثر، متحدثاً على نحو يوحي بأنه يرتب أوراقه العتيقة في ذهنه:

ـ طيب، دعنا نر... الأمر، أه... ليس... أه... مستحيل التدبير بصورة مطلقة.. طيب، هذا مجرد مثال، ولكن لو أنكما معاً أقبلتما إلى الأمام... وكلنا نرقبكما... ولو أنكما مضيتما فيها... وتركتمانا نتفرج عليكما.. طيب، ما نريده معقول بما فيه الكفاية هكذا قررنا جميعاً... أوف... ذلك لا بأس منه...

ـ ماذا تعني بقولك: تركتمانا نتفرج عليكما؟

ـ طيب... أوف... أنتما الاثنان... تفعلانها سوياً... هذا ما نقصده.

غرقت مجموعة راقصي السلال حوله، فجأة في ضحك مجنون، وقف الرجل فاقداً الإحساس، كأنما أحدهم يخنقه، ولكنه يبدأ بفهم على مهل ما قصدوه، على وجه الدقة. وما إن أدرك الأمر، حتى لاح له اقتراحهم أمراً لا يثير الدهشة، على نحو خاص.

مرّ شعاع من ضوء مصباح نقال مسرعاً إلى جوار قدميه، كأنه طائر ذهبي، وكأنما كان إشارة، امتزجت إثرها ستة، أو ثمانية خيوط من النور في دائرة ضوئية، وطرحت تزحف في أرجاء قاع الحفرة. فوقع في قبضة جنون الرجال الواقفين عند حافة الحفرة، قبل أن يستطيع المقاومة، إذ غلبه حماسهم الخارق المندفع.

التفت ناحية المرأة ببطء، فقد كانت تحمل جاروفها في الرمال هناك منذ لحظة، وها هي ذي الآن قد اختفت. أتراها لاذت بالهرب في الدار؟ تطلّع داخل الدار، وناداها.

ـ ما العمل؟

تناهى إليه صوت المرأة المكتوم من وراء الجدار مباشرة:

ـ دعهم يمضون في سبيلهم!

ـ لكني أريد الخروج، أريده حقاً...

ـ ولكن كيف يمكنك أن..!

ـ لا ينبغي أن تأخذي الأمر على محل الجد هكذا!

راحت المرأة تلهث فجأة.

ـ أجننت؟ لا بد أنك جننت، وخذلك عقلك. ليس بمقدوري إتيان أمر كهذا، فأنا لست مجنونة جنسياً.

مضى يتساءل: هل الأمر كذلك حقاً. أتراه قد أدركه الجنون؟ أجفل من تشدد المرأة، ولكن في أعماقه انتشر نوع من الهواء المرتكس. لقد تمّ سحقه إلى هذا الحد... فما جدوى المظاهر الآن؟ ولو أن في الأمر شيئاً إذاً من منظور ذلك الذي تجري مراقبته، فإن أولئك الذين يرقبونه يقفرفون الشيء عينه، وما من حاجة تدعو للتفرقة بين الرقيب والمراقب. وربما لا يزال هناك فارق ما بينهما، لكن هذا الحفل الصغير سيكون كافياً لجعل هذا الفارق يتبدد، وما عليك إلا أن تفكر فحسب في المكافأة التي سيحصل عليها... أرغمـ يسير عليها، كيفما حلا له ذلك، كان يريد التقاط نفس عميق، ووجهه فوق سطح هذا الماء الراكد!

حدد موضع المرأة بغريزته، وألقى جسمه بكامله عليها فجأة. فجّر صراخها وصوّت كل منها، وقد تلاحما، وسقطا أمام الحائط الرملي، إثارة شبه حيوانية وصماراً عند قمة الصخرة صفير، تصفيق... بذاءة، صرخات لا تصحبها كلمات... كان عدد المتفرجين قد تزايد، وشمل الآن بعض الشابات، إلى جوار الرجال، وتضاعف عدد المصابيح النقالة، التي غمر نورها مدخل الدار، إلى ثلاثة أمثال العدد الأصلي.

كان النجاح قد حالفه، ربما لأنه أخذها على حين غرة، وبشكل ما استطاع جرّها إلى الخارج، آخذاً بخناقها. كانت وزناً مصمتاً، كأنها حقيبة. وكانت الأضواء التي أطبقت عليها في شبه دائرة حول ثلاثة

جوانب من الحفرة مثل نيران احتفال ليلي ما . وعلى الرغم من أن الجو لم يكن حاراً إلى هذا الحد ، فقد تدفّق العرق من تحت إبطيه ، كأنه طبقة من الجلد المتقشّر ، وتبلل شعره ، كأنما صُبَّ عليه الماء صبّاً ، وترددت صيحات النظارة ، كأنها ترجيعات مضغوطة للصدى ، مالئة السماء فوق رأسه بأجنحة سوداء هائلة ، وأحس كأنما الأجنحة أجنحته هو . وكان بمقدوره أن يحسّ بالقرويين ، الذين تقطّعت أنفاسهم وهم يطلّون من قمة الصخرة ، على نحو بالغ الوضوح حتى لكأنهم ذاته ، كانوا بضعة منه ، وكان لعابهم الدبق السائل هو رغبته . وفي ذهنه كان هو ممثّل الجلاد أكثر منه الضحية .

على غير توقع ، أثار حزام سروالها المتاعب . كان الظلام سائداً ، وبدت أصابعه مرتبكة على نحو يماثل ضعف ارتباكها المعتاد ، وعندما مزّقه تمزيقاً في نهاية المطاف ، أمسك بردفيها بكلتا يديه وحرك ردفيه تحتها ، لكنها في تلك اللحظة انثنت ونزعت نفسها بعيداً . خاض في الرمل مهتاجاً ، وهو يحاول الإمساك بها ، ولكنها دفعته عنها مرة أخرى بمقاومة صلبة كالحديد . قبض عليها بعنف ، وهو يقول مبتهلاً :

ـ أرجوك ! أرجوك ! ليس بمقدوري القيام بالأمر على أية حال . . . ما عليك إلا التظاهر فحسب . . .

غير أنه لم تكن هناك حاجة إلى الإمساك بها بعد ذلك ، إذ كانت قد فقدت بالفعل كل رغبة لها في الهرب . سمع صوت تمزّق ثياب ، وفي اللحظة عينها تلقّى لطمة هائلة في المعدة من طرف كتفها ، حطت ثقل بدنها كلّه وحنقها ، فأمسك بركبتيه ، وانحنى . ولطمته المرأة مراراً وتكراراً بقبضتيها ، وهي منحنية تجاهه . وفي البداية بدت

حركاتها بطيئة، ولكن كل ضربة كانت تحمل المزيد من الثقل، وهي تهوي بها كما لو كانت تسحق ملحاً، فاندفع الدم من أنفه، والتصق الرجل بالدم، فبدا وجهه ككتلة من الطين.

انطوت الاستثارة فوق قمة الصخرة، كأنها مظلة ذات أسلاك مكسورة، ورغم أنهم حاولوا توحيد أصواتهم المعبرة عن الضحك والضحك والتشجيع، إلا أنهم غادروا موضعهم، وقد غمرهم الغيظ، ولم تفلح الصيحات البذيئة السكرى والصرخات المكتومة في إثارة الحماس. ألقى أحدهم بشيء ما، لكن أحدهم وبخه في الحال. وكانت النهاية مفاجئة كالبداية، فقد تتابعت ـ في البعيد ـ الصيحات التي تهيب بالرجال العودة إلى العمل، واختفى صفّ الأصوات، كأنما سُحب سحباً. وكل ما بقي هو ريح الشمال المعتمة، التي اكتسحت بعيداً آخر آثار الاستثارة.

لكن الرجل، متكسراً ومغطى بالرمال، راح يحدث نفسه في غموض بأن كل شيء، في نهاية المطاف، سار على نحو ما كان مقدراً له أن يكون. تمددت الفكرة في أحد أركان وعيه، مثل رداء داخلي قذر، حيث ما من شيء يتميز بالوضوح، إلا وجيب القلب وعلى نحو مؤلم. امتد ذراعا المرأة، المتوهجان كالنار، تحت إبطيه، وانغرست رائحة بدنها كالشوكة في أنفه، تخلى عن نفسه ليديها، كأنما هو حجر لين مسطح في قاع نهر. بدا أن ما بقي منه قد تحول إلى سائل، وذاب في جسدها.

انقضت أسابيع حبلى بالرمل والليل.

امتدّ «أمل»، كذي قبل، مهملاً من جانب الغربان، ولم يصبح طعم السمكة المجفّفة حتى بمجرد سمكة مجفّفة، فرغم أن الغربان ازدرتها، إلا أن البكتريا كان لها موقف آخر. وقد وجد ذات صباح، حينما تحسّس طرف العصا، أنه لم يعد هناك إلا الجلد وحده، أما اللحم فقد تحول إلى كتلة لباب سوداء توشك أن تكون سائلة. ولما كان يغيّر الطعم قرر أن يتفقّد عمل الأداة، فأبعد الرمال، وفتح الغطاء، فأصابه الذهول، إذ كان الماء قد تجمع في قاع الدلو. لم يكن هناك إلا حوالي أربع بوصات منه، لكنه كان أكثر صفاء بكثير - بل كان ماء نميراً، على وجه التقريب - من الماء ذي الغشاء المعدني الذي يسلم إليهما كل يوم. راح يتساءل: هل أمطرت الدنيا مؤخراً؟ لا، ليس منذ نصف شهر على الأقل. ولو أن ذلك كان صحيحاً فهل يمكن أن يكون الماء باقياً منذ المرة التي أمطرت فيها السماء قبل أسبوعين؟ بودّه أن يعتقد ذلك، ولكن ما حيّره هو أنه يعرف أن الدلو يسرّب الماء، وعندما رفعه شرع الماء في السقوط من القاع تماماً كما توقّع. لا يمكن أن يكون هناك نبع عند هذا العمق، وقد اضطر للاعتراف بأن الماء المنساب كان يجري استبداله على الدوام من مكان ما، ولكن من أين يأتي الإحلال في قلب هذه الرمال القاحلة؟

لم يستطع السيطرة على انفعاله الآخذ تدريجياً في الاحتدام. كانت هناك إجابة واحدة يمكنه التفكير فيها، وهي أن ذلك كان الفعل الشعري للرمال، فلأن سطح الرمال يسخن بحرارة محدودة عالية نجد أنها

جافة على الدوام ، ولكن حينما تحفر قليلاً فإن الجزء السفليّ يكون رطباً دائماً . ولا بد أن تبخر السطح يعمل كنوع من المضخة تجتذب الماء الجوفيّ . وعندما فكر في الأمر ، اتضح كل شيء بسهولة ، بما في ذلك كمية الـدمع الهائلة التي تنبعث من الكثبان كل صباح ومساء ، والرطوبة غير المألوفة التي تتشبث بالأعمدة والجدران ، فتحلل الخشب . وباختصار فإن جفاف الرمال لم يكن راجعاً إلى قلة الماء ، وإنما فيما يبدو إلى الحقيقة القائلة بأن الامتصاص الناتج عن الجاذبية الشعرية لا يعادل قط سرعة التبخر . وبتعبير آخر فإن الماء يجري إحلاله باستمرار ، ولكن هذا الماء يدور بسرعة غير منظورة في التربة العادية ، وقد قطع « أمل » الدوران في موضع ما ، ربما كان الموضع العشوائي للدلو والانقطاع عند الغطاء كانا كافيين لمنع تبخر الماء الذي تم امتصاصه في الدلو . غير أنه ليس بمقدوره بعد أن يخبر على وجه الدقة الموضع وعلاقته بالعناصر الأخرى ، ولكن من المؤكد أنه بالدراسة سيتمكن من تكرار التجربة ، وفضلاً عن ذلك فإنه لا ينبغي أن يكون من المستحيل بناء جهاز أكثر كفاءة لتخزين الماء .

لو أنه نجح في هذه التجربة ، فلن يكون مضطراً للاستسلام للقرويين إذا ما قطعوا الماء عنه . ولكن الأهم من ذلك أنه اكتشف أن الرمال مضخة هائلة ، وبدا الأمر كما لو أنه يجلس فوق مضخة ماصة ، عليه أن يجلس للحظة ، ويلتقط أنفاسه ليهدئ من خفقان قلبه . لم تكن هناك حاجة بالطبع لإبلاغ أحد بهذا ، ولسوف يكون ورقته الرابحة في حالة الطوارئ .

لكنه لم يستطع قمع الضحك ، الذي تفجر في أعماقه ، وحتى لو كان بمقدوره التزام الصمت فيما يتعلق بـ « أمل » فقد كان من

المتعذّر أن يخفي ابتهاجه في قرارة نفسه. صدرت عنه صيحة، فجأة، ولف ذراعيه حول ردفي المرأة من الخلف، فيا كانت تعدّ الفراش، وعندما راحت منه، سقط على ظهره، ورفع رأسه في الهواء ساقيه وهو غارق في الضحك طوال الوقت. بدا كما لو أن معدته تدغدغها بالوناً ورقية مليئة بغاز خاص خفيف، وأحسّ أن اليد التي وضعها على وجهه كانت تحلّق حرة في الهواء.

ضحكت المرأة مترددة، لكن ذلك ربما لم يكن إلا من قبيل المجاملة. كان يفكر في الشبكة الشاسعة من عروق الماء الزاحفة صعداً في الرمال، ولكن المرأة على العكس من ذلك كانت تفكر بالتأكيد في أن ما يقوم به ليس إلا مداعبات جنسية تمهيدية. كان ذلك أمراً لا بأس به. فالشخص الذي تحطمت به سفينة وإنما لنزوه من الغرق هو وحده الذي يمكنه فهم نفسية شخص ينفجر ضاحكاً لا لشيء، إلا لأن بمقدوره التنفس.

لم تتغيّر الحقيقة القائلة بأنه لا يزال في قاع الحفرة كعهده أبداً، لكنه أحسّ كما لو أنه تسلّق قمة برج عال، ربما انقلبت الدنيا رأساً على عقب، وتبادلت قممها ومهاويها الأماكن، وعلى أية حال فقد اكتشف ماء في هذا الرمل، وطالما أن لديه هذه الأداة فلن يتمكن القرويون من التدخّل في حياته بسهولة بالغة، ومهما قطعوا الإمداد عنه فإنه سيواصل المضي قدماً على ما يرام. ومن جديد انفجر ضاحكاً حيال مجرد فكرة الضجة التي سيحدثها القرويون. كان لا يزال في الحفرة، ولكن الأمر بدا كما لو كان قد أصبح خارجها، التفت حوله، وكان بمقدوره أن يلمح المشهد بكامله. ليس بمقدورك حقاً أن تحكم على جدارية من الفسيفساء ما لم تنظر إليها عن بعد، أما إذا

اقتربت منها حقاً فإنك ستضلّ في التفاصيل، وإن تبتعد عن جزئية إلا لتقع في الأخرى، ربما لم يكن ما رآه حتى الآن هو الرمال وإنما حبيبات الرمل.

كان بمقدوره أن يلمس الشيء عينه على وجه الدقة عن المرأة الأخرى، وزملائه السابقين من المدرسين فحتى الآن لم يكن يكترث إلا بتفاصيل يولع في شأنها على نحو غريب، فتحتان في أنف غليظ، شفتان مجعدتان أو شفتان رقيقتان ناعمتان، أصابع ملعقية أم أصابع مدببة، عينان متحركتان، سلسلة من الثآليل تحت الترقوة، عروق بتفسجية تجري فوق النهد. ولو أنه تطلع عن كثب إلى هذه الأجزاء وحدها لأحسّ بالرغبة في التقيؤ، ولكن بالنسبة لمتين لها عدسات مكبّرة فإن كل شيء يبدو صغيراً وشبيهاً بحشرة، فأولئك الصغار الذين يزحفون هناك هم زملاؤه يحتسون قدحاً من الشاي في قاعة الكلية، وتلك التي تشغل هذا الركن هي المرأة الأخرى، عارية، على فراش رطب، وعيناها نصف مغمضتين، ولا تعير حراكاً رغم أن رماد سيجارتها يوشك على السقوط. وأحس، فضلاً عن هذا، ودون أدنى شعور بالغيرة، أن الحشرات الصغيرة تشبه أغطية زجاجات الكوكاكولا، ولهذه الأغطية حواف فحسب، وليس لها أعماق. وحتى رغم ذلك فإنه ما من حاجة تدعو المرء لكي يكون صانع زجاجات كوكاكولا مجتهداً لا لشيء إلا ليعجز عن مقاومة صنع زجاجات كوكاكولا لا يحتاجها أحد، لمجرد استخدام الغطاء، ولو أن الفرصة أتيحت له لتجديد علاقته بهم لتعين عليه أن يبدأ من جديد مرة أخرى، فالتغير في الرمال يتوافق مع التغير في نفسه، وربما كان قد وجد، جنباً إلى جنب مع الماء في الرمال، ذاتاً جديدة.

هكذا أضيف العمل في مصيدة للماء إلى اهتماماته اليومية، وبدأت الأرقام والرسوم الإيضاحية في التراكم، موضح دفن الدلو، شكل الدلو، العلاقة بين ساعات النهار ومعدل تراكم الماء، تأثير درجة الحرارة والضغط البارومتري على كفاءة الجهاز. ولكن المرأة استعصى عليها أن تفهم سرّ حماسه لشيء لا قيمة له مثل فخ غربان، وكانت تدرك أنه ما من إنسان يستطيع المضيّ قدماً دون شيء ما يلهو به، وإذا كان هذا الشيء يرضيه فإن ذلك يناسبها. وفضلاً عن ذلك فإنها لم تدر السرّ وراء ذلك، لكنه بدأ يظهر المزيد من الاهتمام بعملها اليدوي، ولم يكن ذلك على الإطلاق شعوراً غير مستساغ، وإذا ما نحيت مسألة فخ الغربان جانباً فإنها رغم ذلك جنت فائدة كبرى من الأمر. ولكنه بدوره كانت له أسبابه ودوافعه، وقد أثار عمله في الابتكار حماسه، على نحو غير متوقّع، إذ كان من الضروري تجميع العديد من العناصر، وتزايد عدد المواد، ولكنه كان من العسير التوصّل إلى قانون يحكمها جميعها. ولو أنه أراد جعل معلوماته أكثر دقة فإنه بحاجة ماسة إلى مذياع للاستماع إلى تقارير حالة الطقس، وقد أصبح المذياع هدفها المشترك.

في بداية توقيير سجل الاستيعاب اليومي من الماء مقدار جالون واحد، ولكن بعد ذلك بدأت الكمية تتناقص كل يوم، وربما كان ذلك يرجع إلى درجة الحرارة، ولاح أن عليه انتظار مقدم الربيع لمحاولة القيام بتجربة شاملة. أخيراً أقبل الشتاء الطويل القاسي، وحملت الرياح نتفاً من الثلج مع الرمال، في غضون ذلك قرّر، من أجل الحصول على مذياع أفضل، أن يساعد المرأة في عملها اليدوي. ومن النقاط التي كانت في صالحها أن داخل الحفرة كان محمياً من

الرياح، غير أنه كان لا يطاق إذ تكاد تكون الشمس محتجبة طوال النهار، وحتى في الأيام التي تتجمد فيها الرمال فإن الكمية التي تذروها الرياح منها لم تقل، كما لم يتم إعفاؤهما من العمل في رفع الرمال، وفي مرات عديدة انفجرت القروح التي تكونت بين أصابعه وبدأت في النزف.

انقضى الشتاء، بشكل ما، وأقبل الربيع. وفي بداية مارس حصلا على المذياع، ونصبا على السقف هوائياً عالياً، وراحت المرأة مراراً وتكراراً تعرب في ابتهاج عن دهشتها بحولة المؤشر إلى اليسار وإلى اليمين على امتداد نصف يوم. وفي نهاية ذلك الشهر وجدت نفسها حبلى. انقضى شهران آخران، وواصلت طيور بيضاء ضخمة التحليق فوقها متجهة من الشرق إلى الغرب طوال ثلاثة أيام على التوالي. وفي اليوم التالي خطى الدم النصف الأسفل من جسمها، وشكت من ألم عنيف. وشخّص أحد القرويين، وكان له قريب يعمل بيطرياً، الحالة بأنها حمل خارج الرحم، وتقرر أخذها إلى المستشفى في المدينة، في الشاحنة ذات العجلات الثلاث. جلس إلى جانبها، وهما ينتظران مجيء الشاحنة، وتركها تمسك بإحدى يديه، فيما راح يربت باليد الأخرى على بطنها.

توقفت الشاحنة ذات العجلات الثلاث أخيراً عند قمة الصخرة، وأدلي سلم من الحبال للمرة الأولى خلال ستة أشهر، وتم رفع المرأة بالحبل، وقد التفت بحراماتها وبغطاء إضافي. تطلعت إليه ضارعة وقد أوشكت عيناها على العجز عن الرؤية، إذ غطاهما الدمع والمخاط، حتى احتجب عنها، وأشاح بناظريه كأنه لم يرها.

ورغم أنهم مضوا بها إلا أن سلم الحبال بقي على حاله، فمدّ يده في تردّد، ولمسه بأطراف أصابعه، وبعد التأكد من أنه لن يتبدد، شرع في التسلّق ببطء. كانت السماء صفراء ملطخة وأحس بثقل ذراعيه وساقيه، كأنه خرج لتوه من الماء. كان هذا سلم الحبال الذي طال انتظاره.

بدا أن الريح انتزعت نفسه من فمه. دار حول حافة الحفرة، وتسلّق بقمة يمكنه أن يرى البحر منها. كان البحر صفرة متسخة. تنفّس بعمق، لكن الهواء لم يُجْدِهِ إلا مضايقة حلقه، ولم يكن له الطعم الذي توقعه. ارتفعت سحابة من الرمال عند مشارف القرية، ربما كانت الشاحنة ذات العجلات الثلاث تقل المرأة... آه، نعم... ربما كان يتعيّن عليه أن يبلغها بعميّ الفخ.

تحرك شيء ما في قاع الحفرة، كان ظله، وبقربه مباشرة كانت مصيدة الماء. تداعى جزء من الإطار، ربما داس أحدهم عليه صدفة حينما أقبلوا لاصطحاب المرأة، فأسرع هابطاً السلم لإصلاحه. كان الماء قد ارتفع إلى العلامة الرابعة على نحو ما توقع بحسب تقديراته، ولم يبد أن الضرر الذي وقع من النوع الكبير. وفي الدار كان صوت مذيع مزعج يتردّد عبر المذياع. حاول أن يقمع النشيج الذي بدا أنه على وشك التفجّر به، وغمس يديه في الدلو. فألفى الماء بارداً على نحو يخترق العظام. تهاوى على ركبتيه، وظل على سكونه، ويداه على حالهما في الماء.

لم تكن هناك حاجة خاصة تدعوه للإسراع، فيما يتعلّق بالهرب،

ففي بطاقة الرحلة الدائرية، التي يمسك بها في يده الآن، كان الاتجاه وتوقيت الرحيل فراغين ترك له أن يملأهما، حسب رغبته. وفضلاً عن ذلك، فقد أدرك أنه ينفجر بالرغبة في التحدث إلى أحد من مصيدة الماء، ولو أنه أراد الحديث عنه لما وجد مستمعين خيراً من القرويين، لسوف ينتهي الأمر بأن يحادث أحداً... إن لم يكن اليوم فغداً.

وبمقدوره، بالمثل، أن يؤجل هربه، إلى ما بعد ذلك.

إخطار عن أشخاص مفقودين

اسم الشخص: نيكي جوجي.
تاريخ الميلاد: ٢ مارس ١٩٢٤

في ضوء حقيقة تقديم إخطار عن فقد شخص، من قبل نيكي شينو (الأم) فإن الإخطار عن وجود الطرف المفقود ينبغي أن يقدم إلى هذه المحكمة في موعد أقصاه ٢١ سبتمبر ١٩٦٣. وفي حالة عدم وجود أنباء أخرى، فإن المذكور سيعتبر مفقوداً. وكل من يعرف شيئاً عن المذكور، مستدعى لإبلاغ المحكمة به في الموعد المذكور أعلاه.

١٨ فبراير ١٩٦٣

محكمة الأحوال المدنية

حكم

المدعية. نيكي شبو.
الشخص المفقود. نيكي جرمي.
تاريخ الميلاد: ٧ مارس ١٩٣٤.

بعد أن تم تسجيل إخطار عن اختفاء الطرف المذكور أعلاه، فإن إجراء الإعلان للجمهور يكون قد تحقق، وبعد الإقرار بعدم التيقن سواء من وجود أو وفاة الشخص المذكور في الفترة من ١٨ أغسطس ١٩٥٥ وعلى امتداد سبع سنوات منذ ذلك الحين، فقد توصلت المحكمة إلى القرار التالي.

قرار
بمقتضى هذا يعتبر نيكي جرمي مفقوداً.
٥ أكتوبر ١٩٦٢
محكمة الأحوال المدنية

توقيع القاضي


روايات يابانية
مؤلفات يوكيو ميشيما
البحّار الذي لفظه البحر
ترجمة عايدة مطرجي ادريس
عطش للحبّ
ترجمة محمد عيتاني
رباعية ميشيما
ترجمة كامل يوسف حسين
حزن وجمال
تأليف ياسوناري كاواباتا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس
علّمنا أن نتجاوز جنوننا
تأليف كينزا بورو أوي
ترجمة كامل يوسف حسين
امرأة في الرمال
تأليف كوبو آبي
ترجمة كامل يوسف حسين
دار الآداب
هاتف ٨٠٣٦٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت